عزيز نيسين

لن نصبح بشراً



ترجمة: محمد

لن نصبح بشراً

* لن نصبح بشراً «قصص»

* تأليف: عزيز نيسين

* ترجمة: محمد مولود فاقي

* الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٢٢٢٠٥

هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ ـ ٤٤١٨١٧٢

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:

الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع

موافقة وزارة الإعلام : ٤٧٨٠٨

إيداع مكتبة الأسد :

مطبعة العجلوني : دمشق

عزيز نيسين

لن نصبح بشراً

« قصص »

ترجمة محمد مولود فاقي

Hsg **Nesin, A.** Lan nuṣbiḥa basharan
1 /2000

Lan nusbiha basharan av Aziz Nesin är en översättning från turkiska till arabiska. Boken består av 24 korta historier, som behandlar människors natur och möten mellan människor.

عنوان الكتاب بالتركية
AZIZ NESIN
BIZ ADAM OLMYIZ

الثريا ذات السواعد الخمس

التقيت منذ مدة طويلة في المقهى برجل قصير مكتنز الصحة لم أعرفه سابقاً.

كنت في تلك الأيام العصيبة والصعبة مفلساً جداً، ولم يكن أمامي سوى بيع أمتعة منزلنا في المقهى لأستطيع دفع شبح الجوع عن جسدي النحيف.

بدأت ببيع الأغراض التي لا ضرورة لها في منزلنا.. ومع مرور الزمن شعرت أنه لا ضرورة لأي شيء في المنزل؛ عندها عزمت على بيع جميع الأمتعة دفعة واحدة، حيث لم يبق سوى الكتب.. والسرير.. وعدد من أدوات المطبخ..

وبما أننا لم ندفع إيجار المنزل منذ شهور طويلة.. فقد أقدم صاحب المنزل على طردنا بالطرق القانونية، ونتيجة لذلك أرسلت زوجتي وأولادي إلى منزل حماي لتقيم هناك عدة أشهر، رغم النفور الشديد والخلافات التي كانت تطبع علاقاتي معهم. قررت الذهاب لمنزل حماي في وقت متأخر من تلك الليلة بعد أن ينام الجميع، وبعد اتفاق مع زوجتي على أن تفتح لي الباب الخارجي.

وصلت منزل حماتي بعد منتصف تلك الليلة.. طرقت الباب بهدوء ونعومة وإذا به يفتح من أول لمسة، وفوجئت بحماتي تنتصب أمامي كالصنم، بدلاً من زوجتي المسكينة! وفور فتح الباب.. أطفأت المصباح الكهربائي دون أن تنطق بكلمة، دخلت المنزل وحاولت السير داخله وسط الظلام الدامس، لكن قدميّ تعثرتا بشيء ما، فسقطت أرضاً..

وحاولت تلمس الأشياء التي وقعت فوقها لأتعرف عليها.. لقد وقعت فوق الكتب!

احترت فيما سأفعله في هذا البيت الذي يسوده الظلام والهدوء.. نهضت بتثاقل من فوق الكتب وتابعت المسير متلمساً الجدار.. سمعت صوت امرأة تبكي، لا شك أنها زوجتي. فتحت الباب الذي كان الضوء يرشح من أسفله.. نعم.. كانت زوجتي تبكي، وقد تورمت عيناها من شدة البكاء. لم يكن ضرورياً أن يمتلك المرء قدراً من العقل حتى يتفهم هذا الموقف؛ لقد زجرها والدها وقال لها:

ـ قولي لذاك الرجل أن يأخذ كتبه التي لا تساوي شيئاً من منزلي، أو أحرقها، وأن لا يأتي إلى منزلي إلا بعد أن يثبت أنه رجل قادر على تربية أولاده ورعاية عائلته..!

بعد هذه الحادثة اعتدت على الدوام في المقهى.. وكان ذلك الرجل القصير المكتنز يرتاد المقهى مثلي منذ الصباح حتى المساء.

بعد ظهر أحد الأيام جاء إلى المقهى وفي يده ثريا لها خمسة سواعد، ووضعها على الطاولة، ثم تناول فنجان قهوة وقضى يومه جالساً هناك.

توالى حضور الرجل إلى المقهى حاملاً الثريا، ومن ثم يضعها فوق الطاولة. حيث يمضي يومه هناك، ويغادر عند المساء حاملاً الثريا.

في صباح أحد الأيام دخل إلى المقهى والثريا في يده.. ولكنني لاحظت أن ثمة نقصاً في عدد البلورات الزجاجية في الثريا، فقلت في نفسي ربما تكون قد كسرت. وبعد أيام لاحظت أن النقص قد ازداد، فلم يبق فيها سوى خمسة مصابيح وزجاجتين فقط. وهكذا.. حتى أصبح الهيكل المعدني للثريا في يد الرجل فارغاً، بعد أن كسرت كلها خلال أيام قلائل!! وظل ممسكاً بهذا الهيكل المعدني ذي اللون البرونزي

أبداً..

وبما أنني لا أستطيع الذهاب إلى بيت حماي.. صرت ألتقي بزوجتي في الحدائق العامة والشوارع، لأن قرار حماي كان صارماً: «إذا لم أجد عملاً يساعدني على إعالة أولادي، فإنه لن يسمح لي بدخول منزله.. حتى أنه منعني من التحدث مع زوجتي، أي ابنته.. وإذا استمرت أوضاعي على هذه الحال ربما فرقها عني..».

حاولت المستحيل كي أجد عملاً.. كنت على استعداد أن أعمل أي شيء، غير أنني فشلت لأن جميع الأبواب قد أوصدت في وجهي.

وذات يوم التقيت صديقاً قديماً لي فشرحت له حالي.. وموقفي الصعب مثلما كنت أشرحه لكل شخص ألتقيه. فقلت له:

ـ أنا على استعداد أن أعمل أي شيء.. حتى ولو كان نقل الحجارة والأتربة في البنايات أو غيرها.

فأشفق علي وقال:

ـ بما أنك مستعد للعمل هكذا.. لماذا لا تعمل بالتجارة؟ فهي أفضل مجال؛ تعمل بالتجارة.. تبدأ ببيع الأشياء الصغيرة.. ثم يتوسع عملك رويداً رويداً.. نعم اشتغل بالبيع.. تبيع المناديل.. والجوارب.. وتربح قليلاً. تعال غداً لأعطيك مبلغ خمسمائة ليرة لتبدأ بها.

أخذت عنوانه وافترقنا، كدت أطير من الفرح.. من يعطي أحداً خمسمائة ليرة في هذا الزمن الصعب!؟ إذن يبدو أن الأناس الطيبين ما زالوا موجودين على وجه الأرض.

في ذلك الصباح، وكما في كل يوم، مررت بذلك المقهى، أقطع الوقت فيه حتى يحين موعد مقابلة صديقي. لكن بعد وصولي المقهى بقليل، فوجئت بذلك الرجل القصير السمين يدخل المقهى وهو يهز الهيكل المعدني للثريا.. أخذ كرسياً وجلس قريباً مني على طاولتي، ووضع

قطعة الحديد فوق الطاولة. وبما أننا تعارفنا بالنظر فقط، سلمنا كل على الآخر، ثم قال لي:

ـ كيف حالك؟

قلت:

ـ أشكرك.. وكيف حالك أنت؟

وهكذا بدأنا الحديث، وخلاله سألته وأنا أبتسم:

ـ عفواً.. ما هذه الثريا التي في يدك..؟ ما قصتها؟ أراك دائماً تحملها.

ـ أقلت هذه؟ هذه القطعة القليلة الناموس والعديمة الأخلاق؟.. آ.. آ.. آ.. إنها مصيبتي.

ـ إذن هكذا..!

قلت هذا تعبيراً عن حيرتي ودهشتي. قال:

ـ قصتها طويلة جداً.. لأنه عندما يتعثر الإنسان للمرة الأولى فمن الصعب جداً أن يلُمَّ نفسه ثانية، بل مستحيل.. لقد بقيت دون عمل.. وحتى عندما كنت أعمل.. كنت أعيش بصعوبة بالغة. لم يكن لدي مبلغ أدخره لحين الحاجة. وها قد وقعت في ضيق شديد جداً.. وعندي زوجة وطفلان..

قلت بحزن.

ـ أنا الآخر..!

قال:

ـ أنت لا تعرف مقدار الضيق الذي أعاني منه.

ـ وكيف لا أعرفه..؟! أنا الآخر أعاني منه الأمرَّين.

ـ في البداية بدأنا ببيع أغراض منزلنا: هذا لازم.. وهذا غير لازم. كنا

نبيع الأشياء غير الضرورية. وجاء يوم وفهمنا أنه لا يوجد شيء ضروري في المنزل، فبعنا أغراضنا كلها.

ـ يا للغرابة..! مثلنا تماماً.

ـ لم يبق سوى الكتب وبعض الفرش والأغراض المنزلية الصغيرة كالصحون والطناجر. وعندما قذف بنا صاحب الدار إلى الشارع عن طريق المحكمة لعدم دفعنا الإيجار له..

وهنا، فوراً، أكملت عنه قائلاً:

ـ وأنت طبعاً بعد ذلك.. أرسلت زوجتك مع الأولاد إلى بيت حماك.

ـ ومن أين عرفت ذلك؟!

ـ لأني شخصياً فعلت نفس الشيء.

ـ نعم أرسلتهم إلى بيت حماي.. والعلاقة بيني وبين حماتي وحماي متوترة جداً، فمنذ زواجي من ابنتهم لا أحد منا يفهم الآخر.

كان الرجل يقص قصته كأنها صورة طبق الأصل عن حياتي.. أصغيت إليه بحيرة واستغراب. قال إنه ذهب إلى بيت حماه بعد منتصف الليل، وبدلاً من أن تفتح له زوجته الباب.. فتحه حماه.. وأطفأ المصباح الكهربائي في وجهه.. ووقع الرجل القصير السمين فوق كتبه وسط العتمة..! كانت كل التفصيلات حتى أتفهها صورة طبق الأصل عن قصتي..! مستحيل أن تتشابه الأحداث بهذا الشكل الدقيق! وربما يكون قد سمع ما جرى لي في بيت حماي ويريد أن يسخر مني.

ـ أعرف ذلك.. أعرف ذلك.. لا تدخل في التفصيلات.. فقط قل لي ما قصة هذه الثريا التي تحملها في يدك.

ـ في أحد الأيام.. قابلت أحد أصدقائي القدامى..

ـ وهل أعطاك هذا الصديق مبلغ خمسمائة ليرة؟؟

- نعم، ولكن من أين عرفت ذلك؟! فأنا لم أذكر ذلك أمام أحدٍ.

- أنا أقص لك ما جرى لي.. طيب، وهل أخذت المبلغ منه؟

- نعم، أخذته.

- أما أنا فحتى الآن لم آخذه.. بعد قليل سأذهب كي أستلمه من صديقي. وما الذي حصل بعد ذلك؟

- عندما ذهبت إلى بيت صديقي كنت على وشك الموت جوعاً، لأنني ومنذ يومين، لم أذق سوى كأسين من الشاي.. أعطاني صديقي المبلغ على الفور وشكرته وقلت له: «سأعمل بجد ونشاط لأعيد لك المبلغ خلال فترة قصيرة» فقال: «لا تتعجل في رد المبلغ.. فقط كوِّن نفسك جيداً». شكرته.. وافترقت عنه مصمماً على الذهاب إلى سوق الهال كي أشتري بضع صناديق من الفاكهة لأبيعها في السوق.. وكان مبلغ مائة، أو مائة وخمسين ليرة تكفيني كي أقوم بهذا العمل.. ولم يدر في خلدي أن أضع كل ما أخذته من صديقي، والذي هو رأس مالي كله، في تجارة واحدة خشية الوقوع في بعض الإشكالات، وخسارة المبلغ.

وفيما كنت أمر أمام أحد المطاعم، لفت نظري الطعام الموضوع في واجهته.. فكرت، وقلت في نفسي لأدخل، وأملأ بطني قبل كل شيء.. لأنني كنت سأموت من الجوع.. وكان بإمكاني أن أشبع بطني بخمس أو عشر ليرات، غير أني كنت أخشى أن يضيع المبلغ مني ويتلاشى، وهذا ليس من حقي.

وما إن قطعت مسافة قصيرة، إذا برائحة كباب نفيسة زكية تمخر عباب أنفي.. بائع كباب متجول.. سيار.. لقد أخذ مني الجوع كل مأخذ ولم تبق لي قدرة على تحمله.. اقتربت من البائع قليلاً.. ثم ابتعدت.. لقد تذكرت ثانية أنه ليس من حقي صرف هذا المال على الأكل، كان علي

أن أربح وآكل من عرق جبيني.

ثمة رائحة خبز طازج داعبت أنفي.. فعرفت أنني كنت أمر أمام أحد الأفران. قلت في نفسي ماذا لو اشتريت خبزة واحدة فأسد رمقي بالخبز فقط؟ ولكن وجدت أنه لا حق لي في ذلك أيضاً.. فإذا ما بدأت الأكل من الرأسمال، هذا يعني أنها بداية لا نهاية لها.

وقفت مطولاً أمام بائع كعك طازج «مقرقش» هل أشتري كعكة يا ترى؟ لا أبداً، فبهذا المبلغ سأربح المال اللازم كي أخلص زوجتي وأولادي من بيت حماي.

كان الجو حاراً بشكل لا يحتمل.. وكنت على وشك أن أشتري كأساً من عصير الليمون، وأنا في طريقي من أمام بائع العصير المثلج، لكنني عزفت عن ذلك رغبة مني في أن يراني ذلك الرجل الذي هو بمثابة حماي كيف سأربح بهذا المبلغ أموالاً طائلة.. فيزدرد ريقه، ويبتلع لسانه من الدهشة.

كان العطش قد أخذ مني كل مأخذ، حتى أنني لم أقو على ركوب الترامواي، وكنت منهكاً جداً، غير أنني لم أتجاسر على صرف عشرة قروش لشراء كأس من الماء أطفئ به ظمئي.

ذهبت إلى السوق المسقوف /المغطى/ سالكاً أقصر الطرق، وعندما مررت أمام (بدستن) رأيت زحمة كبيرة. هناك يبيعون الأدوات المنزلية القديمة بالمزاد العلني.. وكانت الشمس قد قاربت على المغيب، وأنا لا أزال أفكر بالذهاب إلى سوق الهال صباح اليوم التالي لأشتري بضعة صناديق من الإجاص والخوخ وأبيعها.. وهذا يعني أنه لا يمكنني عمل أي شيء في ذلك اليوم، وكذلك لو ذهبت إلى المقهى وشربت كأس شاي، أو فنجان قهوة فسأصرف المبلغ هكذا دون فائدة، وقلت أفضل شيء أن أبقى هنا في السوق أراقب كيف تتم عملية البيع والشراء.. وأمضي الوقت

ذلك اليوم لأنه حتى لم تتكون لدي أية فكرة عن طريقة البيع في (بدستن). ومثل الجميع دخلت صالون البيع.. أماكن الجلوس فيه على شكل مدرجات، ومثل الجميع جلست في مكان كان الدلال والأغراض المعروضة للبيع كلها أمامي.

انتقى الدلال من الأغراض التي كانت أمامه «آلة تصوير» وقال بصوت عال:

ـ لم تستعمل كثيراً.. إنها تعمل على أكمل وجه، إنها آلة تصوير من نوع (روليفكس)، عدستها اثنان ونصف، وسعرها التخميني (٣٠٠) ليرة.. (٣٠٠) ليرة.. من يشتريها..؟ أين ذلك الشخص..؟ (٣٠٠) ليرة..

قال أحد الجالسين مثلي صارخاً:

ـ ثلاثمائة وعشرة.

الدلال:

ـ ثلاثمائة وعشرة.. ـ ؟ ـ ثلاثمائة وعشرة.. ثلاثمائة وعشرة..

قال شخص آخر:

ـ ثلاثمائة وخمس عشرة.

وتعالت الأصوات من أرجاء الصالون الكبير:

ـ ثلاثمائة وست عشرة.

ـ ثلاثمائة وسبع عشرة.

ـ أنا عندي بـ ثلاثمائة وعشرين.

ـ أربعمائة وخمسين.

توقفت المزايدة لوقت قصير.. عندها بدأ الدلال ثانية:

ـ ستذهب بـ أربعمائة وخمسين.. آلة تصوير (روليفكس).. عدسة

احتياطية من نوع (م. آ. و.).

قال أحد الجالسين في الصالون:

ـ دعني ألقِ نظرة على هذه الآلة.

مدَّ الدلال الآلة للشخص.. قال الرجل بعد أن فحص الآلة جيداً:

ـ أربعمائة وستون.

ـ أربعمائة وواحد وستون.

ـ اثنان.

ـ أربعمائة وسبعون.

هنا ارتفع صوت الدلال أكثر:

ـ أربعمائة وسبعون.. أربعمائة وسبعون.. أليس من طالب؟ أليس من طالب؟ سأبيعها.. سأبيعها.. بعتــهــا.

وضرب بيديه على الطاولة.. هنالك رجل آخر كان يجلس قرب الدلال، أخذ فاتورة وسجل عليها اسم الرجل.. وقبض منه المبلغ، وناوله الآلة.

ثم أخرج الدلال آلة كاتبة قديمة، وعرضها للمزاد وصاح:

ـ كل شيء فيها تمام.. إنها تعمل على أكمل وجه.. وهي من ماركة (منغستون)، سعرها التخميني (٦٠٠) ليرة..

ـ ستمائة وليرة.

ـ ستمائة وعشرة..

ـ ستمائة وخمسون..

في حياتي كلها لم أرَ ما يثير حماسة الإنسان بهذا الشكل..! مزاد لا مثيل له، كل شخص يزيد على الآخر.. سباق على الشراء.. صرت أقفز

في مكاني وكدت أجن..

- ستمائة وخمس وخمسون..

- ستمائة وثمانون..

صرت أقفز من مكاني دون توقف..

- ستمائة وتسعون..!..

- سبعمائة..

- سبعمائة وعشرة!..

كنت منفعلاً بشكل عجيب فصرخت بملء صوتي:

- سبعمائة وخمسون..!

لقد كانت صرختي قوية وخارجة من أعماقي حيث أنها قطعت الأصوات كلها داخل الصالون دفعة واحدة، وصارت عيون الدلال معلقة بي.

- سبعمائة وخمسون.. هيا.. أين..؟ أليس من طالب..؟ سأبيعها بسبعمائة وخمسين.. سأبيعها.. سأبـ..

وإذا بصوت يرتفع:

- سبعمائة وإحدى وخمسون.

هوه... أخذت نفساً عميقاً.. وارتحت بعض الوقت..

ماذا كنت سأفعل لو أن المزاد رسا علي، وليس معي أكثر من خمسمائة ليرة؟!

بيعت الآلة الكاتبة بسبعمائة وثمانين ليرة. بعدها أخرج الدلال مكنة خياطة يدوية.. وبدأ المزاد بـ خمسمائة ليرة. لقد انتهيت من الورطة الأولى بسلام.. كنت أتمالك نفسي بصعوبة بالغة حتى لا أشترك في المزايدة

وأتورط ثانية.

ـ خمسمائة وعشرة.

ـ خمسمائة وعشرون.

ـ خمسون.

ـ ستمائة.

الصارخ الأخير كان أنا.. الرؤوس كلها استدارت نحوي.. وشعرت كأن ماءً مغلياً صُبَّ على رأسي.. كيف صرخت أنا هكذا.. قال الشخص الذي يجلس قربي:

ـ لا تساوي ستمائة ليرة.

قلت له:

ـ وما شأنك ولك أخي؟.. ألست أنا الذي سأدفع المال؟

قال:

ـ لأنني ميكانيكي، ولهذا السبب قلت لك ذلك.

ـ ألسنا نفهم بالماكينات مثلك يعني؟

بعد ذلك صرخ الرجل:

ـ ستمائة وليرة واحدة.

لقد خفت كثيراً من أن يرسو المزاد علي.. وهكذا أكون قد تخلصت من الورطة الثانية بسلام.

المزاد لم ينته.. أخرج الدلال مزهرية للمزاد. في كل مزاد كنت أقفز من مكاني كالسعدان، ولكي لا أصرخ فقد وضعت يدي الاثنتين على فمي.

بعد المزهرية أخرج لوحة رسم زيتية. وبعدها بيعت مكنسة كهربائية،

ثم أخرج الدلال ثريا:

- ثريا بخمسة سواعد.. وضعها جيد جداً.. سعرها التخميني أربعون ليرة.. هل هناك من طالب..؟ أربعون ليرة..

- إحدى وأربعون.

الجالس إلى يساري:

- اثنتان وأربعون.

الجالس عن يميني:

- خمس وأربعون.

الجالس أمامي:

- ثمان وأربعون.

وقال الجالس من خلفي:

- خمسون.

لم يبق عندي طاقة للصبر فقلت صارخاً:

- إحدى وخمسون.

كان الجو مشحوناً، وانفعالات غريبة تحرك الجميع، حتى أنه ليصعب على الإنسان أن يتمالك نفسه ويتوقف عن الصراخ، والانفعال، والمشاركة في المزاد.

قال الجالس عن يميني:

- ثلاث وخمسون..!

قال الذي عن يساري:

- خمس وخمسون..!

لست أدري كيف حصل ذلك فصرخت:

- ستون.

قال الجالس عن يساري:

ـ خمس وستون..

حاولت أن أتمالك نفسي لأسكت بعض الشيء، ولكن لم تكن في اليد حيلة فصرخت:

ـ سبعون..

ـ إحدى وسبعون..

ـ خمس وسبعون..

كان العناد قد استبد بي.. ولست أدري كيف حصل ذلك، فصرخت دون وعي، وبصوت مرتفع:

ـ ثمانون..

ـ مائة..

ـ مائة وخمس عشرة..

قال الشخص الجالس إلى يساري:

ـ مائة وخمسون..

قلت:

ـ مائتان.

قال الجالس عن يساري:

ـ مائتان وخمسون..

مرة مني.. ومرة منه.. غير أن زيادته في كل مرة لم تكن لتتعدى الليرة أو الليرتين. أما أنا.. ولم أعلم ما سبب ذلك، هل مرده شدة الانفعال، أم العناد.. فكنت أزيد بخمس أو عشر ليرات..

قال:

- مائتان وإحدى وخمسون..

- مائتان وستون..

- مائتان وإحدى وستون..

- مائتان وسبعون..

- واحد..

- مائتان وثمانون..

وبعد نهاية كل مزايدة كنت أدعو الله أن يزيد أحدهم أكثر مني وأرتاح من هذه المصيبة.. وتبقى الثريا له.

- مائتان وتسعون.

لو قال مائتان وإحدى وتسعون كنت سأسكت.

- مائتان وإحدى وتسعون..

لكنني لم أستطع أن أتمالك نفسي، فقلت دون وعي:

- ثلاثمائة..

وهكذا بقينا، هو يزيد وأنا أزيد عليه حتى تجاوزنا الأربعمائة، واستمرينا.. فما إن قال الجالس قربي:

- أربعمائة وإحدى وتسعون..

صرخت من أعماقي:

- خمسمائة.

وكأن شخصاً آخر يصرخ من أعماقي، لكن لو قال الرجل: «خمسمائة وليرة» كنت سأخرس، لأنني لا أملك أكثر من خمسمائة ليرة قرشاً واحداً..

وكأن الرجل يعرف مقدار المبلغ الذي في جيبي، وإذا به يقول:

ـ خذها.. مبروك عليك.

ساد الصمت في الصالون.. قال الدلال:

ـ ثريا ذات خمسة سواعد بخمسمائة ليرة.. هل من راغب في الزيادة..؟ أليس من مزايد..؟

عندما قال الرجل ذلك كنت أحدق في عيون الحاضرين وكأنني أستعطفهم.. أطلب الرحمة والشفقة منهم.. كي يخلصوني من هذا المأزق الذي أنا فيه. ولكن لم يتقدم آدمي واحد ليقول: «خمسمائة وليرة» وينقذني.. أحسست أن رجلاً ما قد حرك شفتيه.. ربما تراءى لي ذلك.. فقلت للرجل:

ـ هل كنت تريد أن تقول شيئاً أيها السيد؟

قال:

ـ لا.

وماذا يحصل لو قال ذلك؟! هل ماتت الإنسانية؟! حتى أن الدلال الذي كان يظل فترة طويلة قبل إقفال المزاد، هو الآخر أسرع واختصر هذه المرة أيضاً.

ـ سأبيع.. بعت..

هل تتحطم الثريا لو انتظرت بعض الوقت أيها الواطي؟ فلربما تكون ضرورية أكثر لأحد المواطنين، لماذا تستعجل هكذا؟! نعم، هكذا..؟ وإذا بموظف يمد الفاتورة نحوي.. عليها اسمي وعنواني.. وخرجت مع ذلك الموظف من الصالون لأنهم لم يتركوا لي مجالاً لأهرب منهم.. وأنهوا عمليات البيع خلال فترة قصيرة، وأخذوا مني المبلغ حتى آخر بارة، ووضعوا الثريا ذات السواعد الخمسة في يدي. أما الرجل الذي شاركني المزاد، فقد كان قريباً مني وقال لي:

ـ مبروكة، إنشاء الله تستعملونها بخير وسلام.. لقد اشتريتم بضاعة

ممتازة.

قلت له:

- ومن أين عرفت أنها بضاعة ممتازة؟

- وكيف لا أعرف؟ إنني أنا صاحبها!!

قلت:

- من يدري كم أحسستَ بالضيق عندما بعتني إياها.. ما رأيك لو أرجعتها لك بأربعمائة وثمانين ليرة؟

قال:

- لا هذه من نصيبك.. أنا لا أستطيع أن أردها.

قلت:

- إنني حزين من أجلك، أعطني أربعمائة ليرة وخذها.

قال:

- إنشاء الله يأتيك الخير معها.

قال ذلك وابتعد عني.. صرخت من خلفه:

- أعطني ثلاثمائة ليرة وخذها ولَكْ..

لم يسمع كلامي حتى أنه لم يلتفت إليَّ.

فتابعت طريقي والثريا في يدي.. أعرف أنها بضاعة جيدة وغالية.. ولكن لا بيت لي ولا مأوى.. ماذا سأفعل بها؟! أخذتها إلى بائعي الثريات وحاولت بيعها..

- كم تريد ثمنها؟

- إنها غالية جداً.. ولكنني سأبيعها لكم بستمائة ليرة.

قالوا وهم يضحكون:

ـ نعطيك من نفس البضاعة وهي جديدة، ولم تستعمل أبداً، بخمسين ليرة.. وبقدر ما تريد..!

وهكذا بقيت الثريا في يدي. عند المساء التقيت زوجتي في الحديقة.. كانت تبكي وتقول:

ـ يقول لي أبي: «إما أن تذهبي عني، أو تطلقي هذا الرجل».. أنت مجبر على إيجاد عمل ما.. كي تخلصنا من هذا الموقف.

كنت في حيرة من أمري وأمرها.. قدمت لها الثريا وقلت لها:

ـ لا تفكري كثيراً.. اضغطي على نفسك وتحملي بعض الوقت. ذهب الكثير ولم يبق إلا القليل. إنني أجهز لك بيتاً رائعاً، وسيدهش والدك لما يراه، ولقد اشتريت له ثريا منذ الآن.. انظري كم هي جميلة.. وذات خمسة سواعد.

نهضت زوجتي عن المقعد.. ونظرت في وجهي وكأنني قلت لها كلاماً غريباً.. وغادرت المكان دون سلام ولا كلام.. وغابت.. ولم أر وجهها ثانية..

ومنذ ذلك اليوم.. والثريا في يدي.. لا أدري أين أضعها.. وليس لي منزل أو كوخ صغير.. ولا أحد يشتريها مني. لقد أصبحت مصيبة على رأسي.. ولدى أدنى حركة مني تصطدم هنا وهناك.. وكما ترى لم يبق منها شيء غير هذا الهيكل المعدني.. أفلا يحق لي أن أحزن يا صديقي؟؟ لو أنني صرفت من المبلغ عشر ليرات أشبعت بها بطني على الأقل.. لو شربت كأساً من الماء.. ما كنت أحسست بكل هذا الألم.

نظرت إلى الرجل القصير المدعبل بعين الشفقة وهو يقص لي قصته الغريبة، وكان الوقت قد حان كي أذهب إلى صديقي لآخذ منه الخمسمائة ليرة التي وعدني بها. خرجت من المقهى، وسرت في الشارع وأنا أفكر وأتساءل: «كيف تكون قصة حياة هذا الرجل القصير المدعبل

صورة طبق الأصل عن قصة حياتي؟!!» وربما أنتم تريدون معرفة السبب.. سأقول لكم:

ليس الرجل الذي اشترك في المزاد العلني واشترى الثريا، والقصير القامة والممتلئ الهيكل سوى شخصي أنا.!. وقد ابتدعت شخصاً آخر من مخيلتي ليكون بطلاً لها.. حتى لا يسخر مني أحد.. يسخر من غبائي وحماقتي.. أقصها وكأن الحادثة جرت مع شخص آخر.

o o o

OOOO!

مضت تلك الأيام التي كانت تأتيني فيها من القراء أكثر من أربعين رسالة في اليوم الواحد.. وكذلك تلك الأيام التي لم أكن أجد فيها وقتاً لقراءة الصحف والمجلات من كثرة رنين الهاتف في منزلي، وكثرة الضيوف الذين كانوا يزورونني.. حتى أن الكراسي لم تعد تكفي. نعم لقد ولت تلك الأيام.. فمثلها يجيء ويروح، ويأتي ويذهب.

وما أن يغيب اسمي عن صفحات الجرائد والمجلات، حتى يتوقف رنين الهاتف في منزلي، وينقطع التيار الكهربائي.. ينقطع الغاز.. وتنحبس المياه.

وعندما تتوقف كل هذه الأشياء، يعزف الزائرون عن زيارتي.

في هذه الأيام لا يأتيني أحد يطلب مني نصحاً أو مشورة.. ولا طلباً للمال والمساعدة، أو للعمل.. هكذا أنا سعيد. وسأكون أسعد الناس عندما لا يأتيني الدائنون لاستيفاء ديونهم، لأنني مفلس.

ثمة قدر غريب يحيط بطغمة الكتاب.. فإذا ما ظهرت أسماؤهم وسطعت، يكونون عقلاء، وتزداد رغبتهم في تقديم المواعظ والحكم، ويصبحون أغنياء تتجرأ على طلب المال منهم، محبين للخير تستطيع التعاون معهم، قادرين على تأمين العمل للعاطلين؛ فإذا ما غابت أسماؤهم فترة ما، وهوت تواقيعهم، يتحولون بين ليلة وضحاها إلى مجانين ومفلسين، وغير محبين للخير وللعاطلين.. ويتحول طالب النصح في الماضي إلى إنسان يعطي النصائح، ويبدأ طالبو المال بالتهرب كي لا يطالَبوا بديونهم..

فمن كنت تساعده في الماضي، يتجاهلك كي لا تطلب أنت منه المساعدة، والذين أمنت لهم ظروف العمل في الماضي، يهربون منك اليوم كي لا تطلب منهم عملاً ما.

أنا هكذا.. منذ خروجي الأخير من السجن. هذا الأمر لم يحدث معي للمرة الأولى، أو للمرة الخامسة.. تستطيعون أن تقولوا: «يجب أن تعتاد على هذا الأمر». لا.. فأنا لا أستطيع أن أعتاد عليه، حتى لو حصل معي للمرة الألف فلن أعتاده.

انظروا ما الذي جرى معي قبل أيام.. كنت أصعد طريق «الباب العالي» ببطء شديد جداً.. ذلك الذي كنت أصعده بسرعة كبيرة قبل سنوات.. قديماً لم تكن هذه الطلعة قاسية بهذا الشكل، وكأنني أحسست أنها أصبحت أشد انحداراً عاماً بعد عام.. وأشعر أن طلعة الباب العالي ستصبح ذات يوم جداراً عمودياً أمامي يتعذر علي صعوده.. وبينما كنت أصعد هذه الطريق، رأيت أحد الأصدقاء نازلاً بين الزحام.. صديقي هذا يحبني كثيراً، ويظهر حبه لي دائماً.. في أي مكان نلتقي فيه، صديقي هذا يفتح لي ذراعيه من بعيد صارخاً: أوووو.. ويضمني إلى صدره، وينهال على خديَّ بالقبل الكثيرة كأنني أخوه أو أبوه أو ولده.. أنا لا أحب مثل هذا الحب المصحوب بالضجة والصراخ.. وبما أنني على يقين من لهفة صديقي هذا تجاهي، كنت أبادله هذا الحب بطريقته.. أفتح ذراعي وأضمه إلى صدري، وأقبله من خديه، تماماً كما يفعل هو.

كان شرطي المرور قد أوقف السيارات في نقطته المقابلة لمقهى / المسرات/، وأفسح المجال للمارة ليعبروا بسلام، فاختلط الصاعدون بالنازلين في نقطة المرور هذه.. أثناءها رأيت صديقي، وبما أننا لم نلتق منذ شهور طويلة، كنت على يقين بأنه سيعانقني بقوة، ويستقبلني بصوته القوي أكثر من ذي قبل.. ولكي لا أكون أقل منه حرارة في الاستقبال

سبقته وفتحت ذراعي واتجهت نحوه وأنا أصرخ: أوووو.. ودنونا من بعضنا حتى تلاقت نظراتنا، كنت على وشك أن أعانقه، لكنه أشاح بنظره عني.. وانسل عن يساري هارباً مني..!

لا أدري كيف أشرح لكم موقفي آنذاك. لقد بقيت يداي مرفوعتين نحو الفضاء.

أرجوكم تصوروا موقفي آنذاك: شرطي المرور أوقف السيارات في نقطة تلاقي الشوارع الأربعة، والمارة يجرون بسرعة، ورجل وسط هذه الزحمة يفتح ذراعيه في الهواء ويصرخ: أوووو..

كنت أمام شرطي المرور تماماً.. احترت.. ماذا أفعل يا ترى..؟

أشخاص كثيرون ظلوا واقفين، وبعضهم كان ينظر إلي.. كانت الحيرة والدهشة قد شلتني تماماً.. وربما كان لشدة خجلي من الموقف لم أستطع خفض راحتي، وبقيتا مشدودتين نحو الأعلى.. كما أنني لم أقو على التوقف عن الصراخ الصادر عني: أوووو.. وخلال هذا الموقف وعبر ثوان معدودات، تمر في ذاكرتي أشياء وأشياء.. «هنا الباب العالي.. حارتي.. شارعي.. كثيرون جداً يعرفونني، لكنهم يجهلون وضعي وسبب وقوفي رافعاً ذراعي نحو الأمام، وصراخي بأعلى صوتي: أوووو... سيقولون إن المسكين قد خرف. تمنيت لو أني شاهدت أحد معارفي ضمن الزحمة، كي لا تذهب مشاهد الصداقة هذه سدى، وكي لا يسخر مني الناظرون.. آه لو أرى واحداً منهم.. لكنت سألفه بذراعي، وأقدم له باقة حب كبيرة. لكنني لم أر وجها أعرفه بين هذه الزحوف البشرية التي كانت تتحرك في الاتجاهين».

أشار شرطي المرور للسيارات بالتحرك فتوقف المارة على جانبي الشارع.. طبعاً، والإنسان لا يستطيع أن يمشي باتجاه السيارات فاتحاً ذراعيه وصارخاً: أوووو.. احترت تماماً.. ولحسن الحظ.. رأيت امرأة

كانت آخر من يمر على ممر المشاة إلى الطرف الثاني؛ وأحسست كأنني أعرفها.. إنها في الخامسة والخمسين أو الستين من عمرها. امرأة بدينة إلى حد ما. لم أتذكر اسمها، ولكنني أتذكر أني تعرفت بها في مكان ما. وكالغريق الذي يلف منقذه بذراعيه.. ضممتها إلى صدري بقوة وأنا أصرخ: أوووو.. بينما كانت الشاحنات والحافلات بدأت تتحرك، وبقينا هكذا نلف بعضنا بين الشاحنات والعربات، وأنا لا أزال أصرخ: أوووو..

مد سائق الشاحنة التي تمر عن يميني رأسه من النافذة، وقال:

ـ أووووها..

وفجأة تذكرت المرأة التي كنت أحضنها؛ كانت تعمل خادمة في منزل أحد أصدقائي قبل أربع أو خمس سنوات.

صرخ شرطي المرور:

ـ ابتعدوا عن وسط الطريق يا سيدي.

وبعد أن شددت على يد المرأة التي استغربت موقفي، قلت لها:

ـ هيا مع السلامة.. مع السلامة..

ومشيت بين العربات.

أصاب المرأة الذهول والدهشة مما حصل معها.. أما أنا فلا أزال حتى الآن أستحي من موقفي ذلك اليوم.

○ ○ ○

حكاية ساخرة جداً

تلك الليلة، وُجدت بين أناس لا أستطيع التلاؤم معهم. كنت مدعواً.. الصالون جميل جداً.. والمدعوون الذين يملؤونه يعتبرون من النخبة المختارة في مجتمعنا.. ولأنني لست من هذه الطبقة، كنت أشعر ببعض الحرج تجاه الأشياء والأشخاص الذين غص بهم الصالون الكبير. هذا الإحساس الذي انتابني آنذاك لم أكن أفهمه.. وحتى الآن لا أعرف ماهية وكنه تلك الأحاسيس.. وكنت أشعر أنهم أيضاً بالمقابل ينظرون إلي وكأنهم يحاكمونني.. وكانوا يمعنون النظر بي كأنني مخلوق غريب.. وشعرت أنني لو تكلمت لقفزوا من أماكنهم وصرخوا: «آ.. آ.. لقد تحدث.. لقد تحدث..»

لو أن أناساً غيري وجدوا مكاني وفي هذا المجلس، لكانوا إما أن ينزووا في أماكنهم لا يحركون ساكناً.. وإما أن يقفوا موقف الدفاع عن أنفسهم، ويتحولون إلى أناس قساة.. في الحالة الأولى، لا يجدون مكاناً ليضعوا فيه أيديهم وأرجلهم، ويصبحون كحشرة التسبيح التي تتكور حول نفسها وتنزوي دون حركة. أما أنا فلم أسمح لنفسي أن أعتبر لا من الحالة الأولى، ولا الثانية، بل كنت أحاكي نفسي على الدوام متمتماً: «لماذا جئت إلى هذا المكان»؟

وبينما كنت أفكر في موقفي الصعب والعرق يتصبب مني وأنا منزوٍ في زاويتي البعيدة، إذا بثلاث نساء ورجلين يقتربون مني ويبدؤون طرح الأسئلة المتلاحقة علي:

ـ هل تضحككم القصص التي تكتبونها؟

وأكثر السائِلات كانت امرأة جميلة على وجهها بعض [؟]، في صوتها بحة تشبه الخيار الطري الصغير الناعم الذي خرج من برعمه منذ وقت قليل فقط؛ ولذا فقد ساورتني نفسي ساعتها أن آكل صوتها هذا مثل الخيار.

- من يدري؟ فقد تضحكون كثيراً عندما تكتبون.

من الواضح أنهم كانوا يريدونني أن أضحك أنا الآخر مع كل قصة أكتبها. أما أنا، فكنت ساكتاً على الدوام.

- وربما لا تضحكون! أليس كذلك؟ إنه شيء يحير.. ! ألا تضحكون أبداً؟

هذه الأسئلة كانت توجه إلى ذلك المخلوق الغريب الذي لا يعرفونه، ومن خلاله يريدون معرفة أكثر عني..

- أنا لا أضحك.

وضعت المرأة الجميلة ذات الصوت الأبح قدح الويسكي من يدها فوق الصينية وجلست قربي، فوصلت حرارة ركبتها الكروية إلى أعماق القساوة في جسدي، وسألت:

- يجب أن تكون هناك حادثة ما أضحكتك كثيراً يا روحي، هيا قص لنا واحدة منها.. ماذا يحصل يعني؟

كنت أريد أن يأخذ أناس هذه الدنيا الجديدة صورة غير التي يرونها في وجهي وحركاتي، وهي الجمود والتجهم.

- أنا لا أستطيع أن أضحك من كتاباتي.. ولا أتذكر حادثة مرت بي ضحكت لحدوثها.. ولكن قبل خمسة عشر عاماً حدثت معي حادثة، عندما أتذكرها وحتى الآن.. أضحك.

- هل تقصونها لنا..؟ ماذا يحصل؟

ـ نعم.

بدأت أحكي:

ـ قبل خمسة عشر عاماً كنت محبوساً في سجن /عسكري/. قبل أن أدخل السجن اشتريت مذياعاً بالتقسيط، وكان سعره ستمائة ليرة، دفعت منهم أربعمائة ليرة ولم أستطع أن أكمل لهم الباقي. طلب مني صاحب المذياع عن طريق موظفي التنفيذ المبلغ الباقي، ولم يكن في جيبي ولو قرشاً واحداً.. حتى أنني كنت أحصل على ثمن الدخان بشق الأنفس.. فرفع صاحب المذياع دعوى بحقي.. يوم المحاكمة وضعوا الأغلال في يدي لأنهم يريدون اقتيادي إلى المحكمة موجوداً.. قال مدير السجن العسكري، وهو برتبة عميد للمجندين اللذين كانا سيأخذاني:

ـ يستطيع الركوب في التاكسي (سيارة أجرة).

وقفنا على الطريق العام، وليس معي ما يكفي حتى لركوب سيارة عامة. يومها لم أكن ناضجاً كما أنا اليوم، كنت أستحي بشكل عجيب.. كنت أتمنى أن لا أشاهد أحداً من معارفي ويداي مقيدتان.. بين عنصرين من الدرك.. كاد الخوف يقتلني من تلك الفكرة.

في غير هذا اليوم، لو بقي واحدنا يدور في استانبول أياماً طويلة، ربما لا يصادف شخصاً واحداً يعرفه، لقد حدث العكس تماماً اليوم.. وكأن كل معارفي وأصدقائي سمعوا بحالي، فخرجوا دفعة واحدة ليروني وأنا في هذا الموقف الصعب.. وكأنني خرجت ذلك اليوم ووقفت على منصة رسمية.. حيث شاهدني جميع الأصدقاء والمعارف، ورأيت أشخاصاً أعرفهم لكن لم أرهم منذ أكثر من عشرة أو خمسة عشر عاماً.. وشاءت الصدف أن أراهم كلهم في ذلك اليوم، في موقف الترامواي. وبينما كنا ننتظر القاطرة سمعت امرأة تقول لأخرى:

ـ هل رأيت؟

لقد عرفت تلك المرأة.. قبل اثني عشر عاماً كنت سأتزوجها، ولأنها لم تكمل تعليمها بعد الإعدادية، رفضت الزواج منها..

كانت المرأتان تتهامسان في البداية، ثم بدأتا ترفعان صوتيهما وكأنهما تريدان أن تُسمعا حديثهما كلَّ الموجودين في الموقف.

ـ بنت، أنت محظوظة.. ولو كنت تزوجت من هذا الرجل...

ـ الله لا يقدر.

ـ انظري إلى هذا السيد المثقف، لقد تعلم وصار رجلاً.. وأي مثقف هذا؟!

ـ إنه واحد من اللصوص.

ـ وربما هو مجرم قاتل.. إنه بلا حبل ولا رسن.

ـ آمان.. اسكتي بالله عليكِ.. أنا محظوظة وربما تكون الصدفة دفعتني دون أن أدري حتى خلصني الله من هذا الرجل.

ـ إنه رجل هارب من الحبل والوتد.

جاء الترامواي، وركبنا.. وقفنا في الساحة الأخيرة.. وإذا بأستاذ التاريخ في الثانوية يصعد بين الركاب؛ نظر إلي مدة طويلة، ودهش لوضع تلميذه المجد والنشيط آنذاك، ومر أمامي هازاً رأسه متمتماً بكلمات لم أفهمها.

بعد موقفين اثنين، صعد إلى الترامواي أحد أصدقاء الدراسة؛ كان من أكسل التلاميذ في الصف.. نظر إلي بتمعن وهمس في أذن رفيقه بضع كلمات. وسمعته بعد ذلك يقول للرجل وهو يبتسم بسرور وسعادة:

ـ إيـ يه، في هذه الحياة لا يعلم أحدنا شيئاً عن الآخر.. وكيف سيصبح في المستقبل..

كان زميل الدراسة ينظر إلي الآن مكتفياً بفشله وكسله!

كثيرون ممن أعرفهم صادفتهم وأنا في طريقي إلى بناء العدلية.. كنت أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني من شدة الخجل عندما كانت نظراتي تلتقي بنظرات إنسان أعرفه.

دخلنا المحكمة.. كان محامي بائع المذياع امرأة عانس، ذوبها الكبت، ومزقها الحرمان من الرجال.. هذا كان واضحاً من مظهرها الخارجي. قلت للقاضي:

ـ لقد دفعت أربعمائة ليرة من ثمن المذياع، لم يبق سوى مائتي ليرة، لا أستطيع دفعها الآن، وإن أرادوا استرجاع المذياع مني ليأخذوه.

قالت المحامية:

ـ إنه يكذب يا سيدي.. فهو لم يدفع شيئاً.

إيصالات الأقساط ليست معي كي أبرزها للقاضي، والسجن ليس كمدرسة داخلية حتى يأذنوا لي بالذهاب إلى المنزل لإحضار الإيصالات. كانت المحامية تريد الاستيلاء على المبلغ الذي دفعته وعلى المذياع.. نعم، ستأخذ المذياع، ومصاريف المحكمة وأجرتها.

قالت المحامية للحاكم وهي تشير إلى الشرطيين الواقفين من خلفي:

ـ يا سيدي، إن كذب المدعى عليه واضح تماماً فحياته الاجتماعية، والموقف الذي هو فيه يشهدان على ذلك.

الكلام الذي قالته المحامية هناك (وضعه وموقفه الاجتماعي) كان أشبه بسكين طعنتني في قلبي، لم ولن أسمعه لا قبل ذلك ولا بعده، أبداً.

بتمام الساعة (١٦) خرجنا من العدلية، والإنسان يربط مصيره ومستقبله بالحظ كلما زاد عليه الضيق والشدة والإهانة.. كنت قد اشتريت (ورقة يانصيب)، هذه البطاقة قد ربحت جائزة ترضية مقدارها خمس ليرات، وهي موضوعة في جيب السترة العلوية. ونظراً لخوفي من

مصادفة بعض معارفي في طريق العودة إلى السجن، ركبنا سيارة أجرة بهذا المبلغ، وبدأنا نبحث عن كشك نصرف فيه البطاقة الرابحة للترضية، حتى وصلنا إلى (قرة كوي).

في (قرة كوي) ازدادت شكوكي لأن وقت الانصراف من العمل قد حان، وكانت هناك فتاة أعيرها كثيراً من الأهمية، تعمل في أحد المكاتب القريبة، فإذا ما لعبت الصدف دورها والتقيت بها وأنا على ما أنا عليه لاكتملت المصيبة تماماً.

هل تتذكرون..؟ كانت هناك بعض الدكاكين الصغيرة باتجاه البوغاز من ساحة (قرة كوي) وهي عبارة عن كوى (صرافة) ثم هدموها بعد أن استولوا عليها لصالح القطاع العام. أحد الصرافين كان يبيع بطاقات اليانصيب، وقد وضع ورقة على الزجاج كتب عليها: «نستطيع صرف جوائز الترضية». ذهبت مع العنصرين إلى ذلك الصراف وسألته:

ـ هل تصرف جوائز الترضية؟

ـ نعم، أصرفها.

كان الصراف رجلاً مسناً ويهودي المذهب، وكانت ليرات الذهب قد صفت تحت زجاج الطاولة التي أسند مرفقيه عليها. قلت:

ـ هل تستطيع أن تمد يدك وتأخذ بطاقة النصيب التي في جيبي؟

عندها فهم الصراف العجوز أن يدي مقيدتان. مد الرجل رقبته القصيرة التي تكاد الشرايين الزرقاء فيها أن تنفجر، ونظر إلى يدي المقيدتين، ثم نظر إلى العنصرين الواقفين من خلفي. مد يده السمينة من فوق الليرات الذهبية المرصوفة تحت زجاج الطاولة إلى جيب سترتي وأخذ البطاقة.. وأخذ يقلبها كأنه لم ير مثلها في حياته كلها، لقد أمعن النظر بها طويلاً ثم قال:

ـ ماذا سأعطيك بدلاً منها؟

كان الصراف يريد أن يستغلني لأنني مقيد ولا أستطيع أن أحرك ساكناً، والأصفاد في يدي. قلت:

ـ هذه جائزة ترضية، ستعطيني خمس ليرات.. في كل مكان خمس ليرات.

قال وهو يمد البطاقة نحوي:

ـ سأعطيك ثلاث ليرات.

قلت في نفسي: «أعطاك الله البلاء» ثم أجبته:

ـ طيب، أعطني.

بعد أن عدَّ الصراف النقود الصغيرة، وضعها في جيبي التي أخذ منها البطاقة. وتابعنا إلى موقف التاكسي. في تلك الأيام كانت الأجرة بين (قرة كوي) والحربية ليرتين.. ومن خوفي الشديد، وكي لا أقع في متاهات ومشاكل أخرى سألت السائق:

ـ كم سأعطيك لتوصلني إلى الحربية؟

كانت نظرات السائق مصوبة نحو الأصفاد التي تقيد يدي فقال:

ـ ثلاث ليرات.

أعرف ذلك.. ولكن لو نظر السائق إلى ساعته لسجل ليرتين على الفور، غير أني لا أستطيع ممانعته أبداً.

ما كنت أخافه سقط على رأسي.. ففيما أنا أصعد السيارة شاهدت الفتاة التي كنت أخشى مقابلتها في ذلك الموقف واقفة تنظر إلي من بعيد.. ولشدة خجلي لم أدر ماذا أفعل.. ابتسمت لها ببرود وقلت في نفسي: «ربما هي الأخرى تبتسم وتقترب مني، حتى أواسيها بكلمات تطيِّب خاطرها». بدأت الفتاة الجامدة تقترب مني بخطوات بطيئة وقالت:

ـ حمداً لله على السلامة.

كان صوت المسكينة يرتجف. قلت:

ـ لقد شبهتِني بأحد الأشخاص، أليس كذلك؟

صعدت السيارة، وجلست بين العنصرين.. كانت عيناها قد اغرورقتا بالدموع. نزلنا من السيارة أمام سجن الحربية وقلت للسائق وأنا أشير بحنكي نحو جيب سترتي:

ـ النقود هنا في جيبي.. خذها.

مدَّ السائق يده وأخرج النقود ثم عدها، وقال:

ـ لا يوجد غير ليرتين هنا.

ـ ابحث.. ربما بقيت الثالثة في زاوية ما.

مدَّ يده مرة ثانية إلى جيبي وبحث مطولاً، وقال:

ـ هل تسخر مني؟ لا يوجد لا مال ولا حلال.

ـ ربما يكون الجيب قد ثقب وسقطت الليرة تحت البطانة.

ـ ليس من ثقب، ولا شيء غير ليرتين..

ربما يكون الصراف قد وضع ليرتين بدلاً من الثلاثة عندما أخذ مني البطاقة.. قلت للسائق ورأسي مطأطأ نحو الأرض:

ـ ليس معي غير هاتين الليرتين.

غضب السائق وقال:

ـ إذا كنت لا تملك المال فلماذا تركب السيارة (وِلَكْ ابن الهانم)، اركب الترامواي..

عندها انتابتني موجة من الضحك.. دخلت السجن وأنا أضحك، وبقيت أضحك لأيام طويلة.. ومنذ ذلك الوقت كلما أتذكر هذه الحادثة أضحك.

مسحت المرأة الجميلة ذات الصوت الرجالي دمعها من كثرة الضحك وقالت:

ـ لا تزعلوا مني.. إنك رجل مختلف في كل تصرفاتك.

سألتها:

ـ ولماذا؟

ـ لأنك تضحك على مواقف يبكي بسببها الجميع.

قلت:

ـ على الأغلب أنت محقة في كلامك.. لأن شر البلية ما يضحك [؟]

ooo

تأخذون الجنة

كان يقول: إن المثل الشعبي القائل (لا يستطيع أن يقنع من لا دين له سوى من لا إيمان عنده) خطأ.

سألت صديقي الشاعر: ولماذا؟

قال: خطأ، وهذا الخطأ ثابت من خلال التجربة. يجب أن تصحح هذا المثل الشعبي على النحو التالي: (لا يستطيع أن يفحم من لا دين له سوى المعبأ بالإيمان الخالص)!

لم تسمعوا بالشاعر الذي يقول هذا، يكتب شعراً جميلاً، ولكنه لسبب ما، وربما لأنه يغار من أشعاره ولا يريد أن يشاركه فيها أحد، لذا فهو لم يجمع قصائده في كتاب ينشر.

يعيش وحيداً منعزلاً في إحدى نواحي البحر الأسود.. كل أربعين عاماً يمر مرة في استانبول، ومرة في أنقرة.. وعندما تهب أنسام الشعر في رأسه يطلق لنفسه العنان ويذهب بعيداً إلى ديار غريبة.. ليس له عمل معين.. ولكي لا يذر حمض الكبريت على جسده.. يصرف بعض الأموال القليلة التي تأتيه من والده.. وبتصرفه هذا يعتبر بالنسبة إلي ولداً باراً وصالحاً، غير أنه لا يستطيع الاتفاق مع والده ولو حول فكرة معينة.. دائماً أفكارهما متضادة.. فوالده يعيش عقلية القرن السابع عشر، وحياة القرون الوسطى الشرقية البحتة، بينما هو مثقف واسع الأفق يتطلع إلى المستقبل دائماً. والده لا يطأ الأرض بأقدامه دون وضوء، أما هو فلا يأوي إلى فراشه إلا بعد أن يرتوي من الشراب حتى الثمالة.. المهم أن هذه الاختلافات تمر وتمضي دون أن يسمع بها أحد، ولا تحصل بينهما مشادات كلامية في

أي يوم من الأيام ما دام المال موجوداً مع الوالد. ولن تحدث في أي يوم مقاطعة حقيقية بين الإمام الذي أطلق لحيته على السنة الشريفة، وبين ولده الذي لا يرتوي من شرب الخمور ليلاً نهاراً.. وستدوم هذه الألفة إلى الأبد.

قال صديقي الشاعر:

ـ مائدة والدي مفتوحة لمن يلتقون معه في الفكر والمنهج، ولا ينقطع الشيوخ والحجاج عن زيارته أبداً.. ظهر في حينا مصيبة اسمه «كيرك علي» (علي المكسور). أعرف طفولته، ترعرعنا معاً في حي واحد. بعد فترة اختفى هذا الشخص، أي (كيرك علي) عن الأنظار.. وظل مختفياً ولأكثر من عشرين عاماً.. خلال هذه المدة الطويلة وصل إلى قمة الشقاوة والقوة. إنه مصيبة من مصائب الزمن.. وأصبح من النوع الذي لا يستطيع المرء أن يسيطر عليه.. لم يترك في السوق والبازار أحداً إلا وأخذ منه الخراج. ولم يعكر أمن حينا فقط بل أمن الولاية كلها.. التحرش بالنساء والفتيات.. تعاطي القمار وشجاراته.. الشرب والسكر وما ينجم عنهما من خلافات.. كل أنواع الرذائل... وقانا الله من شره. إنه شر عظيم.. ولعنة الزمان.. حتى أن الدرك والشرطة لم يقويا عليه..

لا يرى عابر سبيل إلا ويهجم عليه بالسكين وهو يقول له: «واي أنت نظرت إليَّ بطرف عينك». وكما يقولون إن له مئات السوابق ومن مختلف الأشكال.

ويقول والدي عنه: «كما ترون.. لأن مجتمعنا خرج عن طاعة الله، فإن الله عز وجل سلط هذه المصيبة علينا جراء أعمالنا».

جمعوا له مبلغاً كبيراً من المال ليرحل ويترك الحي، لكنه رفض. بحثوا عن مجرمين من أمثاله ليقطعوا الطريق عليه باعتبار أنه (لا يستطيع أن يفحم من ليس له دين، سوى من ليس له إيمان). وربما سمعتم أن في

منطقتنا مجرمين قتلة مأجورين، يعتاشون من هذا السلوك، فاستأجروا منهم عدة أشخاص، ولكن واحداً منهم لم يستطع الصمود أمام أزعرنا لحظة واحدة. تشاجروا كثيراً وتصارعوا طوال الليالي في الأزقة والشوارع. وحرمنا النوم جراء أصوات الطلقات النارية، لكن أزعرنا أرعب المجرمين المحترفين كلهم وطردهم شر طردة.. وذهب كل ما فعلنا أدراج الرياح.

في أحد الأيام ناداني والدي وقال:

ـ الشيخ باكير سيكون ضيفنا هذه الليلة.. إنه عالم وفقيه كبير.. أتمنى أن تكون معنا.

منزلنا يؤمه الحجاج والشيوخ، ومنذ زمن ولم يسبق لوالدي أن دعاني مرة إلى مجلسه لطعام أو لغيره.

بعد ذلك فهمت الموضوع من والدتي؛ تصرفاتي لم تكن تعجب والدي، وكان يخشى علي أن أصبح مصيبة أخرى مثل (كيرك علي) ولهذا السبب دعا الشيخ باكير إلى العشاء ليرشدني إلى الطريق القويم.. ويبعدني عن شرب الخمر. ولا أدري هل الشيخ باكير سيعظني، أم سيدعو لي.. المهم:

جاء الشيخ باكير.. لحيته ناصعة البياض، يبدو تقياً ورعاً، فهو رجل دين مشهور وكبير.. جلسنا إلى مائدة العشاء.. ولم نكن في شهر رمضان، لكن الشيخ باكير كان صائماً.. فجعلنا طعامنا مناسباً لوقت الإفطار. أنا بالأصل لا أتناول طعام العشاء ولكنني أشرب. هكذا اعتدت منذ سنوات طويلة. فأكلت ملعقتين من الحساء. وبحجة ما خرجت من الصالون وذهبت إلى غرفتي ورشفت جرعة كبيرة من الفودكا، ورجعت إلى المائدة.. وهكذا كانت الفودكا مشروبي بدلاً من العرق كي لا يشتموا رائحة فمي في تلك الأمسية. لقد أصبحت في حيرة من أمري؛ إرضاء والدي، وإرضاء نفسي.. فمن أجل الشرب ذهبت إلى غرفتي عدة

مرات، حتى انتهى الطعام.. وبدأ الشيخ باكير بالدعاء.. وطال دعاء الشيخ، واستغرق أكثر من وقت العشاء.. وبعد الدعاء نفخ في وجهي عدة مرات.

وكما يقولون: الجميع يعرفون الشيخ باكير.. لقد أم منزلنا أناس كثيرون لمشاهدته، وفي اليوم التالي جاء مفتي المنطقة وطلب من الشيخ باكير أن يعظ الناس ويلقي خطبة في الجامع. فمجيء هذا الشيخ الجليل إلى منطقتنا شرف عظيم، وربح كبير، ويجب أن يستمع الناس إلى مواعظه وتعاليمه.

وبما أن والدي لم يتركني لحظة واحدة، بقيت على الدوام معهم لا أستطيع أن أفترق عنهم لحظة واحدة، حيث قال لي:

ـ تعال معنا إلى صلاة الظهر.

قلت: «سمعاً وطاعةً» لأنه كلام أب. وامتلأ الجامع بالمصلين لصلاة الجمعة، ولسماع خطبة الشيخ باكير. وبما أن الجامع قد امتلأ بالمصلين من بابه إلى محرابه، فالقادمون المتأخرون فرشوا الحصر في ساحة الجامع وصلوا هناك. بعد الصلاة بدأ الشيخ باكير عظته.. عندها فهمت حقيقة أنه رجل دين كبير حقاً. حتى النساء اللواتي حضرن عظته، مع أنهن ما كنَّ يحضرن صلاة الجمعة سابقاً، بدأن بالبكاء من شدة التأثر والانفعال.. وبعد ذلك انتشر البكاء بين جميع الحضور.

كان الشيخ باكير جالساً على المنبر العالي بقامته الكبيرة عندما بدأ خطبته، كما أن نهاية الخطبة كانت رائعة جداً.. وكان يقول:

«لماذا لا تصومون؟.. تشربون العرق، وتسرحون في الشوارع وأنتم سكارى، ثم بعد ذلك تطلبون الذهاب إلى الجنة..! لا.. لا.. لن تكون الجنة من نصيبكم. ليس من صلاة ولا ذكر. أما القمار فكثير. ثم بعد ذلك تطلبون الجنة! لا.. لا.. لن تدخلوا الجنة.

تنظرون إلى المحارم.. وتكثرون من الحرام.. وتدورون بقوة الأجراس.. ثم بعد ذلك تطلبون الجنة..! لا.. لا.. لن تصعدوا إلى الجنة».

في كل مرة كان الشيخ باكير يردد فيها: «لا.. لا.. لن تدخلوا الجنة» كانت الدموع تنهمر من عيون الناس كالمطر. لم يخطر لي في حياتي كلها أن مقولة «لا.. لا.. لن تدخلوا الجنة» سيكون لها هذا التأثير الكبير، وأنا بدوري لم أستطع أن أتمالك نفسي فبدأت بالبكاء.. ولا أدري هل حاسة البكاء عند الآخرين هي عدوى حتى أثرت علي، أم أن موعظة الشيخ باكير كانت على درجة من العظمة حتى أثرت علي كثيراً.. في كل مرة يردد فيها الشيخ باكير: «لا.. لا.. لن تدخلوا الجنة» كنت مثل الآخرين أجهش بالبكاء.

بعد انتهاء الموعظة، اصطف الحاضرون أمام الشيخ باكير يقبلون يديه، وعيونهم قد انتفخت من شدة البكاء.. أنا الآخر تبت إلى الله ونويت أن أمتنع عن شرب الخمر بعد الآن. ولكن عند المساء.. كان ذلك مستحيلاً. قلت في نفسي: «لأشرب هذه الليلة للمرة الأخيرة، وأتركها غداً بعد أن أتوب ثانية».

قال والدي:

ـ لنتناول طعام العشاء معاً هذا المساء أيضاً..

عندها فكرت بالتخلص من دعوة والدي وقلت له:

ـ لو تسمح لي يا أبي.. سأطلب من عمي الشيخ باكير أن يكون ضيفي هذه الليلة، لأقدم له الطعام في الخارج.

عندما سمع الشيخ باكير كلامي قال:

ـ انظر، إن ابنك يعود إلى رشده.

قال ذلك لوالدي وهو يغمز بطرف عينيه.. أما والدي فكان سعيداً جداً:

ـ طيب، إذا كان الشيخ باكير راضياً، فخذه..

قال الشيخ باكير:

ـ أنا لا أدخل كل المطاعم، إلا إذا كان هناك مطعم مسلم.

قلت:

ـ هناك مطعم الحاج راشد.

وراشد هو صاحب المطعم الذي أشرب عنده كل مساء.. وحقيقة كان حاجاً.. فقد كتب على لوحته (مطعم اللذة.. حاج راشد أراوغلو).

وبما أنني عرفت ماهية وكمية طعام الشيخ باكير في منزلنا، فقد أخذت معي مبلغاً إضافياً.. عسى ولعل نحتاج بعض الأشياء. وفي المساء ذهبنا إلى مطعم الحاج راشد وكان الشيخ باكير صائماً أيضاً. ولما حان وقت الإفطار سحب بسملة وتناول جرعة من الماء وبدأ بالحساء. أما أنا فأكلت قطعة من الكفتة وقلت للنادل:

ـ أحضر كومبستو.

قلت ذلك وأشرت له بيدي كي يضع في داخله (فودكا).

أحضر النادل الكومبستو الممزوج بالفودكا.. الشيخ باكير يشرب الحساء، وأنا أشرب الكومبستو. طلب الشيخ باكير طبقاً آخر من الحساء، وأنا الآخر طلبت طبقاً آخر من الكومبستو. بعد أن شرب الشيخ باكير الطبق الثاني من الحساء طلب (كباب طاسة)، أما أنا فكنت أشرب الكومبستو الثالثة.

كان رأسي قد بدأ بالامتلاء رويداً رويداً.. في هذه الأثناء دخل كيرك علي المطعم ومعه أربعة من أمثاله. أي واه.. حتماً ستحدث الآن مشكلة ما؛ فالمكان الذي يدخله كيرك علي لا بد وأن تقع فيه المشاكل حتماً.

عندما شاهد «كيرك علي» الشيخ باكير أسرع إليه، وبدأ بتقبيل يديه وهو يقول:

ـ بدعائك إنشاء الله يا سيدي الشيخ سنهتدي نحن المذنبين إلى طريق الحق.

قال الشيخ باكير وهو متأثر جداً بكلامه:

ـ أدامك الله يا ولدي.. تفضل واجلس.

وحاول كيرك علي وأصدقاؤه الأربعة عدم الجلوس إلى مائدتنا لأنهم دخلوا المطعم من أجل شرب الخمر، إلا أنهم جلسوا تحت إصرار الشيخ.

في هذه الأثناء كنت أشرب الطبق الرابع من الكومبستو الممزوج بالفودكا، وكان الشيخ باكير يأكل (الشيخ المحشي). قال لهم الشيخ:

ـ وأنتم ماذا ستأكلون؟

نظروا في عيون بعضهم، فقال كيرك علي بتقزز:

ـ لنشرب الحساء.

لم يكن من عادة كيرك علي شرب الحساء في الأمسيات.

بعد أن أنهى الشيخ باكير المحشي طلب (سبانخ باللبن)، وبعده أكل (الكفتة)، وبعد ذلك أكل مطبوخاً. قال لي وهو يأكل البرغل:

ـ ما الذي تشربه؟ أهو خُشاف؟

قلت:

ـ نعم يا عمي الشيخ، هو خشاف.

قال للنادل:

ـ أحضر طبقاً من الخشاف مثل هذا.

فبعد أن تناول ثلاث ملاعق من الكومبستو الذي أحضره النادل قال:

ـ أووه.. إنه لذيذ جداً.. وطعمه ألذ..

عندما قال ذلك فهمت أن النادل أحضر له كومبستو ممزوجاً بالفودكا. بعد أن شرب الشيخ طبق الكومبستو قال للنادل:

ـ أحضر لي طبقاً آخر يا ولدي، إنه لذيذ جداً.

أسرعت إلى المطبخ فوراً وطلبت منهم أن لا يضعوا الفودكا فيه. وجاء الكومبستو الصافي فعندما أخذ الشيخ باكير ملعقة واحدة، جمع شفتيه وقطب حاجبيه وقال للنادل:

ـ هذا الخشاف ليس مثل الذي شربته قبل لحظة، خذ هذا وأحضر من ذاك.

ما حصل قد حصل، ولا مجال للهروب.. أحضر النادل للشيخ باكير الكومبستو الممزوج بالفودكا، فشرب ثلاثة أطباق مع البرغل ثم طلب الفطائر بعده.

ـ الفطائر لا تؤكل أولا تبلع وحدها.. (قال كيرك علي).. أحضر لي طبقاً من الخشاف أيضاً.

سمعنا أنك، يا سيدي الشيخ، قد ألقيت خطبة في الجامع هذا اليوم، ولم نستطع الحضور لسماعها، ولكننا سمعنا من غيرنا نحن المذنبين..

وفيما كيرك علي يقول ذلك، كان الشيخ باكير يردد:

ـ إنشاء الله تهتدون إلى الخير....

طلب من النادل خشافاً للمرة الرابعة.. قال وهو يشربها:

ـ أووه.. أووه.. ليرحم الله أموات رئيس الطباخين.. إنه لذيذ جداً، إنه نفيس.. لم أشرب في حياتي كلها خشافاً بهذه اللذة.

كانت عيناه تتثاقلان رويداً رويداً.. ونظراته تتحول ببطء إلى نظرات شاردة.. صار يتحدث بمفرده، ولسانه يتلعثم، ثم قال:

ـ أحضر طبقاً من الخشاف يا ولدي..

إنه طبق الخشاف الثامن.. لقد سكر الشيخ باكير تماماً.. ولكي أعتني به بعد ذلك، أوقفت شرب الكومبستو لأظل يقظاً حيال تصرفاته. أما كيرك علي وأصدقاؤه الثلاثة فقد ضاقوا ذرعاً من الموقف لأنهم لا يشربون العرق، ولأنهم لا يستطيعون قول أي شيء للعم الشيخ.

لقد توقفوا عن شرب الحساء بعد أن أخذ كل واحد منهم عدة ملاعق.. مد كيرك علي علبة الدخان نحو الشيخ باكير:

ـ هل تأخذون سيجارة يا سيدي الشيخ؟

قال الشيخ باكير وهو يتلعثم:

ـ أنا لا أدخن.. ولكن وجب علي أن أدخن هنا. وما فهمته منكم أنكم لم تدخنوا احتراماً لي. وعليه فلنأخذ سيجارة ونذر دخانها في الهواء، حتى تأخذوا راحتكم أنتم أيضاً في شربها.

أخذ نفساً من سيجارته وقال:

ـ كان الخشاف لذيذاً جداً.. ليحضروا طبقاً آخر.

احترت ماذا أقول له، فلو شرب طبقاً آخر كان سيسكر تماماً، وسيقع على الأرض في الشارع. وإذا عرف الناس أنني خدعت الشيخ باكير وسقيته الخمر، فإن والدي سيطردني من المنزل، وسأهجر المنطقة كلها، ولن أعود إليها بعد ذلك اليوم.. همست في أذن النادل:

ـ لو طلب منك خشافاً مرة ثانية.. قل له لم يبق عندنا.

كان الشيخ باكير يضرب بالملعقة على الطاولة حيناً، وحيناً آخر يعظنا:

ـ تشربون الخمر والعرق، هذا يقودكم في طريق الشر، فتزنون،

وتذنبون، ثم بعد ذلك تطلبون الجنة! من أين تأخذون الجنة؟! تتطلعون إلى أعراض الناس. تخلطون الحرام بالحلال، وتمزجون الباطل بالحق، ثم بعد ذلك تطلبون الجنة..! من أين تأخذون الجنة؟!

كان كيرك علي قد انطوى على نفسه أمام الشيخ باكير، فكأنه تحول إلى حشرة التسبيح..

صرخ الشيخ باكير:

ـ أحضر من هذا الخشاف يا بني.

قال النادل:

ـ لم يبق عندنا يا سيدي الشيخ.

فلما قال النادل ذلك، إذا بالقيامة تقوم: ضرب الشيخ باكير بقبضته على المنضدة، فتطايرت الأطباق والملاعق والشوك في الهواء، وتناثرت هنا وهناك.. حفظنا الله..

وبصوت قوي كالرعد (هايتـ ـتـ تـ..) سقطت لشدته الملاعق والشوك والسكاكين من أيدي الزبائن. صرخ الشيخ باكير (هايتـ ـتـ تـ..):

ـ أريد خشافاً. ماذا يعني لا يوجد؟ هل يستطيع أحد أن يقول لا عندما يريد الشيخ باكير خشافاً أيها الزناديق؟؟

قال ذلك وقذف بنفسه نحو الخلف.. كاد أن يقلب المطعم رأساً على عقب بقامته الطويلة وحجمه الكبير

ـ آمان يا عمي الشيخ.. توقف لحظة، واطلب أنت الخشاف وسيحضر حالاً..

قلت ذلك وأنا أمسح ذقنه حتى أقنعته بالجلوس. ووضعنا أمامه الكومبستو بإنائه الكبير؛ فبدأ بضرب الملاعق.. وحمل بين يديه وشرب الكومبستو، وصار المشروب ينزل من ذقنه إلى رقبته وصدره وهو يقول:

- أوووه.. إنه يعطي الروح للروح.. الحمد لله..

قال ذلك وتجشأ.. ثم صرخ ثانية:

- املأها يا ولد.

وكانت ذقنه قد تحولت إلى لبدة مثل لبدة الأسد، وتحول فجأة نحو كيرك علي:

- لنر الآن.. من أنت..؟ وما هو اسمك؟

- علي..

- هيه.. فقط ألا تكون ذلك الذي يسمى... أليس كذلك؟؟

أدار كيرك علي رأسه جانباً وبدأ الشيخ بالهجوم ثانية:

- ولك كيرك علي، ما كنا بحاجة إلى شيء لو لم تكن مكسوراً.. وِلَك كلب..

- أي واه..

فكيرك علي إذا ما غضب لا يسأل لا عن الشيخ ولا عن المَيخ، وما إن يمسكه من ذقنه حتى يذبحه فوراً.

- ولك ابني ألا ترون هذه الطاولة؟ هاي ي ي ي.. املأ هذا..!

كان الشيخ باكير قد أضاع بوصلته تماماً. وخوفي الكبير أن يسمع والدي بما يجري هنا؛ فعندما شرب الشيخ باكير إناء ثانياً من الكومبستو الممزوج بالفودكا.. بدأت عيناه تدوران كالمروحة.

قال كيرك علي الذي لم ينتبه لسكر الشيخ:

- إذا كنتم تسمحون يا سيدي الشيخ.. فنحن ذاهبون.

وبحركة خفيفة يمسك الشيخ باكير بكيرك علي من ياقته ويجلسه على الكرسي بقوة:

ـ ولك، أنت الشخص الذي جعل الناس يقولون: مدد يا الله ؟ انظر إلي جيداً.. أنا لا أعرف المكسور، ولا غير المكسور، أنا أجعل من الرجل...

كان الشيخ يصرخ بقوة، فإذا بأحد الجالسين على الطاولة المقابلة..

إذن هذا لا يعرف الشيخ باكير..

ـ اخجل من ذقنه. عيب ولك.

عندما قال الرجل ذلك.. واي.. واي.. واي.. وإذا بالشيخ يغضب غضباً شديداً؛ كنا عشرة أشخاص ولم نستطع تهدئته.. وكنت ترى كيرك علي يتوسل إلى الشيخ وهو يقبل يديه:

ـ آمان يا شيخي.. لا تفعل هذا، يا شيخي، ارتح يا شيخي.

كان كل من يصطدم بكرش الشيخ يقع على الأرض.. ما شاء الله.. له كرش بحجم رأس الثور!

استعنت بكيرك علي وثلاثة من رفاقه وثلاثة من النُّدُل حتى أخرجنا الشيخ من المطعم بصعوبة بالغة وهو يترنح ذات اليمين وذات الشمال.. ولو لم نأخذه تحت إبطه لوقع على الأرض.

ـ وِلَك مكسور..

ـ تفضل يا شيخي.

ـ هل أنت أكبر قبضاي في هذا البلد؟

ـ ليس لي من منازع يا سيدي الشيخ.

ـ ولك أنا أعمل بالقبضايات...

ـ تعملها يا شيخي.

ـ ألا يوجد ملاهي في هذه الأطراف؟

- هل تمتحننا يا سيدي الشيخ؟؟ أمعقول وأنت موجود معنا؟!

- هيا امش أمامي ودلني على أحدها.

قال ذلك وأنزل ضربة قوية من مرفقه ببطن كيرك علي فقذفه خمسة أمتار..

قال كيرك علي:

- هنا يا سيدي الشيخ.

- هيا امش أمامي.

دخلنا الملهى.. وبدأ الشيخ باكير بإطلاق صرخاته التي كانت تهز الأرض والسماء:

- ولك كفار.. كيف ستقدمون حسابكم يوم القيامة؟! تشربون هذا الزقوم الزعاف.. ثم تطلبون الجنة..! لا لا لن تأخذوا الجنة!!

توسل إليه ورجاه:

- لا تفعل يا شيخي.. آمان يا شيخي.

كان الموجودون في الملهى يريدون سحب الشيخ من ذقنه، ولكن خوفهم من كيرك علي كتم أنفاسهم. أجلسنا الشيخ بالقوة على أحد الكراسي.. لأنه إن أخذت الشيخ وهو على هذه الحال إلى البيت، سيتبرأ مني والدي، وسيطردني من العائلة. قلت في نفسي: «ما حصل قد حصل.. يجب أن أروي ظمأ الشيخ حتى النهاية وآخذه إلى المنزل دون أن يراه أبي، وأمدده على الفراش».

- هل تشرب الخشاف يا عمي الشيخ؟

- أحضره لي.

لم يكن في الملهى كومبستو بل ماء «فيشنا». فمزجنا العصير بزجاجة من الفودكا وأعطيناه للشيخ فشربه دفعة واحدة!

ـ مرة ثانية يا عمي الشيخ؟

ـ هات.

فوضعناه أمامه.. ولكن الشيخ باكير ما إن شرب الزجاجة الثانية حتى بدأ بالغناء وهو ينقر بأصابعه على الطاولة. كان صوته مخنوقاً وخشناً.

همس كيرك علي في أذني ببطء:

ـ يا صاحبي.. هذه الحال ليست حال شيخ. لم تعجبني تصرفاته.. هناك سر أجهله.

ـ لا تسألني أيها المكسور.. شيء وحصل. أما من طريقة لتهدئته؟؟

لف كيرك علي سيجارة وضع فيها «الحشيش»:

ـ تفضل يا سيدي الشيخ.

الشيخ:

ـ لا أشرب.

كيرك علي:

ـ لا يا سيدي، نكون قليلي الأدب إذا دخَّنَّا أمامك.. دخنها حتى نأخذ إذناً منك.

تناول الشيخ باكير السيجارة الملفوفة ووضعها في فمه فأشعلتها له على الفور، وصار يسحب من السيجارة مرة ومن الفودكا مرة أخرى. وعلى الدوام يدمدم. وكان كلما ازداد شرباً ازداد شراسة. أما الفودكا التي شربها في تلك الليلة، فتعجز سرية كاملة عن شرب ماء بقدرها..!

في كل مرة، كان الشيخ يصرخ فيه:

ـ ولك أنا أفعل بالرجل...

فيجيب كيرك علي:

ـ أي والله يا سيدي الشيخ.

بعد أن أخذ الحشيش من الشيخ تماماً، صار يصرخ بكل قوته:

ـ ألا يوجد هنا بازار للنساء؟؟

ـ آمان يا شيخي! لا يوجد مثل هذا عندنا.

ـ اغرب عن وجهي أيها (الدرزي). ترونني هكذا بلباس الشيخ.. يعني أنا لا أعرف مثل هذه الأشياء..؟ هيا امشوا أمامي..

في تلك الليلة صارت تأتينا أصوات خفيفة. لقد أشرق النور في أعماقنا، وثاب إلينا رشدنا.

حاول كيرك علي الهروب والتخلص، ولكن الشيخ شعر به فأمسكه من ذراعه:

ـ أين (كارخانة) هذا البلد؟؟

ما من خلاص.. وخرجنا من الملهى، وبدأ الشيخ بالغناء.

ـ غنوا أنتم أيضاً.

ورغماً عنا بدأنا بالغناء، والناس ينظرون إلينا.. إنها الحقارة بعينها.. وصلنا إلى المكان الذي أراده. وعندما شاهدت النسوة كيرك علي، بدأن بالارتجاف من الخوف وقلن:

ـ تفضلوا يا آغانا.

عندما شاهد الشيخ باكير النساء وهن عاريات هكذا، بدأ بالصراخ:

ـ تو تو.. لكن.. ولك ألا تخشين الله؟! ترتكبن الفحشاء، وتسبحن في بحر من الذنوب، ثم بعد ذلك تطلبن الجنة! لا لا.. لن تدخلن الجنة.

خافت النسوة تماماً. أسندنا الشيخ إلى كرسي.

ـ هل تشرب الخشاف يا عمي الشيخ؟

ـ أحضره.

في هذه المرة مزجنا زجاجة من الفيشنا مع زجاجة كازوز وزجاجة من الإسبرتو شربها كلها دفعة واحدة وقال:

ـ الحمد لله.

ـ هيا أحضروا لسيدي الشيخ فنجاناً من القهوة.

وضع كيرك علي داخل القهوة قطعة من الأفيون كي يتخدر الشيخ تماماً؛ ولكن أين التخدير..؟!عندما شرب الشيخ فنجان القهوة بالأفيون ازداد شراسة وحدَّة، حتى أن الجاموسة التي ترى السكين في يد القصاب لا تكون بهذه الشراسة.

دُهش كيرك علي تماماً وقال:

ـ والله يا صاحبي هذه القطعة من الأفيون تخدر جيشاً من الأشقياء.

نادى الشيخ صاحبة المحل وقال لها:

ـ أنت تذنبين بمقدار طولك يا خاتون.

قالت المرأة:

ـ ليعفُ الله عنا.. إننا نذنب يا سيدي الشيخ.

ـ نعم تذنبين.

خجلت المرأة وسكتت. صرخ الشيخ باكير مرة أخرى:

ـ هيا تكلمي، كيف تذنبين؟؟

ـ يأتي الرجال.. فنضاجعهم، ونحب بعضنا..

ـ هيا افعلي ذلك لنرى، يجب أن نرى الذنب الذي تقترفينه.

حملت إحدى النساء دفاً، وبدأت أخرى بالغناء.. والثالثة تعرت أكثر وبدأت بالرقص (جيفتا تللي). وقدمت للشيخ كأساً من الخشاف.. إنه الشيخ باكير..

وفجأة يقذف بنفسه إلى الوسط ويبدأ بالرقص:

- حبيب.. حبيب.. مدد.. هاي..

وكان كلما حرك الشيخ باكير كرشه وهو يرقص، يبدأ السقف بالاهتزاز وتخاله سيسقط. كما أن المرأة الراقصة أيضاً انفعلت.

- آمان يا سيدي الشيخ، بروية.. الدرك سيكبسون هذا المكان.

- لعنة الله على الدرك..

- يسمعون يا سيدي الشيخ.

- ولعنة على الذين يسمعون..

وكان الخشاف المتنوع بالفودكا والكحول يقدم للشيخ دون توقف. وهو يرشفه دفعة واحدة ويعود إلى الرقص.

- هل تريد فنجاناً من القهوة يا سيدي الشيخ؟

- هات..

- فقدم له القهوة بالأفيون.

- هل تريد سيجارة يا سيدي الشيخ.

- هات.

فقدم له سيجارة محشوة بالحشيش:

- هل تريد خشافاً يا سيدي الشيخ؟؟

- هات.

فقدم له الشراب الممزوج بالفودكا والاسبرتو. فبدلاً من تخديره..

يزيده شراسة وقوة وحدة.. بعد الآن لا أستطيع أن أصف لكم الشراسة التي وصلها.

عند بزوغ الفجر خرجنا من بيت النساء.. أما الشيخ باكير فلم يسكت:

ـ هاي.. هايت.

يصرخ بأعلى صوته.. والنوافذ تفتح.. والجميع ينظرون إلينا.. أما الحراس والشرطة، لما رأوا كيرك علي معنا، أشاحوا بأنظارهم عنا كأن شيئاً لم يكن، وكأنهم لم يروا أحداً.

عندما وصلنا بيتنا. كان الشيخ باكير قد ازداد شراسة وحدة. وبدأ يشتم كيرك علي.. وتناول أمه وامرأته.. وكيرك علي يتوسل إليه:

ـ ليكن هذا المكسور قرباناً لك يا شيخي.. لا تفعلها بالله عليك.

لا الرجاء ولا التوسلات ولا الكلام كانت تثني الشيخ باكير في تلك اللحظة. واستل كيرك علي سكينه بقوة.. واي ولك آمان.. ويا لها من ساعة حرجة.. فعندما رأى الشيخ باكير السكين فتح صدره ومشى صوب رأس السكين.

أما كيرك علي فكان يقول:

ـ طيلة حياتي كلها لم أر أحداً قليل الناموس مثل هذا.. النجدة..

قال ذلك وهمَّ بالهرب. ولكن الشيخ باكير أمسكه من رجليه ثم رفعه وألقى به أرضاً وجلس على صدره.

ـ ولك، لو قتلتك هنا.. لن يصيبني أي ضرر.. وأكون قد أنقذت البلد من جرثومة مثلك، وانتزع السكين من يد كيرك علي.

ـ ولك في أي مكان من جسمك تريد أن أغرز هذا السكين.

ـ لا تفعلها يا شيخي.. لا تعملها يا شيخي.. داخل على حريمك.

سحب كيرك علي نفسه من تحت الشيخ.. وشد ركبه وهرب ومعه زعرانه الثلاثة.

كان صدر الشيخ يصعد ويهبط مثل (كور المبيّض).

أدخلته إلى المنزل، وظللت أدفعه حتى أوصلته إلى سريره ودفعته عليه. عندما أصبح على الفراش انقطعت أصواته، والشكر لله. وبقي نائماً مدة يومين متتاليين.

أما كيرك علي الذي كان يرعب الناس كلهم.. وحصل له ما حصل من شيخ كبير.. قال لرفاقه:

ـ الآن علينا بالرحيل، هذا البلد حرام علي.. احترامنا للشيخ لا يطعمنا ولا يسقينا. ولو أني شربت قدحين. ما كنا توصلنا إلى ما نحن عليه.فالشيخ وضعنا في موقف صعب من كثرة الشراب. لقد ضعفت معنوياتي (أي والله) يعني إلى اللقاء..

قال ذلك، وذهب ولم يعد ثانية..

لم أخبر والدي بالحقارة التي حدثت.. بعد ظهر اليوم التالي قال لي:

ـ بما أن الشيخ باكير لم يتحرك فعلى الأغلب أنه مريض، أو أنه نام للاستخارة.

استيقظ الشيخ بعد يومين وقد خبا نور وجهه، وزال عنه لونه. جاء عجائز الحارة وقالوا للشيخ باكير:

ـ يقولون إن كيرك علي قد هرب بواسطتك يا سيدي الشيخ، لقد تخلصنا من البلاء والمصائب.

مسّد الشيخ باكير ذقنه وقال:

ـ لقد طردناه بقوة إيماننا.

لقد نال الشيخ باكير أدعية كثيرة.. ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن، إذا بدا عني ما لا يعجب أبي يقول:

ـ يا ترى هل نرسل خبراً للشيخ باكير؟؟

من خوفي، صرت أتناول طعام العشاء كل يوم في البيت مع أهلي.. فالذي أعرفه يا صديقي: «لا يستطيع أن يفحم قليل الدين شخص قليل الإيمان..» لأن كيرك علي الذي كان يخيف سبع مدنْ دفعة واحدة، أفحمه الشيخ باكير بقوة إيمانه.

○ ○ ○

الرابح هو الذي يجري أكثر

كان في الثانية والسبعين من عمره، ولكن مظهره لا يعطيه هذا العمر. له من ابنه الوحيد حفيد وحيد. عندما حانْ موعد خطبة حفيدته الصغيرة، والتي تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، على طبيب.. قال لابنه وزوجته:

ـ لا تتدخلا في هذا الأمر، أنا من سيتحدث مع الشاب.

كان إنساناً مسناً، ولكنه لم يكن رجعياً ولا متديناً.. كان تقدمياً أكثر من نصف الشباب. محبوباً، ومحترماً يقدره الجميع ويجلونه، ويسمعون كلامه. وقبل أن يتحدث مع الشاب الذي سيتزوج حفيدته سأله ابنه:

ـ وعن أي شيء تريد أن تتحدث معه يا أبي؟

ـ سأمتحنه وأوجه إليه سؤالاً واحداً.. إذا أعطاني جواباً ناجحاً تكون البنت حلالاً له.

حاولوا جاهدين إقناعه بعدم محادثة الشاب، فلم يفلحوا، لقد كان لدى العجوز شرط واحد يجب توفره في شاب يريد أن يبني عشاً سعيداً، وكان يريد أن يعرف فيما إذا كان هذا الشرط متوفراً لدى الشاب الذي سيتزوج حفيدته.

قال له ابنه:

ـ وإذا كان هذا الشرط غير متوفر فيه؟

ـ عندها لن يتزوجا.. وإذا تزوجا أدخلا نفسيهما في مشاكل، فمن

الأفضل أن لا يقدما على هذا الزواج.

مساء أحد الأيام حضر العريس إلى البيت، وحاول تقبيل يد الجد باحترام، لكن الجد رفض واكتفى بوضع يده بيد الشاب وصافحه بشدة.. كانا لوحدهما في الغرفة، فاكتسى وجه الشاب بحمرة الخجل، وصارت حبات العرق تتساقط من وجهه كحبات الخرز.

ـ أهلاً بك أيها الشاب. سمعت أنك تريد الزواج من صغيرتنا، وأنكما قد تفاهمتما على كل شيء.. هذا جميل، وأعجبني كثيراً لأن الأمر في النهاية يخصكما.

كان الشاب يصغي إلى العجوز ورأسه مطرق نحو الأرض.

ـ هل تجري؟

قال الطبيب الذي فاجأه السؤال مباشرة:

ـ لم أفهم يا سيدي!

ـ هل تجري..؟ يعني هل تعدو؟ هل تجري جيداً؟

حاول الطبيب الشاب أن يعرف من وجه الجد أي جواب يفرحه أو يحزنه.. أفضل شيء أن يقول الحقيقة:

ـ لم أمارس الرياضة مطلقاً، وأنا لست من العدائين، ولكن إذا لزم الأمر أستطيع أن أجري مثل كل الناس.

قطب العجوز حاجبيه:

ـ لا.. هذا غير ممكن.. إذا عدوت مثل جميع الناس يعني أنك بلعت الطعم، ستجري أسرع من الآخرين كي تخلص نفسك.

ظن الشاب أن الجري ربما يكون رمزاً لشيء ما، ولكنه يجهل على أي محمل سيأخذه.

ـ سأحاول المستحيل كي أجري يا سيدي.

ـ الجري لا يكون بالغيرة.. يكون بالسرعة.. وبالسرعة القصوى.

بعد هذه المقابلة القصيرة، صرح العجوز بقراره الأخير لابنه وكنته:

ـ هذا غير ممكن.

كان الطبيب الشاب ذا أخلاق حسنة، وعملياً جداً، وغنياً جداً.. كان زوجاً مناسباً يصعب على الإنسان أن يجد زوجاً مثله لابنته. زد على ذلك أنهما كانا متفاهمين.

قال العجوز:

ـ كل هذه الأوصاف لا قيمة لها إذا لم يجر بشكل جيد.. ليكن خالياً من كل هذه الصفات، يكفي أن يجري بسرعة..

طلب الشاب الطبيب موعداً ثانياً لمقابلة العجوز الذي تعلقت قضية زواجهما بموافقته. في هذه المرة وبكل جرأة قال دون أن يرفع نظراته عن الأرض:

ـ عفواً يا سيدي، لم أفهم حتى الآن، لماذا تريدون أن يكون زوج حفيدتكم عدَّاءً؟

قال العجوز ضاحكاً:

بسيطة جداً:

ـ بسيطة جداً.. سأشرح لك.. لأنني لا أعدو جيداً.. فقد وقعت في مشاكل كثيرة، وانصبت كل البلايا والمصائب على رأسي، ولم أستطع التخلص منها..

عام (١٨٨٩) عندما أصبحت طالباً في كلية دار الفنون وعمري ثمانية عشر عاماً كنت أسير مع فتاة من قريباتي، فوجئت بشخصين ثرثارين.. بدأا يتحرشان بقريبتي ويسمعانها كلاماً لاذعاً.. ويومها لم أقصر في إعطائهما درساً مهماً في أصول التربية والأخلاق.. غير أنهما

في المرة الثانية لم يكتفيا بالكلام وصارا يمدان أيديهما.. رأيت أن الأمر لن يدوم هكذا فقلت لهما: «سأشكوكما إلى المخفر لتريا ما سيحل بكما».

قريباً من المخفر أسرعت كي أدخله، وإذا بهذين الشابين يجريان بسرعة البرق ويدخلان المخفر قبلي. شيء حسن. ها قد ساقهما القدر إلى حتفهما بأيديهما. ما أغباهما من شابين! فبدلاً من الهرب يدخلان المخفر. ماذا تقول في هذا الأمر.

دخلت المخفر كي أقدم شكوى بحقهما.. ولدى دخولي من الباب فوجئت بعنصرين من الدرك يمسكان بيدي.. قال الثرثاران: «إن هذا الشاب وجه كلمات نابية وقاسية، وشتائم يعاف اللسان ذكرها بحق سلطان الزمان، سيدنا الخان السلطان عبد الحميد.. ولأننا نحب السلطان بصدق فقد جئنا لنشهد على ذلك».

ـ «ولك عيني أي سلطان عبد الحميد هذا؟ وأي بادشاه (ملك)؟! ومن الذي تفوه بما تفترون؟ ما هذا العمل؟ أصلاً أنا الذي جئت لأشكوهما لأنهما تطاولا بيديهما ولسانيهما على صاحبة العفة والناموس..»

حاولت كثيراً إفهام الدرك الموضوع، لكنهم لم يقتنعوا بكلامي، فطرحوني أرضاً وشدوني إلى (الفلقة) وانهالوا علي ضرباً. ولك آمان. يا إسلام، يا سامعين الصوت، تعالوا أنقذوني. مع من تتحدث يعني..؟ لا أحد يسمعك..

كنت أتوسل الذي شدني إلى (الفلق):

«يا سيدي، أنا المشتكي الحقيقي. ليس من عادتي أن أطيل لساني بحق سيدنا وسلطان زماننا..!.. هذه القصة مختلقة من أساسها. هذان الشابان عديما التربية قد قرصا قريبتي التي كانت تمشي معي.. من قفاها».

كان الجلاد يضرب ويقول بين كل ضربة وأخرى:

«أنا أعرف ذلك يا ولدي، وأصدقك، ولكن ماذا أفعل من أجلك؟ لو وصلت المخفر قبلهما لكنت وضعتهما على الفلق بدلاً منك. وبما أنهما وصلا قبلك، فهما على حق. ماذا أفعل..؟ ولكي تبقى هذه الحادثة عالقة في ذاكرتك.. الذي يعدو ويصل قبل الآخر يكون هو الرابح.. هل فهمت؟ فالحل إذن ليس بيدي. أنا أعرف الحقيقة، وهذا واضح على وجهك الذي لا يوحي بأنك تطاولت على سيادة الملك. ولكن ماذا أفعل؟ فإذا تركتك الآن، سيقولون: (لقد عفا عن الخائن) ويخبرون عني.. أنا مضطر لضربك».

قال ذلك وهو ينهال على رجلي ضرباً بالعصا.

«آمان.. أبوس تحت قدمك».

حقاً لقد أشفق ضارب الفلق على حالي، لأنه كان يبكي من جهة، ومن جهة أخرى يقول: «هذه وظيفتي يا ولدي. لو أنك سبقتهم.. ماذا أفعل الآن من أجلك؟ وإذا لم أعاقبك سيقولون: إنه يحمي من سبِّ وشتم الملك». يقول ذلك ثم ينهال بالضرب علي.

بقيت أسبوعاً في المخفر، ومنه أخذوني إلى المركز، ثم نقلوني إلى الديوان الحربي.. وبقيت في السجن عدة سنوات.. ما شاء الله.. تم إعلان المشروطية في عام (١٩٠٨)، وتم إسقاط الملك، وأعفي عني فصرخت من كل قلبي: «تعيش العدالة.. تعيش المساواة.. أهلاً بالحرية..».

في عام (١٩١٠) صرت موظفاً صغيراً وأنا في العشرين من عمري. كنت عائداً من (قاضي كوي) بالسفينة، وكان أحد معارفي القدامى والذي يعمل (جورنالجياً) صحفياً تابعاً للسراي، قد بدأ بشتم وذم الحرية.. فغلى الدم في عروقي وقلت له: «اسكتوا يا أفندي».

بدلاً من السكوت ازداد الشخص شراسة وحقارة. قلت له: «سأشكوك».

لم يسمع مني.. عندما خرجت من الميناء اتجهت إلى أول مخفر أعرفه. ولكن الصحفي المتفتح جرى قبلي إلى المخفر. وبما أنه لدي من التجارب القديمة ما لا ينسى بدأت أنا الآخر أعدو بسرعة كي أسبقه وأدخل المخفر قبله. أما هو فكان يعدو أسرع مني.. ودخلنا في سباق وسط الشارع.. هو يعدو، وأنا أعدو.. كنت بعض الأحيان أسبقه، ولكن الرجل كان يعدو أفضل مني.. رأيته يدخل المخفر قبلي، وبعده مباشرة دخلت.. لكنني لم أستطع الكلام من شدة التعب. أشار إلي بيديه وقال لرئيس المخفر: «هذا هو الخائن يا سيدي، لقد تفوه بكلمات حقيرة لا أستطيع ذكرها بحق ناظر الدولة سيدنا طلعت باشا أفندينا، وبما أنني مواطن صالح فقد صعب علي السكوت، وأصبحت الشكوى واجبة علي، فجئت إلى هنا لأقوم بما يمليه علي حبي لوطني».

ولك آمان.. لم تذكر كلمة طلعت باشا في ذلك الحديث أبداً..

إن كنت رجلاً اشرح لهم وأقنعهم. لم أستطع أن أسبقه إلى المخفر، والمتعارف عليه من يسبق هو صاحب الحق..!

وبما أنني قلت الحقيقة فقط.. فقد بقيت في السجن أكثر من عام ونصف (البركة).

بعد عام ونصف اندلعت الحرب العالمية الأولى فشاركت فيها وأصبت بجروح بالغة في جبهة القفقاس، فمنحت نقاهة لمدة شهرين أمضيتهما في استانبول.. في الطريق صدم أحدهم رجلي المجروحة. تألمت كثيراً فقلت له: «رجاءً خذوا حذركم بعض الشيء». وبدلاً من الاعتذار أخذ الرجل يشتمني ويسبني.. لم أصغ إليه.. وتابعت طريقي. كان يشتم ويسب ويكفر أمام الناس.. لم يتركني أذهب، ومضى في غيه وجوره أمام

الجميع.. وجدت أنه لا بد من وضع الأمر في نصابه، قلت في نفسي: «أذهب إلى المخفر وأقدم شكوى ضده». وبما أنني مجروح في قدمي لم أستطع العدو.. فسبقني الرجل إلى المخفر وهذا يعني أنني احترقت. فقلت بما أنني لم أستطع أن أسبقه، على الأقل أهرب من هنا وأنجو بنفسي.. ولكن الأمر كان منتهياً، فقد وصل الرجل إلى المخفر وقدم شكوى ضدي.. وفوجئت بعنصرين من البوليس يقبضان علي من الخلف وهما يقولان: «إلى أين ستهرب من قبضة العدالة؟» واقتادوني بقوة وأدخلوني المخفر.

الرجل الذي داس على قدمي وكفرني وشتمني.. أشار إلي وقال للكوميسير: «هذا هو يا سيدي الذي سب وشتم بطل الحرية أنور باشا المحترم».

هل تقول أنور باشا؟! ولك أخي، الآلاف من الناس يقاتلون على الجبهات حباً به وهم مستعدون لتقديم أرواحهم في سبيله. أمعقول أن نكفر به ونسبه أو نشتمه؟؟ والله يا سيدي لو أن لساني نطق بجملة واحدة فيها أنور ما تألمت.. أنا المشتكي الحقيقي يا سيدي.. أنا إنسان مقاتل (الذي يجرح في المعارك يسمى بطلاً) أنا صاحب الحق..

قال المفتش: «لو كنت صاحب الحق ما هربت».

وماذا أفعل؟ الرجل يعدو أسرع مني، أما أنا فرجلي مصابة..

ولم أتمكن من إقناعهم.. فأخذوني إلى محكمة الإدارة العرفية.. وبقيت هناك ملقى في النظارة مدة طويلة.. ولا أحد يعلم غير الله وأنا ما عانيت من مشقة وعذاب حتى أخلص نفسي..

في هذه الفترة خضنا حرب الاستقلال.. أنا شخصياً حاربت مع (إينينو) والحمد لله تم إعلان الجمهورية.. كنت أثناءها في الخامسة والثلاثين من عمري.. وذات يوم اشتريت بعض الفواكه.. أعطيت البائع

عشر ليرات، فرد لي ليرتين ونصف.

قلت له: «أعطيتك عشر ليرات يا أخي».

قال: «لا.. أعطيتني ليرتين ونصف»

كان الرجل سيسرقني وأمام ناظري. وجدت أن هذا الأمر لن ينتهي بمشادات كلامية والمخفر قريب.. قلت في نفسي: «لأذهب إلى المخفر وأقدم شكوى بحق هذا الرجل النصاب. وبما أن فمي قد احترق أكثر من مرة، خلعت نعلي وعدوت بسرعة نحو المخفر. ولما شاهدني بائع الفواكه أعدو.. أخذ طريق (تولومبجي) القاسية وسبقني.. ودخل المخفر قبلي، ودخلت خلفه مباشرة.

قال الرجل للمفتش: «إن هذا الرجل قد شتم حضرة السلطان يا سيدي».

أنا ولك..؟ أنا أسب وأشتم السلطان.. مصطفى كمال باشا..

استمرت المحاكمة ستة شهور.. حتى أتخلص بدأت أختار الأسود من الأبيض.

في عام (١٩٤٠) كان لي معاملة في إحدى الدوائر الرسمية.. والموظف المسؤول لم ينجزها لي ولا بشكل من الأشكال. كل يوم، اذهب وتعال غداً. كرهت حياتي..

وذات يوم وبكل وقاحة طلب مني رشوة.. (والله سأشكوك). قلت ذلك وندمت وتراجعت عما قلته.. ولكن ما الفائدة؟ بدأ الرجل يركض.. ولك آمان.. كنت في الخمسين من عمري.. في شبابي ما كنت أعدو جيداً.. كيف أعدو الآن وأنا بهذا العمر.. إذا هربت مصيبة. وإذا ركضت مصيبة أخرى.. وبدأت أعدو من خلفه.. أجري وأجري.. والمخفر بعيد.. كدت أقع على الأرض ويغمى علي من شدة التعب دخلت المخفر بعد الموظف.. ولكن، بلغ السيل الزبى.

قال الموظف للمفتش: «هذا الرجل يا سيدي تفوه بكلمات نابية بحق رئيسنا الوطني (إينينو)».

ولك واطي.. قل غير هذا الكلام.. أنا أتناول عصمت باشا؟! هذا غير معقول أبداً.

إذا لم يكن لديك عمل ابدأ بالزحف هنا وهناك.

«يا سيدي، طلب رشوة مني.. ولأنني رفضت وهددته سبقني إليكم».
ولكن من يصدقك؟ فلأنه سبقني إلى المخفر أصبح هو المحق.

دفعت مبالغ طائلة للمحامين حتى خلصت نفسي من هذه الورطة.

والشكر لله لقد أصبح نظامنا ديمقراطياً، وكان ذلك في عام (١٩٥١).

ذات يوم رأيت أحد سائقي التاكسي ممسكاً بسائح أمريكي يريد أن يبتزه كونه غريب.. وطلب منه مبلغاً أكثر مما سجل العداد. قلت لو ذهبت إلى المخفر فالسائق سيسبقني إليه بسيارته.. أخذت رقم السيارة، ولكن السائق رآني بطرف عينه.. وعلى الفور بدأ يجري نحو المخفر الذي لا يبعد عنا كثيراً.. فجريت من خلفه.. وفيما أنا أعدو كنت أصرخ: «من يحب الله فليمسك به».

لكن لا حياة لمن ينادي.. ودخل المخفر قبلي:

«لقد سب السيد رئيس الجمهورية يا سيدي»

«واه عليك.. أتسب رئيس الجمهورية (جلال باير)؟ ها..؟»

كنت على وشك أن أتعفن في السجون.. ولكني خلصت نفسي بعد معاناة كبيرة جداً.

أما ذلك اليوم فلن أنساه أبداً، لقد حدث عام (١٩٦٠).. كنت أشتري الباذنجان من بائع متجول أمام باب منزلنا. كان سعر الباذنجان

آنذاك في كل مكان سبعين قرشاً، ولكن عندما طلب مني البائع مائة وخمسين قرشاً للكغ الواحد، قلت له: «هل أنت تبيع في السوق السوداء؟! سأشكوك للمخفر».

ليت لساني قطع ولم أقل تلك الكلمات.. لقد بدأ الرجل يعدو باتجاه المخفر والسلة على ظهره.. أما أنا فكنت أحتذي بابوجاً وألبس البيجاما.. ومشيت خلفه.. آه.. لقد تقدمت بي السن، لا أستطيع أن أعدو مثله. دخل الرجل قبلي مخفر الحارة. ولم تكد قدمي تطأ باب المخفر وأنا أقول «يا سيدي» فإذا بالبائع يقول للمفتش: «هذا هو يا سيدي الذي سب وشتم رئيس وزرائنا (عدنان مندريس)».

يكفي.. فالأمر لم يعد يطاق.. وأوشكت أن أصرخ: «نعم، فعلتها» لأنني مهما حاولت إيضاح الأمر للمفتش أن ما جرى لا علاقة له بمندريس، وأنه متعلق فقط بالباذنجان والبورصة، فلا مجال للخلاص..

اقتادوني إلى المحكمة.. ولم ينقذني من السجن سوى الانقلاب العسكري الذي حدث وستر شيبتي.

قبل أيام شاهدت أحدهم أمامي فجأة. نعم، دون أن يحدث بيننا شيء على الإطلاق ولا أعرفه.. ولكن عدوه لم يعجبني.. لأننا أصبحنا في زمن لا يعلم أحد فيه ماذا يغضب الإنسان وماذا يرضيه.. يبدو واضحاً أنه ذاهب ليقدم شكوى ضدي. فإذا لم أكن أنا المقصود فسيكون شخصاً آخر كي يحرقه.

المخفر الذي كان يجري نحوه بعيد.. أسرعت إلى المخفر الأقرب، ولما دخلته قلت للمفتش: «يا سيدي إن شخصاً قد شتم رئيس الوزراء (جمال غورسال) وهرب بهذا الاتجاه»

أمسكوا بالرجل وأحضروه إلى المخفر.. قلت: «هذا هو الرجل»

قال الرجل: «اتركوني ولك عمي أوشك أن يفوتني القطار..»

كانْ الرجل المسكين يعدو ليلحق بالقطار.. كيف لي أن أعرف ذلك؟!

أي نعم.. ماذا أفعل يعني؟ لو وصل قبلي لكان الحق معه.. الأمور تسير هكذا يا سادة، من يصل المخفر قبل الآخر هو الذي يربح. ولذا فإن لم يكن المرء عداءً.. يقع في مصائب كثيرة، ويهوي بيته على رأسه.

قال الشاب:

ـ أنت محق يا سيدي، بعد الآن.. سأتدرب كل صباح على الجري لأصبح عداءً ماهراً في المستقبل.

انفجر العجوز ضاحكاً (ها.. ها..) وقال:

ـ أرأيت؟ لقد زوجتك حفيدتي.

ooo

قماش اسكتلندي خالص

عملي في تلك الأيام كان منصبّاً على البحث عن عمل.. لقد كنت الخبير الأول في شؤون البحث عن عمل في البلد.. أيام طويلة عملت فيها اثنتي عشرة ساعة يومياً أبحث عن عمل. وكان استخراج البترول أسهل بكثير من الحصول على عمل لمن ليس له واسطة.. فما كنت أبحث عنه صار شبه المستحيل لأنني لن أحصل عليه مطلقاً. كنت أسكن في بنسيون رقمه (١٩) في شارع (بال هانه)، حارة (تارلا باشي).. قبالة غرفتي كانت تسكن امرأة صفراء الوجه كحبة السفرجل. قامتها هيفاء.. تعيش حياة كأنها صمت القبور. عند المساء تذهب إلى عملها.. تعمل طوال الليل، وتعود عند الفجر.

بعد مدة عرفت أنها تعمل حارسة في (بيت عام)، في حارة (أبانوز) وكل سعادتها هي أن يطردوها من البوليس.. تتحمل الضرب والشتائم من صديقها على الدوام دون أن تقول شيئاً.

في إحدى غرف الطابق الثاني يسكن روسي أبيض. ولأنه يرسم بعض الرسوم الزيتية في مداخل البنايات، يحسب نفسه فناناً حقيقياً. ولذا فإنه لا يظهر لوحاته السوداء حتى وهو نائم في الليل. وفي الغرفة المقابلة لغرفة الرسام يسكن (فحام الحارة).. يتجشأ كصفارة ضبابية، يملأ الغرفة برائحة تشبه رائحة قبو شراب تعفن منذ مئات السنين.

في الطابق الأسفل تسكن فتاة مجنونة إلى حد ما، اسمها (بارادا كونسوميتريس)، وشخص يكبرها بكثير، لا أدري إن كان قريبها أو زوجها.. وصاحبة البيت (البانسيون) السيدة ميرفت هانم تسكن هذا

الطابق أيضاً. وعلى الطابق الأول غرفة وحيدة يسكنها بائع لبن متجول مع زوجته وأربعة أطفال.

أجدني سعيداً وأنا أرسم الصورة الاجتماعية لمنزلنا.

كنت أدخل غرفتي وأخرج منها في الأوقات التي كانت تنام فيها (ميرفت هانم) كي لا تراني لأنني ومنذ سبعة أو ثمانية أشهر لم أدفع لها قرشاً من الإيجار.

في أحد الأيام قال لي الفحام الذي يعرفها جيداً عن كثب:

ـ اجعلها سعيدة، فلن تأخذ منك الإيجار، بل تعطيك مصاريفك اليومية.

لكن مع كل نواياي الصادقة لم أنجح في إسعاد ميرفت هانم، لأن أصغر أبنائها من عمري.

جميع من في المنزل حزنوا لعدم حصولي على عمل. في أحد الأيام قال لي شخص طردوه من البوليس:

ـ لا تستطيع إيجاد عمل وأنت بهذه الهيئة وهذا اللباس، لأنهم قبل كل شيء ينظرون إلى ثياب المرء ومنظره الخارجي.

كان كلامه صحيحاً.. ولكن ماذا عساي أن أفعل؟!

دُقَّ باب غرفتي في الليل؛ إنه الفحام.. وضع ما كان يحمله بين يديه على السرير:

ـ جلبنا من أجلك بعض الألبسة.. البسها.. وابحث عن عمل.. لنرى النتيجة.

شكرته. ولما خرج تفقدت الأغراض التي أحضرها، وعرفت كل قطعة منها؛ فالدهان الروسي الأبيض أرسل (بلاستورونه)، وبائع اللبن حذاءه الذي ليس له كعب، وصديق المرأة الصفراء النحيفة بنطاله، وابن ميرفت

هانم سترته (جاكيته)، وكونسوماتريس وصديقها العجوز قميصاً أبيض، والفحام قبعته. جميع المستأجرين أشفقوا علي وحزنوا من أجلي. لقد قرروا مساعدتي كي أجد عملاً. فما أحضروه كان ثياباً بالية ورثة، ولكنها بالنسبة لثيابي تعتبر جديدة.

بللت البنطال بالماء وطويته جيداً، ووضعته تحتي بين الفراش والسرير، لأجده مكوياً عند الصباح.

استيقظت من النوم باكراً وحلقت ذقني ولبست ثيابي. كان البنطال قصيراً، أما أكمام السترة فقد كانت طويلة إلى ما بعد أصابع يدي. وبما أن القبعة كبيرة على رأسي، فقد أنزلتها نحو رقبتي من الخلف كي لا يلاحظ أحدٌ كبرها. حتى أن القميص كان ضيقاً، لم أستطع أن أزرر ياقته. والحذاء كان كبيراً نوعاً ما، ولكنه جديد. ووجدت نظارة كانت مرمية على الدولاب، وضعتها على عيني ولم أدر لمن هي. وضعت منديلي الأبيض في جيب سترتي العليا، وأنزلت طرفه منه. ومن قرنفلة المرأة السفرجلية اللون قطفت زهرة حمراء شبكتها على ياقة السترة.

اعتقدت أنني في وضعي هذا أصبحت مؤهلاً كي أذهب وأطلب العمل دون أن أعلم إذا كان هذا اللباس يليق بي أم لا.

لقد عادت إلي ثقتي بنفسي بعد أن لبست هذه الثياب. في البدء كنت أمشي بخيلاء.. مررت ببعض معارفي، ثم بمن أعرفهم نصف معرفة.. لم يكن عند أي منهم أمل..

عند العصر، كانت معدتي تصرخ من شدة الجوع، وكنت كلما أخرج من باب خاوي الوفاض، أشعر أن ثيابي أصبحت أثقل وزناً على جسمي.. أجر الحذاء الكبير العجائزي بصعوبة بالغة.

وبدأت بالمرور على عناوين الدوائر الموجودة في الإعلانات على

صفحات الجرائد والمجلات وحاجتها إلى عمال وموظفين. ورجعت خائباً منها جميعاً. كنت أعلم أنني أزداد تعاسة مع مرور الزمن.

عند المساء، وعند مروري من باي أوغلو والكدر يملأ قلبي. نظرت إلى نفسي في زجاج إحدى الواجهات فرأيت ثيابي قد التصقت بجسدي.. كان منظري مزرياً جداً.. مع أنني حين نظرت إلى نفسي عند الصباح في إحدى هذه الواجهات أعجبت كثيراً بمنظري وشكلي الخارجي.

وبينما كنت عائداً من (تارلا باشي) إلى حي (التقسيم) مررت في أحد الأزقة وإذا برجل يجلس على الرصيف.. لما شاهدني تحرك سريعاً واقترب مني.. وبعد أن سلم علي باحترام فتح حقيبة كانت تحت إبطه وأخرج منها قطعة قماش وقال بضع كلمات بالفرنسية. نظرت إلى قطعة القماش، فقد كانت جميلة جداً.. أما أنا فلا أملك متليكاً واحداً. تابعت طريقي.. لكن الرجل لم يتركني في حالي.. هذه المرة بدأ يتحدث بالألمانية، ولكي أتخلص من يده ولسانه وسعت خطواتي وأسرعت بالمشي، فتبعني وصار يخاطبني بالإيطالية. إنه ليس برجل.. بل هو برج بابل حي. ثم تحول إلى الإنكليزية. ويومها لم تكن الإنكليزية منتشرة عندنا كما هي اليوم.

وكما يدعي فإنه يبيع قماشاً اسكتلندياً خالصاً صافياً. قطعة مقلمة رائعة الألوان، يمكن أن تخيط منها قطعة سبور رائعة، ولكي أتخلص منه قلت له:

ـ لا أعرف الإنكليزية.

هذه المرة بدأ بالتركية..

ـ بما أنك تعرف التركية، لماذا لم تتكلم بها قبل الآن.

ـ حسبتك غريباً بهذه الألبسة الجميلة التي تلبسها.

أعجبني كلام الرجل كثيراً. قلت له وكأنني أريد شراء قطعة القماش:

ـ بكم هذه القطعة؟

ـ هل لك معرفة بالقماش يا سيدي؟ انظر إليه جيداً.

وبقلم رصاص أخرجه من جيبه ثقب القماش.. وعلى الفور عاد القماش إلى حاله، وكأنه لم يدخل فيه شيئاً.

أرأيت ذلك يا سيدي؟ واضح أنه قماش اسكتلندي.. وزيادة في الإيضاح جربته لك.

كنا نسير ونتحدث..

ـ بكم تعطونها؟

ـ يا سيدي، أنا لا أدع أحداً يرى هذا القماش. نظرت إلى ثيابك، وعرفت أنك تفهم بالأقمشة ولهذا عرضتها عليك.

أدخلت يدي في جيب بنطالي وبدأت السير بخيلاء.. وسألته ثانية:

ـ طيب، بكم هذه القطعة؟

ـ قلت لك إنني لا أعرض هذه القطعة على شخص لا يفهم بها.. في تركيا لا يوجد مثيل لها.. لا تجد منها في أي مخزن.. إنها اسكتلندية خالصة تصلح سترة لك.

سألته مرة ثالثة وأنا أنفخ صدري:

ـ ما سعرها..؟

ـ لشخص جاهل لا أبيعها بمائة ليرة.. أما أنت.. فمختلف. فلباسك ينسجم مع الزي الحديث.

ـ فهمنا.. كم تريد ثمنها؟

ـ هذه القطعة فداء لمن يلبس حسب الموضة.. من أجل خاطرك خمس وسبعون.

حسبما لمست فالقطعة رخيصة بهذا السعر ولكنني ما كنت أملك خمسة وسبعين قرشاً.

قلت:

ـ غالية..

وبخطى واسعة انطلقت..

هو الآخر وسع خطواته من خلفي.. قال:

ـ حرام أن تذهب هذه القطعة إلى شخص لا يتذوق اللباس يا سيدي. والله إنني حزين من أجلها.

أنا الآخر كنت أحزن عليها، ولكن ماذا أفعل؟

ـ لا أريدها.

ـ لا تحرم نفسك من هذه القطعة يا سيدي.. خذوها.. إذا اشتراها أحد لا يفهم بالقماش واللباس.. فأعماقي ستحترق. سأتركها لك بستين ليرة.

ـ لا أريدها.

ـ أقول لك.. خذها.. ستفرحك كثيراً وستسعدك.. اللباس المرتب غير شكل.. من أول نظرة فهمت عليك.. أتركها لك بخمسين.. خذها.

ـ عندي ألبسة كثيرة.. ماذا أفعل بها؟ لن أشتريها.

ـ سأتركها لك بأربعين. هل تريد أن تقول شيئاً آخر؟ خذها وارمها على الطريق. مثل هذا القماش لا يتوفر على الدوام.. إنها بضاعة أوروبية مهربة.

ـ ولك عمي لا أريدها..

ـ إنها تليق بك كثيراً.. لأنك تفهم بأصول اللباس.. لا أريد تركك. طيب.. أنت كم تدفع؟

ـ لا أريد شراءها.

ـ ادفعوا سعراً ما.

قلت في نفسي لأقل شيئاً ما كي يفلت الرجل ياقتي.. متران وثلاثون سنتيمتراً من قماش اسكتلندي. القماش الكتان العادي يساوي أربعين ليرة.. قلت للرجل ليكن كلاماً ليس إلا:

ـ سأعطيك عشرين ليرة.

ـ أعطني..!! على الأقل قد بيعت إلى شخص مثلك يفهم باللباس والهندام.. أعطني: بعشرين لك أفضل من مائة للغير.

ووضع الرجل القماش على يدي.. ماذا أفعل الآن؟!

قلت:

ـ لا أحمل مالاً.

ـ ليكن يا سيدي.. نذهب معاً إلى منزلك وتعطيني المال هناك.

جئنا إلى المنزل.. وأنا لا أدري ماذا سأفعل في البيت.. تركت الرجل على الباب وأسرعت نحو ميرفت هانم بعد أن قلت للرجل:

ـ انتظر بعض الوقت هنا.

ـ آمان يا ميرفت هانم.. هناك قطعة قماش اسكتلندية.. مهربة.. تساوي أكثر من مائتي ليرة.. أعطاني إياها الرجل بعشرين ليرة. حرام أن تضيع من يدنا.

ـ ما نوع هذا القماش الذي يساوي مائتي ليرة ويبيعه صاحبه بعشرين؟!

ـ البائع على الباب.

ـ أدخله.

ناديت الرجل.. لمست ميرفت هانم القماش وقالت:

ـ هذا بعشرين ليرة؟! إنه غالٍ.

غضب البائع كثيراً. أدخل إصبعه من طرف القماش وأخرجها من الطرف الثاني وقال لها:

ـ انظري إلى هذا القماش يا سيدتي.

ـ إنه غال جداً.

ـ أعطني خمس عشرة ليرة ولك عمي.

ولشدة غضبه بدأ بإدخال إصبعه الضخم هنا وهناك في القماش.. فيعود القماش إلى ما كان عليه.

ـ كم ستدفعين؟

قالت ميرفت هانم:

ـ إنه غالٍ.

ـ طيب أعطني اثنتي عشرة ليرة ونصف. العمى في نظر هذا المال.. لو كان (أسطراً) لساوى هذا المبلغ.

قالت ميرفت هانم دون اكتراث:

ـ إنه غالٍ.

أحسست أن الرجل سيجن دفعة واحدة.. ولكنه تحلى بالصبر وبرودة الأعصاب وقال بصوت كأنه يتوسل:

ـ ألا تأخذينها بعشر ليرات؟

ـ كنت أتوسل إليها بنظراتي.. ولكن المرأة الظالمة قالت:

ـ إنه غالٍ.

ترك البائع ميرفت هانم واتجه نحوي وقال:

ـ أعطني خمس ليرات وخذ القماش.

أطرقت رأسي وسكت.. غضب الرجل كثيراً وقال وهو يصرخ في وجهي:

ـ ولك.. أخرج من جيبك ليرتين ونصف، وأرني إياهما وسأترك هذا القماش لك.

لقد فهم أخيراً أنني لا أحمل قرشاً واحداً..

ـ بما أنك لا تملك مالاً فلماذا أتعبتني هكذا منذ الصباح؟؟

ـ أنا لم أتعبك.. أنت الذي لصقت بي.

ـ ولك أخرج ليرة واحدة من جيبك.. وخذ القماش..

قلت لمدام ميرفت متوسلاً:

ـ أعطني ليرة لوجه الله.

قالت:

ـ لا تساوي.. إنها غالية.

كان كلامها محيراً لي وكذلك للرجل.

قالت ميرفت هانم:

ـ هل رأيت؟؟ لا تساوي قرشاً واحداً.

لف البائع القماش وخرج من الباب وهو يعض على قبضته اليمنى بأسنانه.

ooo

لن نصبح بشراً

إذا تدافع الناس في مكان وقال أحدهم: «لن نصبح بشراً ولك أخي؟» يجيبه الآخرون وهم يهزون رؤوسهم: «نعم هذا صحيح لن نصبح». ولا ينبري له أحد ويقول: «ما هذا الكلام يا سيد؟! احترم نفسك على الأقل»

لما كنت في الخامسة والعشرين من عمري، كانت دمائي تفور وتغلي.. حاولت أن أختبر نفسي في إحدى السفن التي كان تبحر إلى الجزيرة.. كان أحد المسنين غاضباً لسبب لم أعرفه وكان يردد صارخاً على الدوام:

ـ لن نصبح بشراً..

أما الموجودون في الصالون فكانوا يهزون رؤوسهم بالإيجاب..

الفتوة والشباب دفعتا الدم إلى رأسي.. قلت صارخاً:

ـ ولماذا لا نصير بشراً؟! نصير بشراً وحبة مسك.. نصير بشراً وندهش الجميع.

بدأ الموجودون في الصالون يتهامسون وكأنهم قد اتفقوا ضدي.

ـ لا نصير بشراً.

ـ فنحن أبعد ما نكون عن الحضارة والإنسانية.

ـ لن نصبح بشراً.

مع هذه الكلمات المتكررة والمتتابعة انفرج وجه العجوز الغاضب وقال لي:

ـ انظر يا بني، وكما تسمع.. نهتف جميعاً وبصوت واحد «لن نصبح بشراً». يعني أننا لن نصير بشراً بالقوة.

ـ نصير يا عمي نصير.. ونصير من أحسن الناس.

ـ نحن سنصبح بشراً.. هذا يعني أننا لسنا بشراً في الوقت الحالي.. أليس كذلك؟

لم أرفع صوتي أبداً. ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن وأنا أفكر وأفكر.. نحن لماذا لا نصير بشراً؟!

كان دخولي الأخير للسجن أكبر حظ بالنسبة لي لأنني وجدت جواباً كنت أبحث عنه منذ سنين طويلة.. في ذلك المهجع السياسي والذي يضم أكثر من خمسين سجيناً من مثقفين كبار، ورجال أعمال مشهورين، ومحافظين، وشخصيات مشهورة، ومدراء على مستوى عال، ومهندسين وأطباء.. عشت مع كل هؤلاء.. درس معظمهم إما في أوروبة أو أمريكا، وزاروا دولاً عديدة.. معظمهم يجيد عدة لغات. كانت أفكارنا متضاربة. ومع هذا فقد تعلمت منهم أشياء كثيرة أهمها: نحن لماذا لا نصبح بشراً..

أيام الزيارات كانت تصلني الأخبار غير السارة على الدوام.. إيجار البيت لم نستطع دفعه..ديوننا زادت للبقال. أخبار من هذا النوع.. كنت محتاراً في أمري وليس عندي أمل واحد.. قلت في نفسي: «علي أن أبدأ بكتابة رواية على الفور علني أبيعها لإحدى الجرائد أو المجلات فتدر علي بعض الليرات. منذ زمن طويل ومخطط رواية في رأسي». وبهذا القرار أخذت القلم والورقة وانزويت في فراشي كي لا أضيع وقتي الثمين بالكلام الفارغ، وبالأشياء والحركات الفارغة.

لم أنه كتابة عدة أسطر حتى جاءني أحد المثقفين البارزين وجلس على طرف الفراش، وكانت أول جملة تفوه بها:

ـ نحن لا نصير بشراً.. نحن لا نصبح بشراً.

لم أسأله عن السبب. من تلقاء نفسه بدأ بالإجابة عن سؤاله:

ـ انظر.. لماذا نحن لا نصبح بشراً.. أنا درست في سويسرا، وعملت في بلجيكا ست سنوات..

وقص لي قصة حياته الدراسية والعملية في كل من سويسرا وبلجيكا مطولاً..

كان يلهيني عن عملي الكتابي.. غضبت منه كثيراً.. ولكن ما عساني أفعل؟ كنت أمسك بالورقة والقلم وأتظاهر بالكتابة لأقول له بشكل غير مباشر اختصر كلامك ودعنا نعمل. ولكنه لم يرعو.. ظل يحكي وبدن توقف.

ـ هناك لا تجد إنساناً لا يحمل كتاباً. إذا بقوا دقيقتين دون عمل يفتحون الكتاب فوراً ويبدؤون بالقراءة. في الحافلات والقطارات.. في كل مكان.. قراءة دون توقف.. كل يأخذ كتابه ويقرأ.

قلت له لعله يفهم قصدي ويدعني وشأني:

ـ رائع جداً، رائع جداً.

ـ طبعاً.. انظر إلينا، نحن هنا نخبة مختارة من المثقفين ورجال الأعمال والمشهورين. هل ترى أحداً منا يفتح كتاباً ويقرأ؟ نحن لا نصبح بشراً يا سيدي لا نصبح.

قلت له:

ـ صحيح.

عندما قلت «صحيح» زادت سرعته في الكلام وطفق يحكي لي كيف أن السويسريين والبلجيكيين يقرؤون دو.. دون توقف. ولما حان وقت الإفطار تحركنا نحن الاثنين من مكاننا. قال:

ـ هل فهمت لماذا نحن لا نصبح بشراً؟

قلت:

- نعم.

أمضيت نصف يومي تقريباً وأنا أستمع عن قراءة السويسريين والبلجيكيين للكتب والمجلات.

تناولت الغداء بسرعة ورجعت إلى فراشي وبدأت بالرواية. وصرت أفكر والأوراق على ركبتي، والقلم في يدي.. وأنا لم أكتب كلمة واحدة بعد.. وإذا بأحد المسجونين يجلس على طرف سريري:

- ماذا تعمل؟

- أحاول أن أكتب رواية..

- لا تستطيع أن تكتب هنا.. ألا تسمع هذه الضجة..؟ هل ذهبت مرة إلى أوروبة؟

- لا أبداً.. لم أخرج من تركية أبداً.

- آ..آ.. مؤلم جداً.. كنت أتمنى أن تكون قد زرت أوروبة. لترى تلك البلاد. فالحياة فيها شيء آخر، ونظرتكم للأمور تتغير. فأنا تقريباً زرت كل أوروبة، وبقيت مدة طويلة في كل من الدانمارك والسويد وهولندا. الناس هناك يحترمون بعضهم كثيراً، ولا يتكلمون بصوت عال كي لا يزعجوا الآخرين. انظر إلى حالنا هنا.. لماذا كل هذا الصخب والضجيج؟! هكذا يا سيدي.. ربما سأنام وربما سأقرأ وربما سأكتب، وربما عندي عمل ما. وأنت أيضاً لن تستطيع كتابة سطر واحد من روايتك في هذا الموضع.. لن يدعوك تكتب..

- يا سيدي أنا أستطيع الكتابة وسط الضجة وتحت أصوات المدافع شريطة ألا يتكلم أحد قربي ولا يحادثني فيلهيني.

- يا سيدي يا روحي.. ألا تكون الكتابة أفضل بدون الضجيج؟ من أين يملكون الحق لإزعاجك؟ يستطيعون الحديث بصوت هادئ.. فهذا

الشيء ممنوع قطعياً في كل من هولندا والسويد والدانمارك.. ولهذا السبب فإنهم يتقدمون على الدوام لأنهم يحترمون بعضهم ويقدرون بعضهم.

وبقي الرجل يتحدث ويتحدث ويأتيني بالأمثلة عن الاحترام والتقدير.

إنها لقلة أدب منه، ولكن ماذا أفعل؟ كان يتحدث.. أما أنا فأحنيت رأسي وبدأت بالكتابة.. ما كنت أكتب ولكنني كنت أتظاهر بالكتابة.

ـ لا تحاول.. لن تستطيع الكتابة.. لأن أعصابك متوترة.. «أوروبة غير شكل».. أن تقول إنساناً أوروبياً معناه احترام الإنسان للإنسان. أين ذلك منا؟ لهذا السبب لن نصبح بشراً.

كان حديثه سيطول.. لكن من حسن حظي فقد جاء أحدهم وأخبره أن محاميه قد حضر، وبذلك تخلصت منه. وفور ذهابه وضعت رأسي بين الأوراق حتى إذا جاءني أحدهم يعرف أنني أعمل. ولم أكمل السطر الثاني وإذا بسجين آخر يجلس على طرف الفراش..

ـ هوّن الله عليك.

ـ شكراً، أدامك الله.

ـ الشعور بالإنسانية بعيد عنا جداً.

لم أقل شيئاً كي يدعني وشأني. سألني:

ـ هل ذهبت مرة إلى أمريكا؟

ـ لا..

ـ هذا مؤسف جداً.. لو عشت في أمريكا عدة شهور لفهمت سبب تأخرنا. يا سيدي، في أمريكا لا يتحدثون عبثاً كما هو الحال عندنا. لا ثرثرة ولا هم يحزنون.. والوقت عندهم له ثمن.. وهم يرددون دائماً: «Taym iz mani» (Time is money) الإنسان الأمريكي لا يحدثك إلا إذا كان هناك عمل ما. وباختصار: كل واحد له عمله.. هل نحن هكذا؟

مثلاً: حالنا هنا.. شهور طويلة نمضيها بالثرثرة والكلام الفارغ. كلمات جوفاء (لا تصلح حبالاً ولا نبالاً). هذا غير موجود في أمريكا. ولذا فهم يتقدمون.

«نفخت أوفاً طويلة وبوفاً» لعله يفهم أنني مشغول ويدعني وشأني.. ولكن الرجل لم يرعو. ظل يتحدث ويتحدث حتى خلصني منه طعام العشاء. قال وهو يتركني:

- في حياتنا لا نصير بشراً ما دمنا نمضي أوقاتنا بالثرثرة والكلام الفارغ.

قلت:

- كلامك صحيح.

بعد تناولي طعام العشاء رجعت فوراً إلى كتابة الرواية، وإذ بي أسمع صوتاً قريباً مني:

- إذا كنا لا نعمل لا يذهب كل ما نعمله هباء منثوراً.

رفعت رأسي فرأيت أحد أصدقائي المساجين على الفراش المقابل لفراشي.

- ما قولك في هذا؟

قلت:

- طبعاً يجب أن نعمل.

- أنا تربيت تربية ألمانية.

كنت على وشك الانفجار.. ظل يحكي ويحكي دون توقف:

- هنا أخذت البكالوريا الألمانية، وأنهيت دراستي الجامعية والعليا في ألمانيا، وعملت هناك سنوات طويلة. قلما تجد شخصاً عاطلاً عن العمل. هل نحن هكذا؟ مثلاً انظر إلى حالنا هنا.. لا شيء.. لا شيء.. فنحن لن نصبح بشراً، والتقدم بعيد عنا جداً..

ما العمل؟ يبدو أنني لن أستطيع كتابة الرواية مطلقاً. لقد توترت أعصابي فقررت صرف النظر عن الأمر الآن.. وأبدأ الكتابة بعد أن ينام جميع من في المهجع.

استمر في الحديث عن ألمانيا:

ـ البطالة شيء معيب في ألمانيا، والألمان لا يبقون هكذا دون عمل، فحيثما يكونون يجدون أعمالاً لأنفسهم. وبالتأكيد سيعملون. فمثلاً نحن هنا منذ شهور طويلة.. هل يوجد بيننا شخص واحد يعمل؟ هيا قل لي.. يقولون: ماذا نعمل في السجن؟ المثقف الألماني لا يقول هذا الكلام. يكتب مذكراته.. يحرك القلم لسبب ما.. يفتح كتاباً.. يعني بالمختصر المفيد، لا يجلس دون عمل.. لا.. فكل ما نقوله يذهب هباء منثورا. نحن لا نصبح بشراً.

لم يتركني حتى انتصف الليل. قلت في نفسي بعد الآن لن يأتيني أحد ويحاضر أمامي في موضوع «لن نصبح بشراً». وعلى هذا الأمل بدأت بكتابة الرواية. وإذا بأحدهم يجلس قربي.. هذا الأخير، حسب ادعائه، بقي مدة طويلة في فرنسا. كان يتحدث بصوت خافت كي لا يزعج النائمين.قال إن الفرنسيين يعرفون متى يعملون ومتى يمرحون. ويفرقون بين العمل والراحة، وأنا بعد هذه الساعة المتأخرة يجب أن لا أعمل.

كان يقول:

ـ يجب أن تنام الآن، وتستيقظ باكراً بعقل سليم لتعمل بجد ونشاط. أما أوقات العمل والراحة صارت متداخلة عندنا؛ أي أننا نعمل أوقات الراحة ونرتاح أوقات العمل.. ولهذا السبب نحن غير منتجين. وهذا هو سبب عدم صيرورتنا بشراً. فوالله لن نصبح بشراً في يوم من الأيام.

لم يذهب إلا بعد أن تركني في شبه غيبوبة. كانت عيناي نائمتين،

وما إن استلقيت حتى رحت في سبات عميق.

في اليوم التالي استيقظت قبل الجميع وبدأت بكتابة الرواية.. مرَّ بي أحد رفاق المهجع وهو عائد من المرحاض لأنني أحترمه كثيراً وقال:

ـ إنكلترا غير شكل.. هل ذهبت مرة إليها؟

ـ لا..

ـ واه.. واه.. حرام.. مثلاً.. إذا ركبت القطار وسافرت لساعات طويلة، فالجالس قربك لا يتحدث إليك أبداً. ولو أن هذه الحادثة جرت عندنا لقالوا ما أبرده من شخص! كم هو متعجرف ومعتز بنفسه! لكن هذا السلوك ما هو في الحقيقة إلا تربية اجتماعية خاصة وعدم تدخل في شؤون الغير. وربما لا يريد جارك أن تتحدث معه أو لا تريد أنت محادثته.. فلماذا يزعجك؟ أما عندنا.. يعرفه أو لا يعرفه.. عنده عمل أو ليس عنده عمل، لا يهمه هذا.. فيبدأ بالثرثرة.ولهذا السبب نحن لا نصير بشراً..

جمعت الأوراق التي كانت فوق ركبتي وألقيت بها تحت الفراش، ووضعت القلم في جيبي وتوقفت عن كتابة الرواية. لم أستطع كتابة أي شيء هناك، ولكنني تعلمت بعض الحقائق التي تساوي عندي الكثير، وهو لماذا نحن لا نصبح بشراً.

مستقبلاً إذا وقف أحدهم غاضباً وقال:

ـ نحن لا نصبح بشراً..

أرفع إصبعي وأقول صارخاً:

ـ أنا أعرف سبب ذلك.

وهذا هو ربحي الوحيد في آخر سجن لي.

○ ○ ○

أنا دائماً بالحياة

المكان مزدحم جداً، فلو قذفت إبرة إلى صالة العروض الرياضية لما وصلت الأرض لكثرة المتفرجين.

رجل مكتنز يفوقني في السن يجلس عن يساري. ومن الحديث الذي يدور بينه وبين شاب عن يمينه استنتجت أنه والده. واتضح لي من حديث الشاب ولباسه وسنه وتربيته وحسن تصرفه أنه طالب في الثانوية.

في بداية العرض وقف فريق الاتحاد السوفييتي للمصارعة.. صفقنا له. وبعد ذلك وقف منتخبنا.. ودوى تصفيق حاد في أرجاء المكان. وعندما بدأ الشاب يصفق قال له والده:

ـ صفق بهدوء. ليس حسناً أن يكون الإنسان في هذه الحياة متطرفاً في كل شيء، وأن يندفع لأي سبب، وفي أي زمن كان. حتى عند التصفيق يجب أن نكون متّزنين. كن معتدلاً في كل تصرفاتك فالاعتدال والتوازن أفضل طريق للنجاح.

الحفلة حامية الوطيس، وبينما كان المصارعون يتصادمون كالجبال قال الأب لابنه:

ـ انظر يا بني. يجب أن لا نبقَ حتى نهاية المباريات. علينا أن نترك الصالة قبل انتهاء آخر جولة بخمس دقائق، لأننا إذا غادرنا باكراً نستطيع إيجاد مكان لنا في الحافلات. أما إذا تأخرنا فسوف نتأذى وسط الزحمة، ولا تتيسر لنا واسطة نقل. ليس من الضروري أن نغادر باكراً جداً كي لا نحرم من العروض، لكن قبل خمس دقائق فقط.فهذا ليس باكراً جداً ولا متأخراً جداً،.على الإنسان أن لا يكون في المقدمة

دائماً ولا في المؤخرة. أن تكون رأساً دائماً ليس بالأمر المستحب، وكذلك أن تظل في المؤخرة فالأمر معيب. على الإنسان أن يعرف نفسه وزمنه.. لا باكراً ولا متأخراً.

كنت أصغي لنصائح الأب لابنه، فلم أفهم ما قيل من كلمات بواسطة مكبرات الصوت. بدأت المصارعة. ولم تكن وصايا الأب قد انتهت بعد:

ـ اسمع، خرجنا من المنزل ولم تأخذ معطفك معك. يجب على الولد دائماً أن يسمع كلام أبيه. قلت لك: «خذ معطفك معك يا بني» صحيح أن الطقس كان جميلاً عندما غادرنا البيت، ولكن البرودة تزداد بعد منتصف الليل، ولنفرض أن جسمك يعرق، وهنا السؤال: ماذا سيفعل بك البرد؟ وبكل تأكيد ستمرض. يا بني على الإنسان في هذه الحياة أن يسمع كلام من هم أكبر سناً.

الأب الذي كان يوصي ابنه بصوت عال تحول إلي مباشرة وقال:

ـ بعض الآباء يا سيدي الأفندي لا يأخذون أولادهم معهم حيث يذهبون. هذا تصرف خاطئ. على الأب في هذه الحياة أن يكون صديقاً لابنه. مثلاً أنا لم أحرم ابني من حضور حفلة المصارعة أبداً. مع أنه طفل.. لكن يجب أن يرى كل شيء ويتعلمه. ومن أجله فقط. جئت إلى هنا.

لقاء المصارعة الأولى قد انتهى. ولم أستطع معرفة نتيجتها من ثرثرة هذا الإنسان. وبدأ اللقاء الثاني.. أصبحت الصالة حارة جداً.. فخلع الولد سترته.

ـ ما هذا..؟ هل تخلع سترتك؟ نعم.. لقد أصبح الجو حاراً جداً. اخلع سترتك. ولكن كان عليك أن تسألني قبل ذلك.

التفت نحو الخلف وبدأ يتحدث مع من خلفه:

ـ أنا يا سيدي لن أقف ذات يوم حاجزاً أمام رغبات ولدي. وعلى الآباء أن لا يكونوا حاجزاً أمام رغبات أو طلبات أبنائهم، على أن تكون

تلك الرغبات معقولة. أليس كذلك يا سيدي؟ مثلاً ابني يخلع سترته.. لقد أراد ذلك.. فليكن.. ولكن..

والتفت نحو ابنه:

ـ انظر يا بني.. هناك أصول في خلع السترة. فلن تستطيع خلعها كما تريد، لأنه إذا فعلت ذلك، ووضعتها فوق ركبتك، تسقط الأغراض الموجودة في جيوبها على الأرض، ودون أن تشعر بذلك؛ ولذا عندما تريد خلع سترتك فتش جيوبها جيداً، وركز موجوداتها حتى تتأكد أنها لن تقع على الأرض، ثم تخلع سترتك. أنا طول عمري لم أخلع سترتي إلا بعد ترتيب الأغراض الموجودة في جيوبها جيداً.. ولذا فإنني لم أفقد غرضاً واحداً ولم يسقط شيء منها على الأرض طوال حياتي.

كنت متضايقاً جداً من ثرثرة هذا الرجل. وعبثاً حاولت إيجاد مكان آخر للجلوس أهرب إليه، فلم أفلح. لقد كانت الصالة مكتظة لدرجة تعذر معها ليس الجلوس فقط بل الوقوف أيضاً.

سألت الجالس عن يميني:

ـ عفواً.. أليس هذا اللقاء الثاني؟

ـ لا.. إنه اللقاء الثالث.

ثرثرة هذا الرجل حرمتني مشاهدة المصارعة وسماع ملاحظات الحكام. فقد عاد يقول لابنه:

ـ هل عطشت؟ اسمع هذا غير ممكن. على الإنسان، وخاصة في مثل هذه المواقف، أن لا يخرج من بيته إلا بعد أن يروي ظمأه جيداً. أن تشرب مياهاً غازية، لا مانع.. تستطيع ذلك. لكن انظر لقد تعرقت.. فالمياه الغازية الشديدة البرودة تجعلك تسعل. والصحة قبل كل شيء في هذه الحياة ورأس كل شيء.. يجب أن تشرب الماء في منزلك ثم تخرج.. ليكن هذا درساً لك؛ يا بائع الكازوز.. تعال وأعطنا كازوزاً..

نهضت من مكاني كي أتخلص من ثرثرة الرجل، غير أني لم أستطع التحرك لشدة الزحمة، وأجبرت على الجلوس ثانية في مكاني.

ـ لا تشرب الكازوز دفعة واحدة يا بني كما يجب ألا تشرب الماء البارد دفعة واحدة، وخاصة عندما تكونْ المعدة حامية والجسم متعرقاً. بل يجب أن تشربه جرعة جرعة، وأن تنتظر خمس دقائق بين الجرعة والأخرى، كما يجب أن تترك الكازوز حتى يفتر وتشربه.. طوال حياتي لم أشرب الكازوز ولا البوظة دفعة واحدة، ولذا فإن معدتي، ما شاء الله، تهضم الحديد.

كنت أتأفف.. أما الرجل فقد ظل مسترسلاً في نصائحه. انتهت أربع لقاءات، كل لقاء عدة جولات، وأنا لا أعلم من الغالب ولا من المغلوب. ثم حدثت استراحة مدتها عشر دقائق خلالها أراد الولد الذهاب إلى المرحاض على الأغلب، لأنني سمعت والده يقول:

ـ هذا هو خطأ آخر. كيف ستذهب إلى المرحاض في هذه الزحمة؟ على الإنسان قبل أن يخطو خطوة واحدة أن يكون محتاطاً في هذه الحياة. وبما أنك أحببت حضور حفلة المصارعة وجب عليك أن تأخذ كل الاحتياطات اللازمة قبل خروجك من المنزل.. (اعمل جيشك ميشك)، يعني تبول واخرج من البيت.. أنا طول حياتي لم أخرج من البيت قبل أن أدخل المرحاض.. أنت أيضاً يجب أن تكون مثلي يا بني. حسن كيف ستتصرف الآن؟ هل تعرف مكان المرحاض؟ أرأيت..؟ لا تعرف! على الإنسان أن يتعلم كيف يتدبر أموره في هذه الحياة؛ فإذا ما دخلت إلى مثل هذا المكان يجب أن تتعرف قبل كل شيء على مكان المرحاض. هيا.. اذهب وابحث عنه..

ذهب الولد وبدأ الأب يناقشني:

ـ بعض الآباء يتركون أولادهم يذهبون بمفردهم إلى مثل هذه الأمكنة،

وهذا تصرف غير سليم.. إن ذهاب الأولاد وحدهم إلى أماكن اللهو في منتصف الليالي خطأ فاحش، فقد يؤثر هذا على تربيته.. أنا في حياتي كلها لم أترك ابني لوحده أبداً.

أشحت بوجهي عنه إلى الطرف الآخر، فالتفت وطفق يحادث الجالس عن يساره:

- يجب على الأب أن يكون صديقاً لابنه يا سيدي.. وأنا دائماً أجسد هذا السلوك.

عاد الولد من المرحاض فقال له والده:

- لقد تأخرت كثيراً. ألا تعلم أنه من واجب الإنسان أن ينهي عمله بسرعة ويعود باكراً.

كانت المباريات تجري.. أما الرجل فلم يطبق فمه، ولم يبق عندي طاقة على تحمل ثرثرته أكثر. نهضت من مكاني وأنا فاقد أعصابي أطأ أرجل الجالسين وأدفع الواقفين وأتعثر بأرجل المقاعد حتى خرجت من هناك.

بعد قليل انتهت حفلة المصارعة، الجميع يخرجون من الصالة خطوة خطوة.. وإذا بالأب الناصح من خلفي، والولد غير موجود.. فلما رآني قال:

- لقد ضاع..

قلت:

- من؟

قال:

- ابني.

قلت:

ـ لا تهتم للأمر.. شاب طويل وعريض لا يضيع، إنه ينتظرك على الباب..

ـ لا.. لا ينتظر.

ـ إذاً ستلقاه في البيت.

ـ لن ألقاه.. أعرف ذلك.. فهو لن يأتي بعد الآن إلى المنزل أبداً.. عندي سبعة أولاد وأربع بنات.. كلهم ذهبوا.. ولم يبق غير هذا.

ـ ما شاء الله.. أحد عشر ولداً..!

ـ ليسوا من امرأة واحدة.. تزوجت أربع نساء.. كلهن ذهبن.. وكان هذا الولد آخر ما تبقى لدي.

ـ إنه أمر محير.. كيف تحمل هذا الولد حتى اليوم؟!

ـ إنه صبور بعض الشيء.. يعني إنه بسيط جداً. صار عمره سبعة عشر عاماً ولا يزال في الابتدائية..

قال وهو يبتعد بعد أن أصبحنا في الشارع:

ـ بالله عليك من الذي غلب في المصارعة؟ هل غلبناهم أم غلبونا؟

قلت:

ـ أنا الآخر لا أعرف. غداً صباحاً نقرأ الأخبار على صفحات الجرائد.

○ ○ ○

المليّون السحرة

الحادثة التي سأرويها لكم معقدة بشكل عجيب، وقد جرت بين خمسة أشخاص، لا أدري كيف سأوضحها لكم.

كانوا خمسة أصدقاء.. فلكي تنعقد اجتماعاتهم، ولكي يكونوا أصحاباً، يجب أن تكون ثمة رابطة تربط فيما بينهم.. ورابطة أبطال الحادثة المعقدة هي أنهم أصحاب أموال وخبراء حسابات.

السيد طلعت والذي هو مدير عام لأحد البنوك الكبيرة، دعا أصدقاءه الأربعة إلى منزله في السعودية ليقضوا عطلة الأسبوع عنده. والسيد طلعت هذا من كبار رجال والبنوك المصارف عندنا أيضاً، يتمتع بخبرة سبعة وعشرين عاماً، كلها حافلة بالنجاح والتوفيق في الأمور المالية والمصرفية. ودقته في الحسابات شيء لا يصدق، يقول عنه أصدقاؤه: «إنه إذا استلم دكاناً صغيراً فارغاً.. يحوله خلال عامين إلى مصرف كبير رأسماله مائتي مليون ليرة». ويحكى أنه أنقذ مصرفين من الإفلاس المحقق، وجعل منهما مصرفين كبيرين يتمتعان بالثقة المطلقة.

أما السيد لطفي، أحد المدعوين إلى منزل السيد طلعت، فقد كان رجل أعمال كبيراً، يتمتع كذلك بمقدرته الكبيرة في ضبط الحسابات. ويقال إنه إذا أخذ حفنة من التراب وعصرها بيديه تحولت إلى ذهب خالص، فهو لا يتعاطى عملاً إلا إذا كان واثقاً أن هذا العمل سيعطيه ذهباً.. «تدقيق حسابات».

والمدعو الثاني هو السيد زكي، إنه موظف كبير في وزارة المالية،

يحسب له ألف حساب، ويقال إنه يدير البنوك كلها وقد سماه الغرباء: «ساحر تركيا المالي».

أما الاثنان الآخران السيد رفيق، والسيد رضا فهما من زملاء السيد طلعت في الدراسة؛ السيد رضا يعمل خبيراً في (راست هانة)، والسيد رفيق من كبار العاملين في مجال الرياضيات، وفي الوقت نفسه بروفيسور في كلية الفنون.

وصل أصدقاء السيد طلعت إلى بيته الجديد في السعودية مع أولادهم وعائلاتهم. قبل الظهر نزلوا جميعاً إلى البحر، وبعد تناولهم طعام الغداء تمددوا.. بعضهم نام قليلاً، والبعض الآخر راح في سبات عميق.

أما السيد طلعت والسيد زكي، فكانا يلعبان طاولة الزهر.. والخاسر بينهما يدفع خمسة وعشرين قرشاً.. وعند انتهاء الجولة الرابعة كان السيد طلعت قد ربح ثلاثمائة وخمسة وسبعين قرشاً. ونظراً لعدم توفر الفكة، فقد أعطاه السيد زكي عشر ليرات، ولكي يعيد له الباقي، مد السيد طلعت يده إلى جيبه وأخرج منها قطعة بخمس ليرات، وقطعة أخرى بليرتين ونصف وأعطاهما للسيد زكي.

قال السيد زكي سائلاً:

ـ والآن ماذا سأعطيك؟

بعدها تداخلت الحسابات..

ـ الآن ستعطيني.. توقف لنر..

أخرج السيد زكي من جيبه قطعة نقدية من فئة ليرة واحدة، أعطاها للسيد طلعت ليخفف عنه الحساب.

ـ ماذا حصل الآن؟

ـ ألم أعطك سبع ليرات ونصف؟

ـ نعم.

ـ طيب.. ماذا كان عليك أن تعطيني؟

ـ ولك أخي، دينك ثلاثمائة وخمسة وسبعون قرشاً.. أليس كذلك؟

ـ تمام.

ـ أعطني مائة وخمسة وسبعين قرشاً.

ـ حسن، ولكن أعطيتك ليرة واحدة.. وقبلها أعطيتك عشر ليرات.. فيكون المجموع إحدى عشرة ليرة.. وعليه، يجب أن تعطيني....

ـ انتظر ولك أخي، لا تضيعني..

ـ قطعة واحدة بخمس ليرات، وأخرى ليرتين ونصف.

علت أصواتهما.. فاستيقظ كل من السيد لطفي والسيد رفيق وأسرعا إليهما..

ـ ماذا هناك؟! ما الذي يجري؟!

ـ انظر يا أخي رفيق.. غلبته في لعب الطاولة وربحت منه ثلاثمائة وخمسة وسبعين قرشاً.

ـ انتظر قليلاً، انتظر.. أنا سأشرح له.. اسمع يا أخي: لعبنا أربع مرات.. وكل مرة بخمسة وعشرين قرشاً.

ـ ولك أخي.. لا ضرورة لطول الشرح، فأحياناً نلعب (البرتية) بخمسين أو بمائة.. ألست مديوناً لي بثلاثمائة وسبعين قرشاً أم لا؟

ـ هذا صحيح.. ولكني أعطيتك إحدى عشرة ليرة.

ـ نعم، أنا الآخر أعطيتك سبع ليرات ونصفاً، وهذا يعني أنك ستدفع لي.

قال السيد رفيق المجاز في الرياضيات:

ـ انتظروا ولك عمي.. الموضوع يحتاج إلى تفكير.. أعيدوا ما حصل ثانية حتى أفهم جيداً.. كم أعطيته أنت؟

ـ عشر ليرات.

ـ وماذا كان عليك أن تدفع؟

ـ ثلاثمائة وخمسة وسبعين..ولكن.

ـ ولكن ماذا؟

ـ بعد ذلك أعطيته ليرة أيضاً.

ـ تمام.. إذاً يا سيد طلعت يجب أن تعيد له مبلغ ستمائة وخمسة وسبعين قرشاً. وبما أنك دفعت له سبع ليرات ونصفاً.. إذاً ستعيد له.. يا سيدي المحترم.. الآن ستدفع له.. إذا نقصنا إحدى عشرة من سبع ليرات ونصف كم يبقى؟

ـ ولك عمي.. هل يمكن إخراج إحدى عشرة من سبع ونصف؟!

ـ لا.. سيخرج ستمائة وخمسة وعشرون.. كم يبقى..؟ مائة وخمسة وعشرون أليس كذلك؟

ـ الله.. الله.. ولك أخي ألم أعطه إحدى عشرة ليرة؟

ـ أعطيتني، وأنا بالمقابل أعطيتك سبع ليرات ونصفاً.

قال السيد رضا الخبير في (راست هانه):

ـ لقد تداخلت الأمور ببعضها كثيراً.. هيا أعد القصة من أولها.. هل كنت تريد أن تعطيه ثلاثمائة وخمسة وعشرين قرشاً؟

ـ نعم.

ـ هو الآخر أعطاك سبع ليرات ونصفاً.. في هذه الحالة إذا جمعنا سبعاً ونصفاً ؛ إحدى عشرة، كم يساوي..؟ يساوي.. يساوي..

ـ ليس هكذا ولك أخي.. لقد أغفلت مبلغ ثلاثمائة وخمسة وسبعين قرشاً، ولم تشركه في الحساب.. انظر الآن..

ـ لقد فهمت.. أعطني ثلاثمائة وخمسة وسبعين قرشاً.

ـ يا الله.. ومن أين توصلت إلى ثلاثمائة وخمسة وسبعين قرشاً؟ لماذا أنا الذي أعطي على الدوام وهو لا يعطي شيئاً؟

ـ طبعاً أنت الذي ستدفع.. لأنك المغلوب.

ـ مائة وخمسة وعشرون.

ـ لا..

ـ يا سيدي.. أعطيتك مرة عشر ليرات، ومرة أخرى ليرة واحدة، فأصبح المجموع إحدى عشرة ليرة.

ـ ومقابل ذلك ماذا أخذت مني؟

ـ لقد ضيعتموني على أكمل وجه. هل معك مائة وخمسة وعشرون قرشاً؟

أعطاه السيد تركي خمسة وعشرين قرشاً وجدها في جيبه:

ـ خذ.. هذه خمسة وعشرون قرشاً.. وهل تريد شيئاً آخر؟

ـ وما أدراني.. لقد ضعت تماماً.. مرة عشر ليرات، ومرة ليرة واحدة، ومرة خمسة وعشرون قرشاً، يكون المجموع إحدى عشرة ليرة وخمسة وعشرين قرشاً. أعطني منك الآن.. ليرة واحدة.

ـ التوبة يا ربي.. ولك أخي أعطيناكم سبع ليرات ونصف.

أسرع السيد طلعت وأحضر رجل الأعمال الذي كان نائماً في كرسيه.. وجره من يده:

ـ تعال.. وساعدنا على حل مشكلة هذا الحساب.

ـ انظر يا لطفي.. نحن لعبنا بالطاولة.

ـ طاولة؟

ـ ولك أخي ما علاقة الطاولة بالأمر؟ ألست مديوناً لي بثلاثمائة وخمسة وسبعين قرشاً؟ طبعاً مديون..

ـ مقابل ذلك أعطيتك إحدى عشرة ليرة وخمسة وعشرين قرشاً.

ـ نعم، لكنك أخذت بالمقابل سبع ليرات ونصفاً.

قال السيد لطفي:

ـ لقد وضح الأمر تماماً.. أنت أعطيته سبع ليرات ونصفاً.. لماذا أعطيته هذا المبلغ؟

ـ لأنني لم أكن أحمل فراطة.

ـ وأنت لماذا أعطيته عشر ليرات؟

ـ لأنه طلب مني المبلغ الذي ربحه.. وبما أنني لا أحمل فراطة، أعطيته عشر ليرات.

ـ تمام.. إنه حساب بسيط جداً.. عشر ليرات.. ومائة وخمسة وعشرون قرشاً وثلاثمائة وخمسة وسبعون قرشاً.. يكون الحاصل..

ـ يا أخي يجب أن تنقص لا أن تجمع.

ـ أعرف.. أعرف.. في البداية سنجمع ومن ثم سننقص.. أعطيته خمسة وعشرين قرشاً أليس كذلك؟

ـ أف.. لقد تعقد الحساب.

فرفع السيد لطفي يده وقال:

ـ توقفوا.. هناك طريقة سهلة جداً.. سأحلها لكم الآن.. أنت خذ الخمسة وعشرين قرشاً الذين دفعتهم آخر مرة. تمام.. وأنت خذ السبع

ليرات ونصفاً اللواتي دفعتهن.. وأنت ماذا أعطيت؟

- مرة عشر ليرات ومرة ليرة واحدة..

- هل تقول إحدى عشرة ليرة..؟ نعم.. خذها.

استرد كل منهما ما دفعه.. قال رجل الأعمال المشهور:

- الآن أعطه عشر ليرات. هاه.. وأنت أعد له ما تبقى له من العشرة.

- ليس معي فكة.. ها هي سبع ليرات ونصف!

- خذ السبع ليرات والنصف..ما الذي يجب أن ترده لي الآن؟

- أنا معي ليرة وخمسة وعشرون قرشاً.

- تمام يا سيدي.. أعطني الآن مائة وخمسة وعشرين قرشاً.

- ليس معي حتى أعطيك.

- إذاً أنت أعطه مائة وخمسة وعشرين قرشاً.

- وماذا تكون قد فعلت؟

- أعطه ولا تسأل.. في هذه الحالة.. ستطلب أنت منه.. كيف يكون ذلك يا أخي؟ لقد اختلط الحساب ثانية.

- ولك أخي..

- أف.. ولك أخي.. ماذا أعطيته؟

- ماذا أعطيتك؟

- أنت أعطيتني..

- قال البروفيسور السيد رفيق:

- توقفوا.. ليأخذ كل واحد ما دفعه.

دارت النقود من يد إلى يد.. ولم يستطيعوا الوصول إلى حل. في هذه

الأثناء صرف السيد رضا عشر ليرات ليسهل الأمر على رجال المال، لكن الحساب عاد وتعقد أكثر من الأول. عند المساء قال السيد لطفي:

ـ ليأخذ كل منكم المبلغ الذي دفعه.

استرد كل منهما نقوده. وبعدها قال السيد لطفي للمالي الساحر السيد زكي:

ـ أنت الآن مديون للسيد طلعت بثلاثمائة وخمسة وسبعين قرشاً.. عندما تتوفر معك الفكة تعطيه.. تمام؟

ـ تمام يا فندم.

ـ ليرضى الله عنك.. هكذا..

وهكذا يكون دهاقنة الحسابات الكبيرة قد توصلوا إلى حل حساب صغير!

○ ○ ○

صنبور الماء الساخن

عندما يمحى اسم كاتب ما من الصفحة الأولى للمجلة التي تتضمن أسماء (أسرة تحرير المجلة)، فهذا يعني أن عمل هذا الصحفي أو الكاتب قد انتهى.

إذا كانت كتابتي تنشر باسمي الحقيقي، فهذا يعني أنني مادياً ومعنوياً على ما يرام. أما إذا وجدتم توقيع (فلان وعلان) من الناس في مجلة (أف بابا)، فهذا يعني أنني في حالة سيئة.. بعض الأحيان أكون أنا شخصياً، وبعض الأحيان أكون (فلان وعلان).

عندما شطب اسمي من أسرة التحرير، وصرت أكتب بتوقيع (فلان وعلان) من الناس.. رن جرس هاتفي، كان المتحدث يطلب مني مساعدة دون أن يعلن عن ماهية مساعدتي له. استغربت طلبه، لأنه في الأيام التي أكتب فيها بتوقيع (فلان وعلان) ينقطع عني طالبو المساعدة. وصرت أخرج من بيتي أروح عن نفسي وأخلد إلى الراحة قليلاً. والآن بما أن أحد قرائي يتصل بي طالباً المساعدة، قلت في نفسي يبدو أن اسمي الحقيقي قد أعيد إلى لائحة أسرة تحرير المجلة. فسألته:

ـ ما الذي تطلبونه مني؟

ـ لا أستطيع أن أقوله على الهاتف.

ـ لماذا؟

ـ لأن الكلام على هواتفنا ليس أفضل من التحدث على ميكروفون (هبرلور) فالجميع يسمعونك.

ـ لا يا روحي.. هذا كان في الماضي..نعم.. في الماضي كانوا يسمعون

محادثتنا على الهاتف.. أما الآن.. فإننا نكاد لا نسمع أنفسنا أثناء المكالمة. فكيف يتسنى للآخرين سماعه؟! وما نتحدث عنه لا يمكن حصوله في الجمهورية الثانية.

ـ يا سيدي ما يحصل اليوم لا أحد يعرفه.. ربما بقي هناك أناس من جماعة الجمهورية الأولى.. يتنصتون علينا.

ـ وهل ما تريد الحديث عنه سري بهذه الدرجة؟؟

ـ إنه سري جداً.. وبدرجة كبيرة.. لذا فإنني أريد مقابلتك شخصياً.

لم أرغب في سرد هذه الحادثة، لولا أن المتحدث على الهاتف أيقظ الشكوك في نفسي.. ولربما تكون كلماته حقيقية.. فينبري لنا إنسان من الزمرة القديمة.. ويخالف القانون ويستمع إلى حديثنا، ويحسب أننا نقوم بنشاط سري.. خفت كثيراً من تصرفه. أما الآن وبعد أن اطلعت على الموضوع سأسرده على مسامعكم قصة مكتوبة.

إنهما شخصان.. جاءا بعد نصف ساعة من حديثهما على الهاتف، أحدهما في الأربعين، أما الآخر فكان شاباً يحمل بين يديه علبة لفت جيداً بورقة جريدة.

قلت:

ـ تفضلا.. أنا مصغ إليكما.

نظرا بتخوف هنا وهناك. قال الأكبر سناً:

ـ هل نحن وحدنا يا سيدي؟

قلت:

ـ لا.. أنا موجود بينكم.

ـ يعني.. ألا يوجد غيرنا نحن الثلاثة؟

ـ كما ترون.. لا يوجد أحد.

ـ هل أنت متأكد من كلامك؟

ـ ما هذا..؟! طبعاً أنا واثق من كلامي.

ـ إذا سمحت سنلقي نظرة حولنا..

ففتحا البابين ونظرا داخل البيت ذات اليمين وذات الشمال، ولما تأكدا من خلوه قال أحدهما:

ـ معنا اختراع، ونريدك أن تساعدنا في الحصول على براءة اختراع، ونخشى إذا قمنا شخصياً بتقديم طلب البراءة باسمنا أن يسرقوه منا، ولذا نريد مساعدتك للحصول على الموافقة دونما عوائق، وبعدها سنصبح جميعاً أغنياء بسرعة، وتكون شريكاً في هذا العمل. الحقيقة، لقد فكرنا طويلاً فلم نجد شخصاً نثق به أكثر منك.

لما كنت أكتب بتوقيع (فلان وعلان) أظل مفلساً على الدوام. لقد حدث في الماضي وجاءني مجانين كثر يقولون: اخترعنا كذا وكذا، وكنت أطردهم جميعاً، وأوشكت أن أفعل ذلك مع هذين الشخصين، ولكن عندما يكون الإنسان مفلساً يفقد عقله.. قلت في نفسي: ربما أجد لي بعض الأعمال، وتمسكت بالأمل. قلت:

ـ إن كنتم تريدون مالاً لتصنيع الآلة.. أقول لكم سلفاً إنني مفلس تماماً، وليس معي نقود.

انبرى الاثنان دفعة واحدة وقالا:

ـ نحن لا نريد منك مالاً، وهذا الاختراع لا يحتاج إلى رأسمال.. ونحن واثقان منك كل الثقة، ولا نريد منك سوى المساعدة في الحصول على براءة الاختراع والحفاظ على حقنا من أن يسرقه أحد منا.

ـ ما هذه الآلة؟

نظرا بخوف وهلع إلى الجدران والأبواب والنوافذ..

ـ هل أنت واثق أن أحداً غيرك لا يسمعنا.

ـ أنا واثق تماماً.

ـ إذاً هاأنذا أفتحه..

فتح الجريدة.. وكان في داخلها علبة من المقوى.. فتح العلبة.. وأنا متشوق لأرى ما هذا الاختراع الذي يحيطانه بالسرية المطلقة.. وإذا بعلبة أخرى داخلها.. وكنا نحن الثلاثة محدقين في العلبة.. فتح الثالثة.. ثم فتح العلبة الرابعة.. وأخرج منها شيئاً ملفوفاً بورقة مربوطة بخيط.. فك الخيط بدقة وفتح الورقة..

ـ هذا هو اختراعنا.. هذه هي الآلة..

كان الاختراع عبارة عن صنبور عادي من المعدن يتدلى من أسفله سلكان.. قلت:

ـ هذا صنبور..!

ـ نعم، إنه صنبور.. ولكن يخرج منه الماء ساخناً.

ـ وكيف يحصل ذلك..؟

ـ عندما تدخل هذين السلكين في البريز يخرج من الصنبور ماءٌ ساخنٌ.

ـ هلا جربته أمامنا..

ـ لنجربه.. أيوجد صنبور هنا..؟

ـ في الطابق العلوي.

لف الشاب الصنبور بدقة ووضعه تحت سترته، وصعدنا إلى الطابق العلوي من الخان، ودخلنا نحن الثلاثة معاً إلى المرحاض.. كي لا يرانا أحد، أغلقنا الباب جيداً، حللنا صنبور المرحاض.. وبما أننا لم نجد سكراً للصنبور، بدأت المياه تتدفق بقوة.. ولم ينقذنا وقوفنا في زوايا المرحاض

من البلل. أدخلا الصنبور إلى الماسورة بعد جهد.. وبما أن هذا العمل احتاج إلى أكثر من نصف ساعة، فقد ازداد عدد الواقفين أمام المرحاض ينتظرون أدوارهم، وتعالت الأصوات وارتفع الصراخ:

- ماذا تفعلون هناك..؟!

وبدؤوا بضرب الباب.

- مهلاً، إننا نصلح الصنبور.. اذهبوا إلى مرحاض آخر.

لكنهم ظلوا واقفين أمام الباب وقد ازداد عددهم وبهم رغبة شديدة لمعرفة ما يجري في الداخل، وكانوا يصرخون:

- افتحوا الباب..

كان المخترع الأكبر سناً قد ركز الصنبور تحت خشبة قديمة في جدار المرحاض، ولفه بورقة كي لا يراه أحد، أما الواقفون أمام المرحاض فقد ازدادوا عدداً وصراخاً.. قلت لهما:

- هيا، أسرعا بعض الشيء.

- لقد انتهينا.. أين البريز؟

- وما حاجة البريز في المرحاض؟

- لا ضرورة له.. سنصل السلكين بسلكي المصباح.

فانحنى أحدهما، وصعد الثاني على ظهره وانتزع مصباح المرحاض من مكانه، وعلق السلكين الخارجين من الصنبور بأسلاك المصباح في السقف، ونزل عن ظهر رفيقه.

ضغط الشاب المخترع مفتاح الكهرباء وقال لي:

- هيا افتح الصنبور.. وسنرى كيف أن الماء سيكون ساخناً.

وبما أنني أخاف كثيراً من الكهرباء، وجدت نفسي مصيباً عندما قلت له:

ـ اضغط أنت.

مدَّ الأكبر سناً يده ليفتح الصنبور، وما إن وضع يده عليه حتى صرخ صوتاً كأنه صادر من أعماق صدره: (هيه) وصار يخبط في أرض المرحاض طولاً وعرضاً، وكان التيار يرميه أرضاً كلما حاول الوقوف، أما فيما يتعلق بالاختراع فقد كانت المياه تنزل من الصنبور ساخنة جداً.

قال المخترع الشاب وكان يقف على رجليه:

ـ العن أمه.. لقد ضربه ثانية.. كلما حاولنا فتح الصنبور، تصعقنا الكهرباء وتلقي بنا على الأرض.

قال الثاني وهو ما يزال ممدداً على أرض المرحاض:

ـ إن تمكنا من إيجاد حل لهذه المسألة فسيكون اختراعاً ناجحاً تماماً.

أوقفناه على رجليه، وقطعنا التيار الكهربائي، وقام الرجلان بفك آلتهما، وركّبا الصنبور القديم مكانه.

خرجنا دفعة واحدة من المرحاض واخترقنا المزدحمين خارجاً وهم في حيرة من أمرهم، ودخلنا غرفتي.. فقال الشاب:

ـ كيف وجدتم هذه الآلة؟

قلت:

ـ إنها ممتازة، ولكنها تكهرب..

قال الأكبر سناً:

ـ إنه يكهرب ولكنه لا يقتل الإنسان، بل يخبطه أرضاً.

ـ يجب أن نجد حلاً لهذه المشكلة.

ـ نحن قمنا بدورنا، وعلى الآخرين أن يقوموا بدورهم ويوجدوا حلاً للمشكلة.

إذا لم أجد عملاً في هذه الأيام فسأذهب إلى الدوائر المختصة لأحصل على براءة لهذا الاختراع..

إن صنبورنا الذي يعطي مياهاً ساخنة مكفول جداً، لأنه عندما يقذف بلامسه إلى الأرض فإنه لا يقتله..!

ملاحظة: يجب أن تكون أرض المكان الذي سيركب فيه هذا الصنبور ملساء ناعمة!!

○ ○ ○

الطفل الرائع

دخلت امرأة قروية بدينة العمارة وفي إحدى يديها باقة من نعناع الجبل (المريمية) أو البخور، وتحت إبطها صرة كبيرة.. وضعتهما في إحدى زوايا الغرفة، أي الصرة والمريمية.. فامتزجت رائحة المريمية الحادة برائحة عرق المرأة البدينة، فتلوث هواء الغرفة.. وجلست وهي تتأوه من أعماقها، وتمسح عرق وجهها ورقبتها بطرف إشاربها القروي الطويل. وعلى الفور تآلفت مع امرأة شابة كانت تجلس في الغرفة، بشرتها سمراء رائعة، وصدرها البارز يكاد ينفجر لشدة انتفاخه، والناظر إليها يرى بوضوح نهديها من خلال ثيابها، أما هذه الشابة فكانت غير راضية ومتضايقة جداً من ثرثرة تلك المرأة الدخيلة التي أنبأت عنها تصرفاتها، وكان فمها أشبه بمحفظة كبيرة لا تغلق لكثرة الأشياء المحشوة فيها. كان فمها على الدوام مفتوحاً من شدة الحرارة، لا يخرج منه إلا الكلمات التي تجبر على نطقها مثل: نعم.. هيه.. إهي..

لقد عرف قاطنو تلك العمارة الواقعة بين محطتين قصة حياة المرأة المتطفلة على حياتهم خلال فترة قصيرة: (زوجها المرحوم كان مفتشاً في البوليس، قضى فترة طويلة في كل من ولاية «موش» «هكاري» و«سيرت» /كلها في جنوب شرق الأناضول/ وهو متوفى منذ تسعة عشر عاماً. وروت الكثير عن أصدقائهم في كل من موش وهكاري وسيرت.. وفندت طباع زوجها المرحوم من الألف إلى الياء.. حتى أنها لم تنس أحفادها؛ فكلهم أولاد عقلاء، طلعتهم بهية ومحبوبون، أما أطفال هذا الزمن، حسبما تدعي، فهم مخلوقات عجيبة.. من بقوا أحياء كبروا، ومن كبروا فقد صغروا ثانية..).

وبعد أن تحدثت مطولاً عن نفسها وعن زوجها المرحوم وسلالته.. جاء دور جيرانها؛ وحسب قولها إن لأحد الجيران طفلاً، وصارت تقص سيرة حياته لتلك المرأة الشابة ذات البشرة السمراء، والصدر الممتلئ الذي يكاد أن ينفجر من شدة الانتفاخ، واسترسلت تقول:

ـ والله يا ابنتي، طوال حياتي كلها لم أر ولم أسمع بطفل كهذا.. ما شاء الله حوله إحدى وأربعين ونصف مرة، ليحفظه الله من الحسد والنظر. لقد ولد قبل أوانه.. لم يبق في بطن أمه سوى سبعة شهور.. ومن رآه عند ولادته قال: «هذا الطفل لا يعيش أبداً»، كان مثل الإصبع الصغير. الخالق هو الله، والمحيي هو الله يا ابنتي. فلما بلغ عمره الثلاثة أشهر، صار وزنه ثمانية كغ وسبعمائة غرام.. الأطباء كلهم دهشوا، وقبل أن يتم الشهر الرابع ظهرت أسنانه..ويا لها من أسنان!! كان يمضغ ويقرض السفرجل.. تصوري هذا الطفل..! نحن الجيران دهشنا من أمره.. فعندما صار عمره ستة شهور كانت أمه لا تزال ترضعه من ثدييها، فوجئت به يدفعها عنه ويقول لها بكلمات أشبه بالرجال: «أنا كبرت ولن أرضع بعد الآن من ثدييك». ذهلت أمه المسكينة، ولشدة خوفها ألقت بالرضيع من البلكون وخرجت إلى الشارع وهي تصيح: «النجدة أيها الجيران.. الحقوني يا أمة محمد» قالت ذلك عدة مرات، وغابت عن الوعي. والله هذا غير ممكن..! فما إن صار عمره ثمانية شهور بدأ يتحدث مثلي ومثلك.. وعندما أتم شهره التاسع بدأ يمشي.. وفي العامين صار يقرأ كالبلبل من تلقاء نفسه دون أن يعلمه أحد..! في الثالثة من عمره بدأ يكتب الرسائل.. هل هذا معقول؟! في الرابعة من عمره أرسلوه إلى المدرسة، فقالت معلمته لأمه: «هذا الطفل يعرف كل شيء أحسن مني، لا ترسلوه إلى مدرستنا لأن مستواه أعلى!».

في التاسعة من عمره ظهر شارباه، وفي العاشرة من عمره بدأ يحلق ذقنه.. في الثانية عشرة درس الثالث الثانوي.. كان يرسم لوحات رائعة

يعجز الرسامون الكبار عن رسمها..! وكان يعزف على الكمان بشكل عجيب أفضل من أي فنان، ودون أن يعلمه أحد..!

صبيحة أحد الأيام، وجده والداه يتحدث بلغة غريبة لم يفهموها؛ كان يتحدث الإنكليزية ولغات أخرى.. وعندما سمعه الألمان دهشوا وقالوا: «إن الألمانية التي يتحدثها، أفضل من التي يتحدثها الألمان أنفسهم»..!

في الرابعة عشرة من عمره حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب.. ويقولون إنه كان يكشف أخطاء الإمام الذي كان يخطب في جامع (سلطان أحمد)..!

طفل عجيب يا سيدتي..! رائع..! في السادسة عشرة أنهى الثانوية وانتسب إلى الجامعة.. دهش أساتذته لما بدا منه.. قالوا: «ما هذا الذكاء؟! إنه فوق العادة..! لولا صغر سنه لكنا عيناه أستاذاً في الجامعة». وقد قال أحدهم: «أنا أتهيب إعطاء الدروس أمام هذا الولد».

سكتت المرأة المتحدثة، وكانت تسكت لأول مرة.. وبقيت الشابة السمراء تحملق في وجهها علها تتابع الحديث، ولكنها سكتت، فلم تتمالك الشابة نفسها وقالت سائلة:

ـ ماذا حصل للطفل بعد ذلك يا خالة؟

قالت المرأة المتعجبة بصوت حزين:

ـ لا تسأليني يا ابنتي.. منذ ثلاث سنوات والمسكين في العصفورية..! لقد زرته هذا اليوم، وأنا عائدة من عنده.

○ ○ ○

الذين وجدوا أماكنهم

قالوا للسلطان محمود:

ـ أحد الأشخاص يعلن أنه نبي يا سيدنا.

الملك:

ـ أحضروه لي.

أحضروا النبي المزيف حافي القدمين، حاسر الرأس، أخذ الجوع منه كلّ مأخذ.. ثيابه رثة.. في حالة بائسة جداً.

قال السلطان:

ـ خذوه وأطعموه العسل والسمن والبندق والعنب والبقلاوة والفطائر مدة أربعين يوماً ثم أحضروه إلي.

بعد أربعين يوماً وقف الرجل في حضرة الملك..

ـ ألا زلت نبياً؟

ـ نعم..

ـ حسن.. الوحي ينزل على الأنبياء.. هل يأتيك الوحي أنت أيضاً؟

ـ نعم، إنه يأتي.. إنه يأتي بواسطة جبرائيل.

ـ وماذا يقول لك؟

ـ قال الله لي بواسطة جبرائيل: «لقد وجدت مكانك، إياك أن تتحرك من هناك».

ظننت أن كرة كالتي يلعب بها الأطفال الأشقياء كسرت زجاج

نافذتي ونزلت أمامي.. وتبين لي بعد قليل أن ما وقع كان إنساناً.. فتح باب غرفتي بقوة كادت أن تخلع الباب من أساسه ووقع أمامي: هيئته الخارجية على غاية من الفوضى وعدم الاهتمام، انحبس الدم في وجنتيه، عيناه حمراوان وجاحظتان، وفمه مائل نحو اليمين.. نظراته أصبحت غريبة بشكل مثير. في بداية الأمر لم أعرفه، وإذا قلت إنني لم أخف أكون كاذباً. أمعنت النظر إليه كأنني أعرفه، فربما رأيته هنا أو هناك، أو عند أحد أصدقائي.. لا أعرف اسمه.. ربما يكون واحداً من الذين تحدثت معهم قليلاً أو كثيراً.. انتصب ونظر إلي.. قلت له بصوت متهدج وبلطف:

- أهلاً وسهلاً.. تفضلوا يا سيدي.

انفجر كقنبلة موقوتة وقال وإحدى قبضتيه خلف ظهره، والأخرى يضرب بها الهواء بقوة:

- لا يمكن أن يستمر الوضع هكذا.. ولا يمكن أن يدوم هذا النظام..!

لم أفهم قصده ولا ما يريد.. ولكني قلت له بلطف عسى ولعل أخفف قليلاً من حدة موقفه:

- صحيح جداً.. تفضلوا بالجلوس.

كان وجهه محتقناً تحسب معه أن حرارة جسده كلها صعدت إلى وجنتيه..

- هل تشرب شيئاً بارداً؟

ربما لم يسمعني فصرخ:

- يجب أن يُهد.. أن يُهد.

أمسكته من كتفه باحترام وأجلسته على الكرسي، ووضعت بيده سيجارة، وفتحت النافذة، وقدمت له كأساً من الماء. قال:

ـ لست عطشاناً.

قلت:

ـ ليكن.. ليكن.. اشربه.

وفيما هو يشرب الماء بحيرة تنهد طويلاً.. وطلبت قهوة. وبعد أن هدأ بعض الشيء قال:

ـ يعجبني بعض الناس كثيراً.

سألته:

ـ مثل من يا سيدي؟

ـ مثل من يحصلون على عمل فيتمسكون به ولا يستطيع أحد أن يزيحهم عن كرسيهم حتى بالموت.. يحيون بنظام.. يعرفون ساعة ذهابهم وإيابهم، ومع من، وعن أي شيء سيتحدثون. كل شيء عندهم يتحرك ضمن برنامج محدد.. يعيشون مثل باصات البلدية التي لها تعرفة واحدة.. يحددون ساعة دخولهم إلى المرحاض.. ولا يخطئون في ذلك. فهؤلاء الرجال (لا يحشكون) مثلنا أثناء وجودهم على الطريق، ولا يبحثون عن مرحاض بأربعة أعين.. أمعاؤهم وأجسامهم تعمل بانتظام. العمل المكلفون به يثابرون عليه ولا يتركونه إلا عند التقاعد، أو الموت.

حسبت أن الرجل يشرح حياتي تماماً. إنه يتمنى أن يعيش حياة هؤلاء، غير أنه كان ناقماً عليهم.

ـ أتمنى أن أعيش مثلهم.. غير أني لم أستطع إلى ذلك سبيلاً.

قلت:

ـ إن شاء الله تتحقق أمنيتك.

رفع شعره الأجعد بيده اليمنى وصرخ قائلاً:

ـ متى؟.. أبعد هذا العمر..؟! مثلاً هل تستطيع أن تقول لي أين نقودك الصغيرة (الفراطة)؟

ـ هل تقول الفراطة؟.. إنها في جيب بنطالي الأيمن.

ـ وكل ما تملكه..؟

ـ في الجزدان.. في جيب الجاكيت الأيسر.

ـ طيب.. منديلك؟

ـ أحمل منديلين.. أحدهما في جيب بنطالي الأيسر، والآخر في جيب سترتي الأيمن.

ـ ومشطك؟

ـ في جيب بنطالي الخلفي.

ـ ومفتاحك؟

ـ في جيب بنطالي الأمامي.

ـ وقلمك الحبر؟

ـ في جيب سترتي الأيمن.

ـ أرأيت..؟ تعرف مكان كل شيء بانتظام. أما أنا فلا أعرف ذلك.

ـ لماذا؟

ـ لأني لا أملك شيئاً منهم..! عندما أحصل على بعض النقود، أحياناً، أضعها كيفما تيسر، لا على التحديد. على الإنسان أن يعتاد حمل هذه الأغراض، وعلى ترتيبها، وحفظ أماكن وجودها. لكن صوت (طوناج) لم يلبث أن لعلع ثانية:

ـ وأين المال عندنا يا سيدي..؟! لم تزر معدتي منذ يومين لقمة واحدة. انظر إلى (بابوجي) حذائي.. لقد فتحت مقدمته كفم تمساح.

إننا نمضي قدماً نحو الخطر.. العطالة والبطالة أخذت طريقها وتأصلت.. والشعب يشكو من الإفلاس.. وضاعت الأخلاق.. وزادت الفحشاء.. وأصبح القمار وباء.. المرضى لا يستطيعون شراء أدويتهم.. والمشافي تغص بمرضى سوء التغذية. ناهيك عن الفقر المدقع المتمكن في الناس.

توقف قليلاً.. وأسند مرفقه إلى الطاولة ونظر في وجهي مطولاً بعد أن اقترب مني:

ـ يجب القيام بانقلاب.. نعم انقلاب.. هل أنت أيضاً معي في هذا الرأي؟

وقفت جامداً.. وأحسست أن دماغي قد خُدِّرَ.. قلت له وأنا أتمالك نفسي:

ـ أفضل مساعدة أقدمها لك هي أن لا أسمع كلامك هذا، فأنت لم تقل لي شيئاً، ولم تأت إلى هنا.. ولم أتحدث معك. أنا لا أعرف شيئاً مما قلت، ولم أسمع شيئاً أفهمت؟

فازداد غيظاً ووقف على رجليه:

ـ يا يا يا.. هذا محزن جداً ومؤسف جداً.. حسبتك شخصاً موثوقاً به.

ـ أرجوك.. لا تقل لأحد أنك قابلتني أو تحدثت معي. ولن أخبر عنك...

فخرج دون أمل...

لشدة خوفي لم أبق في المنزل.. خرجت إلى الشارع.. وقصدت صديقاً لي بعد أن أرجعت ساعتي ساعتين ونصف الساعة. وتعمدت أثناء الحديث تكرار السؤال عن الساعة وأنا أشير لساعتي.. لقد دفعني خوفي

إلى هذا السؤال، وقلت لو قال ذلك الشخص إنه قابلني وتحدث معي.. فجوابي سيكون: «لم يأت إلي ولم أره.. أنا في تلك الساعة كنت عند فلان»، وقررت أن أضعه شاهداً.

رجعت إلى البيت.. بعد أن أضعت ألف ليرة.. فهذا الرجل لم يترك ذرة من العقل في رأسي، فقد أعطيت السائق ألف ليرة على أنها عشر ليرات. لقد شل تفكيري، فألف ليرة لشخص مثلي من ذوي الدخل المحدود تعد مبلغاً محترماً. لم أستطع النوم تلك الليلة مطلقاً.

في اليوم التالي، وأنا في طريقي إلى عملي، رأيت الرجل الذي جاءني يوم أمس، وكان معه شخص آخر.. أشحت بنظري عنه كي لا يراني، ولكنه رآني.. فاقترب مني وقال:

ـ كيف حالك يا سيدي؟

قلت ببرود شديد:

ـ أشكرك.

قال:

ـ ألا ترى أن الطقس جميل جداً هذا اليوم؟

مع أن المطر كان يهطل غزيراً منذ الصباح..

قلت:

ـ وأين وجه الجمال في هذا الطقس..؟ إنه طقس قذر.

قال وهو يبتسم:

ـ أنا أحب هذا الطقس كثيراً. إنه مناسب للدخول إلى السينما.. سأذهب إلى السينما بعد الظهر.. هيا، أستودعك الله.

ـ مع السلامة.

تركنا وذهب، لكن رفيقه بقي واقفاً معي وقال:

ـ ما أغرب طبيعة البشر.. إن كانوا يملكون النقود، فمثل هذا الطقس يكون جميلاً في نظرهم!

ـ وهل السيد الذي تركنا يملك المال؟

ـ كان مفلساً.. ولكن منذ البارحة صار معه مال.. حدث ذلك عندما ذهب مساء أمس مع صديق لنا.. وفيما كانا يتجولان في (باي أوغلو) وإذا بشيء يقع على رأسيهما دفعة واحدة. أحدهما وقع على رأسه محفظة نقود، أما الآخر فقد وقع على رأسه أصيص ورد.. حملوا الأخير إلى المشفى، أما صاحبنا فقد أخذ المحفظة وتوارى عن الأنظار.

بعد عدة أيام من هذه الحادثة قطع أحد النشالين في الباص جيب سترتي وانتشل محفظتي التي تحوي مع الراتب الذي قبضته لتوي.. ثلاثة آلاف ليرة كنت قد ادخرتها منذ سنوات طويلة.

بعد عدة أيام كان ذلك الرجل يجلس قربي في السفينة وبدت عليه الأناقة والنظافة.. كان غير الرجل الذي جاءني لأول مرة مظهراً وتصرفاً.. وقال لي:

ـ أراك وكأن شيئاً ما أغضبك.

قلت:

ـ لا أبداً.. ما من شيء أبداً.

كان على الدوام يبتسم.. قال:

ـ كيف تجد الحالة الاقتصادية الآن؟

قلت:

ـ مع أنه لا معرفة لي بذلك.. ولكن على الأغلب ليست جيدة.

حالاً بدت عليه علائم الجد.

ـ لا.. الحمد لله.. الأوضاع الآن ليست كما كانت عليه سابقاً.. إنها في تحسن مستمر.. فطالب العمل.. يجده.. شريطة ألا يكون كسولاً.

عندما كنا ننزل من السفينة، أشار أحد الركاب إلى الرجل وقال لرفيقه:

ـ هل ترى هذا الرجل يا أخ.. قبل أيام صدمته سيارة خاصة.. فسقط على الأرض.. وسالت بعض الدماء من أنفه، وكان صاحب السيارة الخاصة غنياً جداً. لا يريد أن تظهر صوره على صفحات الجرائد، ولكي لا يقدم الرجل على تقديم شكوى بحقه.. أعطاه مبلغ ثلاثة آلاف ليرة.

وكما هو معروف.. عندما تأتي المصائب.. تأتي دفعة واحدة.. واحدة إثر أخرى.. بعد أن أعطيت السائق الألف ليرة بدل عشر ليرات.. وبعد أن أخذ النشال محفظة نقودي.. كان من نصيبي أن جاءني ابن أخي بعد أيام وقال: «ما رأيك يا عمي لو نشتري سيارة، ونعمل فتدر علينا مالاً كثيراً؟» قال ذلك وأضاف: «ندفع مبدئياً ثمانين ألف ليرة من ثمنها، والباقي يدفع أقساطاً شهرية.. على أن تكون السيارة قديمة ولكن جيدة». صدقت كلامه على أمل أن أستعيض المال الذي فقدته مع سائق التاكسي والنشال، فسحبت المبلغ الذي ادخرته لسنوات طويلة من البنك، وأعطيته لابن أخي. وتم شراء السيارة.. ووقعت على سندات للمبلغ المتبقي.. إلا أنه بعد أن تمت عملية الشراء، لم أجد السيارة، ولم أجد ابن أخي.. وفي ذمتي دين مقداره عشرون ألف ليرة.

التقيت ذلك الرجل في أحد السرافيس، والهم والغم أعميا عيني، وصرت على حال لا أستطيع معها رؤية شيء من حولي.. كان على غاية من الانشراح، يبتسم على الدوام.. وقال:

ـ بعض الأحيان لا يجد الإنسان سيارة أجرة تقله، فيضطر إلى ركوب السرفيس.

كان يتحدث دون توقف:

ـ كيف تجد أحوال البلد؟

قلت:

ـ والله لا أعلم.. ما أراه أنه ليس على ما يرام.

ـ لا.. لا.. إننا عاجزون عن تقديره.. المال والحمد لله كثير في الأسواق، والأرباح على ما يرام، والعمل كثير.. وناكر الجميل جاحد.

نزل من السرفيس.. قال أحد الجالسين قرب السائق:

ـ أرأيتم هذا الرجل..؟ وهل سمعتم ما قال؟ يقول: إنْ المال موجود بكثرة. أنا أعرفه جيداً.. كانت رائحة فمه من شدة الجوع تصل إلى عدة أمتار.. لكنه بعد أن وجد رزمة من الأوراق النقدية الملفوفة بورقة جريدة في عرض الشارع، صار يتحدث هكذا.. معه حق.. المال يجعل الإنسان يتحدث كالبلابل، إنه يطلق عقدة اللسان.

كأن كل ما حصل لي لم يكفني، فقد دخل أحد السارقين منزلي وأخذ كل ما هو خفيف الحمل، غالي الثمن.. أساور زوجتي وخواتمها.. وكل ما هو ثمين. صرت أذهب كل يوم إلى المخفر لأسأل إن كانوا قد وجدوا السارق أم لا. وفي إحدى الأمسيات، وأنا في طريقي إلى المخفر، التقيت نفس الرجل، فقد كان هو على هواه، وأنا علتي كانت تكفيني. قال:

ـ إن بعض الناس يتذمرون من غيرهم لأنهم لا يستطيعون العيش لشدة الفاقة، يا سيدي.. ولكن ذنب من هذا؟.. ذنبهم طبعاً، فهم يحيون حياة

البذخ واللامبالاة والفوضى. على الإنسان أن ينظم أمور حياته.ماذا تقولون؟

ـ بعض الأحيان.. لا يبقى نظام ولا مظام..

ـ لا تقولوا هكذا يا سيدي.. فقد يعتبرونه دعاية سلبية.

رافقني حتى وصلنا المخفر ونحن نتحدث هكذا، وافترق عني هناك.

أحد رجال البوليس يعرفه قال لي:

ـ غريب أمر هذا الرجل.. بالأمس ربح جائزة (توتو) وقدرها سبع وعشرون ألف وخمسمائة ليرة.. عندما وقف دولاب الحظ على الرقم (١٣)!

كنا لا نزال نبحث عن السارق.. وإذا بالمنزل الذي ورثته عن أبي قد احترق بسبب انتقال النار إليه من البيت المجاور.. كما احترقت أربعة منازل متجاورة دفعة واحدة. ولم نستطع أن نخلص من الحريق سوى نرجيلة وأصيصاً. حملت زوجتي الأصيص، وأنا حملت النرجيلة.. ونزلنا إلى الشارع، وصرنا هكذا في العراء دون أي تعويض، فمنزلنا لم يكن مؤمناً.

بقينا ضيوفاً على بعض الأقرباء، كنت على الدوام أبحث عن بيت للإيجار.. دخلت بناء علقت على إحدى نوافذه يافطة كتب عليها (شقة للإيجار).. فدهشت عندما وجدت أن صاحب الشقة هو نفس الرجل الذي ابتليت به.

صار يتحدث ويتحدث:

ـ إن الله يكافئ العاملين.. يكفي أن يعمل الإنسان.. أليس كذلك يا سيدي؟ يجب أن يسلم الإنسان قلبه وإخلاصه لله تعالى. مثلاً.. انظر.. أنا. وغير حديثه وقال:

ـ كيف ترى السياسة في البلد؟

ـ أنا لا أفهم بالسياسة.. ولكنني أراها متشابكة إلى حد ما.

ـ ـ لا.. لا.. أبداً.. لم يصل هذا البلد في يوم من الأيام إلى مرحلة من الرفاه كالتي نعيشها اليوم، فالاستقرار والأمن مستتبان.. والحمد لله.. لكن لا يخلو الأمر من وجود بعض المخربين الذين يريدون التشكيك بما نحن عليه من بحبوحة.

كان على وشك أن يصرخ في وجهي.

وبما أننا لم نتوصل إلى اتفاق حول الإيجار.. غادرت المكان، ولدى خروجي من الباب قلت للبواب:

ـ ستمائة ليرة لثلاث غرف.. هذا كثير.

قال البواب:

ـ وأين الإنصاف مع هؤلاء يا سيدي؟ ألا يجب أن يكون قد جمع كل هذا المال من عرق جبينه حتى يكون عنده إنصاف ورحمة، وفي قلبه خوف من الله؟ لقد ربح نصف مليون ليرة من النصيب، فاشترى هذه البناية.

لم تنفك المصائب تتتالى تباعاً.. فلم تمض عدة أسابيع على سكني في (بدروم) ثلاثة غرف بأربعمائة ليرة.. حتى تم إغلاق المعمل الذي كنت أعمل فيه.. وبقيت دون عمل. وزيادة في سوء الحظ فقد حرمت من التعويض لأن صاحب المعمل قد أشهر إفلاسه.

ذات يوم، وبينما كنت أسير في أحد شوارع المدينة غارقاً في التفكير بوضعي، وإذا بسيارة خاصة تقف قربي فجأة، قال من في داخلها:

ـ تفضلوا.

إنه هو الرجل عينه. ركبت سيارته. لقد أصبح جسمه ممتلئاً.. زاد

شحمه وغلظت رقبته.. وبرز كرشه.. يقهقه مع كل كلمة أو كلمتين يقولهما:

ـ ما الفرق بين الإنسان والحيوان؟ هو هذا البطن.. الحيوان يأكل دائماً.. ولكن الإنسان ليس هكذا.. الإنسان يجب أن يعرف متى وماذا يعمل، ومتى لا يعمل.. يجب أن يعرف متى يأكل.. هناك بعض الناس (كلماتي بعيدة عن هنا) يأكلون كل ما تقع عليه أيديهم، وفي أي وقت.. فتصبح أمعاؤهم عاجزة عن العمل، وكذلك معدتهم وجهازهم البولي.. ثم يتضايقون في الشارع ويبدؤون البحث بإلحاح عن المراحيض.. هل هذه حضارة؟ ماذا تعمل؟ وفي أي عالم تعيش؟

ـ كل شيء حسن.

ـ كيف ترى مسيرة البلد في هذه الأيام؟

ـ ليس على ما يرام.

صرخ فجأة:

ـ عملتها ها..! أنت بالتأكيد من المعارضة.. إن الشمس لا تُمسد بالعسل.. لا.. إننا لم نلمس مثل هذا التطور طيلة تاريخنا.. إنه يفوق حد التصور.

ـ لو سمحت أريد أن أنزل.

نزلت من السيارة وتبعتها من الخلف.. وإذا بصديق يسلم علي:

ـ ما هذا..؟! أنت غارق في التفكير..! هل تعرفه..؟

ـ من؟

ـ صاحب الكاديلاك.. لقد ورث مبلغ أربعة ملايين ونصف ليرة.. يقال أن له عماً.. هو لا يعرفه.. حتى أنه لم يره طوال حياته.. توفي العم، ولم يكن له سوى ابن أخيه هذا، فورث جميع أمواله.

في نهاية المطاف أصبح أملي كله معلقاً بتاجر أحمل سنداً أو عقداً منه، فهو مدين لنا بثلاث عشرة ألف ليرة من ثمن العقار الذي باعته زوجتي. كنت سآخذ هذا المبلغ لأبدأ به عملاً يستر عائلتي المنكوبة.. عندما حان موعد الدفع، حملت السند وذهبت إلى التاجر.. والمهم أنه كان صاحب ناموس، فلو لم يكن العقد معي ما تأخر عن إعطائي حقي. غير أن الدفع لم يتم لأنه أشهر إفلاسه. وبهذا يكون العقد لا يساوي قرشاً واحداً، حتى أننا لم نستطع استرجاع العقار لأن دائنين غيرنا سبقونا وأخذوه.

تلك الليلة ذهبت إلى البار (الملهى) وحيداً ينهشني الضيق، ويقتلني التفكير. رأيت صاحبنا نفسه هناك. جاء إلى طاولتي.. طلبت له كأساً من العرق. قال:

ـ أراك مهموماً.

ـ ماذا حصل لك؟! الوضع سيئ جداً، فالضائقة الاقتصادية عصرت الناس عصراً، وشدت على رقابهم. هذا لن يستمر أبداً.. أفليس له نهاية؟

لم أقل سوى هذا الكلام.. نهض عن طاولتي وخرج من الملهى.

قال النادل الذي يعرفه:

ـ كان يأتي إلى المقهى على الدوام.. ولكنه بعد الزواج لا يأتي إلا لماماً.

سألته:

ـ وهل تزوج؟

ـ نعم لقد تزوج. رأسمال مثل هؤلاء الذي لا يدعِّم رجولتهم سواه، أما نحن فكأننا لسنا رجالاً.. لا أدري.. لقد تزوج الرجل من مليونيرة، وأصبح صاحب حقول قطن كبيرة.

لم أكد أخرج من الباب حتى تعلق بساعدي رجلان، واقتاداني إلى المخفر. وجدت الرجل هناك. لقد قدم شكوى بحقي. أشار بإصبعه إلي وقال للمفتش..

كان يشتكي مما قلت له في الملهى.. تلك الكلمات التي قالها هو أول ما جاء إلى بيتي. (أحسبني لم أسمع هذه الكلمات منك). كان في موقف قوي يجب أن يصدق كلامه. أما أنا فكنت في موقف لا أحد يصدقني.. لأن حذائي كان قد فتح فاه مثل فم التمساح..

○ ○ ○

فتاة هربت من استانبول

كان وجهه عابساً في الأيام الأخيرة.. يبدو أن شيئاً ما قد أغضبه. سألته عدة مرات:

ـ ما بك؟ ماذا جرى لك؟

ظل ساكتاً.. غير أنه نطق في أحد الأيام وقال:

ـ كل الأزمات التي تصيبنا والضيق الذي نعاني منه سببهما المراحيض. فإذا لم تحل هذه المشكلة لن نتقدم مطلقاً.. وسنبقى متخلفين. أفهمت؟

الحقيقة، لم أفهم شيئاً.. سمعت كثيراً عن ندوات فكرية تدور حول التنمية وتقدم البلد.. في الباصات والقطارات والسفن.. كانوا يقولون إن تقدم البلد لا يتم إلا بعد محاسبة الباعة والعاملين في السوق السوداء، ويجب أن يعلقوا على المشانق كالعناقيد في الساحات. وبعضهم كان يربطه بالسياحة.. والآخر بالثروة السمكية في بحر مرمرة.. إلى ما هنالك.. أما أن تعزى مشكلة البلد وعدم تقدمه إلى المراحيض، فهذا ما لم أسمع به مطلقاً.

ـ وما علاقة تقدم أي بلد بالمراحيض؟

ـ إنها علاقة كبيرة جداً.. يجب أن تحل مشكلة المراحيض العامة قبل كل شيء في أي بلد.. بعدها تحل بقية المشاكل والعلل.

ـ طيب.. وكيف توصلت إلى هذه القناعة؟

ـ توصلت إلى هذه القناعة لأنني عانيت من هذا الأمر شخصياً. حدث ذلك في العام الماضي.. وفي مثل هذا الشهر جاء في الصفحة الثامنة من

جريدة فرنسية أسبوعية، وهي صفحة خاصة بالإعلانات، أن بعض المكاتب تعلن عن قبولها رسائل تعارف من أجل الصداقة أو الزواج. وسوس الشيطان في رأسي، قلت يجب أن أرسل رسالة إلى إحدى هذه المكاتب. قرأت الإعلانات مرة ومرتين وعدة مرات. بعضها إعلانات تقتضي الاتصال مباشرة بالمكاتب نفسها، وبعضها إعلانات خاصة من رجال أو نساء يبحثون عن أصدقاء، أو زواج بشكل مباشر ودون ذكر العناوين الخاصة، وإنما عن طريق أحد المكاتب المدونة عناوينها في الصفحة. إعلان أحد المكاتب جذب انتباهي فقد جاء على النحو التالي:

«مؤسستنا تفتخر بماضيها الجميل والنظيف طوال أربعة وسبعين عاماً، كما أننا ساعدنا عشرات الآلف من الناس على إيجاد أصدقاء تم التواصل بينهم عن طريق المراسلة والمقابلات، ولقد ساهمنا أيضاً في إقامة علاقات عائلية وتشكيل جمعيات إنسانية. فإذا ما كتبتم لنا عن طباعكم وأشكالكم، وكل التفصيلات التي تعرفنا على شخصياتكم، والشخص الذي تريدون مراسلته أو صداقته أو الزواج منه، وطبعه وشكله.. فإن مؤسستنا ستتشرف بتقديم هذه الخدمة لكم».

إلى جانب إعلانات المكاتب، كانت هناك إعلانات أخرى خاصة كالتالي:

«العمر ستة وعشرون عاماً، شقراء، فتاة عصرية تريد إقامة صداقة مع شاب شرقي.. النمرة ٧٨..(...) الاتصال مع هذا المكتب».

«العمر (٣١)، الطول (١٧٢)، العينان زرقاوان، أرملة.. المراسلة بالألمانية (...) عن طريق هذا المكتب».

بعضهم يطلب معلومات عن دول أخرى، وبعضهم يريد طوابع، والبعض يريد تبادل بطاقات المعايدة..

راسلت أحد المكاتب وعرفت عن نفسي:

«عمري خمسة وأربعون عاماً.. أحمل الشهادة الثانوية، طولي (١٥٥)سم، ووزني (٧٦)كغ، أسمر اللون، أسود الشعر، أشهل العينين، متزن، أعصابي هادئة، أريد مراسلة فتيات من (٢٠ ـ ٣٠) عاماً، أتبادل معهن معلومات عن الفراشات والأسماك باللغة الإنكليزية».

جاءني الجواب من الجريدة يطلبون مني مائة فرنك ليتسنى لهم نشر رسالتي. رجوت أحد الأصدقاء في باريس كي يرسل إلى المكتب المبلغ المطلوب. وأشعرت بالدفع، وخلال فترة محددة، استلمت ثلاث رسائل من ثلاث فتيات: رسالة إحداهن أربع صفحات بالآلة الكاتبة، زودتني فيها بمعلومات عن الفراشات الموجودة على الساحل الغربي لفرنسا، وفي نهاية رسالتها، تعتذر عن عدم إرسالها معلومات عن الأسماك لعدم إلمامها بشيء عنها.

والرسالة الثانية كانت تحمل معلومات عن الأسماك، جمعتها الفتاة من كتيب صغير، وطلبت مني بالمقابل معلومات عن الأسماك الموجودة عندنا.

أما الرسالة الثالثة فكانت غريبة جداً..! لنقرأها معاً:

«هل تعتقد أن الفتيات اللواتي يبلغن من العمر (٢٠ ـ ٣٠) عاماً عندهن معلومات كافية عن الفراشات والأسماك أكثر منك، وخاصة إذا كن شقراوات؟! كما أني لم أفهم السبب الذي دعاك إلى طلب اللون والعمر، وما علاقة ذلك بمعلومات عن الأسماك والفراشات؟! ألا يعجبك مثلاً مادلين التي تبلغ اثنين وثلاثين عاماً، حنطية اللون؟»

قلت لصديقي الذي تحملت حديثه بصبر حتى هذه اللحظة:

ـ لم أفهم ما علاقة كل ما سمعناه منك حتى الآن بالمرحاض وتقدم البلد..!

قال:

ـ اصبر يا صديقي.. ستعرف كل شيء. الفتاة التي كتبت لي الرسالة

الأولى وتتحدث فيها عن الفراشات دون الأسماك، لم تتوفر فيها المواصفات المطلوبة التي أريدها. والثانية كذلك لأنها كتبت فقط عن الأسماك. أما الثالثة.. فكانت المرأة التي أبحث عنها. تراسلنا شهوراً طويلة.. ورسائلنا تضمنت أشياء أخرى كثيرة غير الفراشات والأسماك. وكبرت صداقتنا كثيراً بالمراسلة.. طلبت صورتها، وهي الأخرى طلبت صورتي، حتى ملأت ألبوماً من صورها.. صور كثيرة، صغيرة وكبيرة.. وجهها.. جسدها.. بثيابها و«مايوهها».. عارية ونصف عارية..

في نهاية المطاف، أحببنا بعضنا.. كتبت الفتاة: «تعال إلى باريس». كيف أستطيع الذهاب إلى باريس وأنا موظف صغير ينتظر ثلاثة أو أربعة قروش في نهاية الشهر..؟! أخبرتها عن حالي بالتفصيل وقلت لها: «تعالي أنت». رضي الله عنها لأنها تتمتع بقلب طيب.. ركبت الطائرة وجاءت إلى هنا. لما رأيتها دهشت لجمالها.. فتاة رائعة بكل ما في الكلمة من معنى، إنها أجمل من صورها بكثير. احترت في أمري.. لو أخذتها إلى بيتنا البسيط، يكون عبئاً علي وظلماً للفتاة. وأهلي، ماذا سيقولون؟ وكيف سيكون موقفي معهم؟ المهم شرحت لها كل شيء بإسهاب.. أطلعتها على كل شيء في التاكسي وجئت بها إلى منزلنا الكائن في «مولانا كابي» وهو عبارة عن غرفة ونصف. الغرفة الصغيرة قدمناها للفتاة، وتجمَّع أهل البيت كلهم في الغرفة الأخرى.

غير معقول طيبة هذه الفتاة..! المهم أننا قررنا الزواج.. وليس معي مال. قالت: «أنا معي مال». غير أن أهل البيت لم يستطيعوا الوقوف على الحياد، قالوا: «قبل كل شيء، يجب أن تسلم» ورضيت الفتاة بذلك.. يا أخي هذه الفتاة ليست بشراً.. إنها ملاك هبط من السماء!

أخذت إجازة أسبوع يتسنى لي خلاله إطلاعها على مدينة استانبول، وخاصة أن منزلنا غير صالح للجلوس فيه على الدوام. كنا نخرج منذ

الصباح ولا نعود إلا بعد منتصف الليل. في أحد الأيام خرجنا من البيت باكراً، فدخلنا دكان بائع الحليب، وشربت كأسي حليب.

وفي الطريق رأت مقهى قديماً حوله حديقة، قالت: «آمان ما أجمله». جلسنا فيه وشربنا كأسين من الشاي ثم زرنا متحف (أركولوجي).. كان النهار قد انتصف، وشعرت أنها قد جاعت، ولم تشرب سوى كأس من (العيران). ثم انتقلنا لزيارة كنيسة آيا صوفيا، إلا أن التعب لم يرحمها. ولدى خروجنا قالت: «بالله عليك، أريد كأساً من العصير». قدمت لها كأساً من شراب الفيشنا وآخر من عصير العنب. ولما وصلنا حي (السركجي) قالت: «عفواً، أريد الذهاب إلى المرحاض».

ماذا؟ هل تقولين التواليت..؟ (ولك) أين أجد المرحاض؟! كان هنا سابقاً، وأظن أنه تواليت للعموم. ذهبنا مكانه، فلم نجد أثراً له.

المرحاض العمومي الكبير اختفى تماماً.. قال أحدهم: «لقد استملكوه وهدموه ولك أخي». ركضنا إلى المحطة المقابلة لنا، واتجهنا صوب الباب الذي كتب فوقه (W.C) والمخصص للسيدات، وجدناه مقفلاً، وقد دقت عليه قطعة خشب كي لا يفتح. لقد تضايقت المسكينة تماماً، واحمر وجهها كثيراً، وكانت تمسك بطنها بيديها.. ركضنا نحو مرحاض الرجال.. لقد وضعوا على بابه خشبة أيضاً كتب عليها (للصيانة).. وكل مرة كانت مادلين تصرخ فيها (آمان) كنت أزداد اضطراباً وحدة، ولك.. يجب أن نجد مرحاضاً.. في هذه الأطراف تَوتَو..!

ـ عفواً، ألا يوجد مرحاض في هذه المنطقة؟

ـ يوجد مرحاض عند رأس جسر (أمين أوتو).

نعم.. هكذا..

مادلين:

ـ لا أستطيع المشي..

- بالله عليك يا مادلين.

مسكينة، لقد التصق بطنها بركبتها وهي تتأوه. وضعتها في تاكسي، وانطلقنا باتجاه أمين (أونو).. (آمان) أين المرحاض هنا ولك عمي؟ لقد هدموه منذ وقت طويل، وكنا نزلنا من السيارة.. ما العمل؟؟

قالت مادلين:

- ألا يوجد مراحيض في المرافئ أو محطات القطار أو المحطات الأخرى؟

أصبحت في حيرة واضطراب شديدين.. لقد شل تفكيري.. يجب أن نجد مرحاضاً.

- اذهب بنا إلى قرة كوي يا أخي.

ومادلين تصرخ:

- أكاد أنفجر.

- اصبري بعض الشيء يا روحي.. تحملي قليلاً.. وصلنا ميناء قرة كوي.

- هيا يا مادلين..

وصرنا نتطلع ذات اليمين وذات الشمال.. فلا أثر للمراحيض. سألت أحد الموظفين:

- مرحاض يا أخي؟

- لا يوجد..

- حسن.. وأنتم ماذا تفعلون؟

- وما دخلك أنت؟

صحيح فالأمر لا يخصني.. هيا مادلين، هيا يا روحي.

ـ لا قدرة لي على التحرك مطلقاً.

أوشكت أن تنفجر.. وأنا لم يبق عندي ذرة من العقل. وكان هناك مجموعة من الخانات.. قلت: لندخل إليها.. دفعتها إلى باب أحدها، لكنها لم تستطع صعود الدرج. قال عامل المصعد:

ـ انتظروا.. لن يصعد قبل أن يكون فيه أربعة أشخاص.. انتظرنا طويلاً ولم يأت أحد.. والفتاة تتلوى.. آه يا ضنايا.. أكاد أنفجر..

ـ توقفي يا مادلين.. يا حياتي.. الآن يا روحي الآن..

وصرخت أما من شخص أو ابن آدم يريد الصعود أو يركب هذا المصعد؟ سأجن..! المهم جاء شخصان وركبنا المصعد. سألنا العامل:

ـ أي طابق؟

قلت:

ـ شرط أن يكون حديثاً.. الطابق الرابع.

في الطابق الرابع.. وفي نهاية الممشى (الكوريدور).. والحمد لله، وجدت المرحاض.. إلا أنه كان مقفلاً.. أمن المعقول أن يقفل مرحاض ولك أخي؟

سألت الصبي القهواتي، عن سبب إقفاله. قال: كل نزيل معه مفتاح للمرحاض.. يفتحه عند قضاء حاجته.

جلست مادلين القرفصاء أمام باب المرحاض، وكأن الدورة الشهرية قد أتتها.

ـ هيا قومي يا حبيبتي مادلين.

هبطت المسكينة الدرج تتلوى كالأفعى وهي تتمسك بالدرابزين.. تمام هناك مرحاض عام في غلطة سراي.. ركبنا سيارة أجرة، وصرت أمسح العرق المتصبب من جبين المسكينة المتألمة..

- يا روحي.. يا ضنايا.. لقد وصلنا.. الآن.. الآن..

كانت مادلين قد فقدت وعيها، وأصبحت نصف مغمى عليها.. نزلنا من السيارة في غلطة سراي.. ودخلنا المرحاض العمومي.

- هيا يا ضناي.. هذا هو المرحاض.. هيا ادخلي.

- آ.. آ.. هنا.

- انظر، هذا المكان للرجال فقط.

- ليكن يا مادلين.. فالضرورة لها أحكام.

- لا أقدر.. أمام الجميع..

استانبول العملاقة...!! تذكرت مباشرة المرحاض العام في حي التقسيم، لكن السيارات تعجز عن صعود تلك الطريق، أمسكتها من ساعدها.

- هيا يا ضنايا.. هيا يا حبيبتي.. تعالي.. لم يبق إلا القليل.. اصبري بعض الشيء.. ونصل المرحاض هيا.

أرخت بكل ثقلها على كتفي.. وأفلتت من يدي.. ودخلت باب إحدى البنايات. كان المسكينة عاجزة عن توسيع خطواتها، فتمالكت نفسها. صعدت الدرج بسرعة. كان الداخل مظلماً.. لم أر ما فعلته.. لأنني بقيت على الباب.. لكنني شاهدت المياه تتجه نحو الباب ومنه إلى الشارع ثم الرصيف. أوه لقد ارتاحت المسكينة!! اتجهت صوبها، فوجدتها جالسة على إحدى درجات السلم، وقد أسندت رأسها إلى الدرابزين وهي تجهش في البكاء.

قلت:

- حمداً لله على السلامة.. لقد ارتحت يا حياتي.

أمسكتها من يدها.. أنهضتها وخرجنا ونحن نخبط في الماء. ولم

تتمالك مادلين نفسها.. كانت تبكي على الدوام.

ـ ابكي يا حبيتي ابكي.. لعل البكاء يريحك.. ابكي..

كانت لا تتكلم أبداً.. وصلنا إلى البيت.. وبقيت صامتة.. لا تفتح فاها.

في اليوم التالي.. حملت حقيبتها.. وسافرت.. ولم أسمع عن أحوالها شيئاً.

بعد مدة استلمت رسالة تقول فيها: «إن بلدكم جميل جداً.. وأنتم جميعاً أناس طيبون، فقط لو كان عندكم مراحيض!».

نعم.. نعم يا سيدي المرحاض قبل كل شيء.. إذا لم تحل مشكلة المراحيض، فهذا البلد لن يتقدم أبداً.. هل فهمت؟؟

نعم.. فهمت تماماً.

○ ○ ○

وماذا بعد الباشا؟

عام (١٩٣٨) التقى أربعون شخصاً يعرفون بعضهم. لقد اجتمعوا في صالون كبير ليتحدثوا في موضوعٍ هام جداً، لكن أحداً منهم لم يتجاسر على فتح هذا الموضوع الهام جداً.

ظلوا طويلاً يتحدثون عن أشياء تافهة، ثم عن السياسة الداخلية والخارجية. وفي النهاية.. قال أكبرهم سناً:

ـ أيها الأخوة.. كلنا نعلم.. أن ثمة موضوعاً مهماً ومشكلة كبيرة أمامنا. ومهما طال الزمن لا بد أن يأتي يوم نعلم فيه ونجد فيه أنفسنا وجهاً لوجه أمام هذه المشكلة.

بالتأكيد لقد فهم الآخرون وعددهم تسعة وثلاثون شخصاً ما يقصده صاحبهم، ولكي يقطعوا عليه الطريق قبل أن يفضي بما يريد قوله، انبرى أحدهم وقال:

ـ نعم.. هذا عين الصواب، وعلينا اتخاذ بعض الاحتياطات منذ الآن، لأن ثمة أحاديث قد وصلتنا بهذا الشأن.

ـ بما أن الباشا يرأسنا، فالأمور ستكون على غاية ما يرام.

ـ أدامه الله علينا..

ـ لقد أنهينا هذا الموقف، وفي هذا الوقت العصيب بواسطة الباشا.

ـ نعم.

ـ ولكن البشر فانون..

ـ والباشا مسن جداً..

ـ وإذا ما تم أمر الله على الباشا (الموت) ذات يوم.. ماذا سنفعل؟

ـ نعم هذا مهم جداً.

ـ يجب أن نفكر منذ الآن.. ونتخذ بعض الاحتياطات عسى ولعل..

استمر الحديث حتى منتصف الليل.. أما الاجتماع فقد انتهى كما بدأ ولم يستطيعوا إيجاد حل لمشكلتهم. وكان الأعضاء يسألون بعضهم نفس السؤال قبل أن يتفرقوا:

ـ ماذا سنفعل بعد الباشا؟

وفي عام (١٩٣٩) كانوا أيضاً أربعين شخصاً.. ولكن الرجل العجوز الذي افتتح جلسة العام الماضي.. كان قد انتقل إلى رحمة الله. وهذا يعني أنه بقي من القدامى تسعة وثلاثون شخصاً، فاضطروا إلى قبول شخص جديد، وعادوا أربعين. وكانوا عاجزين عن فتح الموضوع المهم جداً والذي كان يدور في خلد كل واحد منهم. بعد أن تحدثوا عن الأنهار والهضاب والسياسة الداخلية والخارجية قال أكثرهم تجربة:

ـ أيها الأخوة.. إن العالم كله على أبواب حرب كبرى.. وبالتأكيد ستتأثر تركيا من هذه الحرب. وسيبقى الخطر بعيداً عنا ما دام الباشا على رأسنا.

سمع أصواتاً هنا وهناك:

ـ أدامه الله لنا.

ـ هذا دعاؤنا.

ـ نعم.. ولكن ماذا سنفعل؟؟ الباشا مسنٌّ جداً.. والموت حق على البشر.

ـ عندما يأتي يوم ويغمض فيه الباشا عينيه، ماذا سنفعل؟

ـ هذا صحيح جداً.. يجب أن نفكر بهذا منذ الآن.. ونأخذ الاحتياطات والتدابير اللازمة.

ـ حتى أننا تأخرنا كثيراً.

انتصف الليل.. وما زالوا يتحدثون في نفس الموضوع. وافترقوا دون أن يتوصلوا إلى قرار، وهم يسألون بعضهم نفس السؤال:

ـ ماذا سنفعل بعد الباشا؟

وعام (١٩٤٢).. كانوا أيضاً أربعين شخصاً، ويعرفون بعضهم جيداً. بين الاجتماع الأخير واليوم، مات منهم اثنان، وعينوا بدلاً عنهما اثنين، وعادوا فأصبحوا أربعين شخصاً.

أصبح عدد الموتى منذ الاجتماع الأول حتى اليوم ثلاثة، ولا زال الموضوع المطروح هو نفسه. ولم يتجاسر أي منهم على طرحه، لأن الخوض فيه ليس بالأمر السهل، وخاصة أنه يشغل بال الجميع كالمرض العضال، فتحولوا عنه بالحديث عن الهواء والماء.. ومن ثم السياسة الداخلية والخارجية.. وأصبح الجو مشحوناً قبل التطرق إلى الموضوع الذي يهمهم جميعاً. وأصبح الوقت متأخراً جداً.. وإذا بأحد الأعضاء القدامى يقول:

ـ أيها الأخوة.. لو تسمحون لي.. سأطرح موضوعاً للمناقشة. يصعب عليكم جميعاً طرحه، إنه الحقيقة التي نشعر بها جميعنا ونتلمسها دائماً.

كان الجميع قد فهموه.. ثمة أصوات جاءت:

ـ لنتحدث.. لنتحدث..

ـ جميعنا يعلم أن الباشا مسنٌّ جداً.. وأننا نعيش أياماً عصيبة، فالحرب دامية ومعقدة جداً، ولا خوف علينا حتى من وجود كل هذه

الأخطار المحدقة بنا مادام الباشا يرأسنا.. ولكن..

- نعم.. وإذا ما جاء يوم...

- وإذا ما انتقل الباشا إلى ديار الأبدية..

- ليؤخر الله هذا الانتقال.

- وكلنا نعلم أن هذه حتمية.. علينا أن نفكر بما سنفعله بعد انتقال الباشا.

- يجب أن نفكر..

- ماذا سيحدث بعد الباشا.؟

انفض الاجتماع مع بزوغ الفجر دون قرار، وظل يسأل بعضهم بعضاً نفس السؤال:

- ماذا سيحدث بعد الباشا؟

عام (١٩٤٥) وبعد مرور سبع سنوات على الاجتماع الأول، كان سبعة من الأربعين قد توفوا، وبقي ثلاثة وثلاثون شخصاً. لكن العدد بقي أربعين لأنهم كانوا يملؤون الشواغر بالبديل فوراً. التأم الاجتماع منذ الصباح الباكر على أمل اتخاذ قرارات جدية هامة وقطعية تتعلق بمصلحة البلد ومستقبله. وكالعادة كان الدخول بالموضوع صعباً جداً عليهم، وعادوا للحديث عن هذا وذاك.. حتى أصبح الجو يسمح بطرح الموضوع، تحدث رئيس الاجتماع وكان مضطرباً جداً والعرق يتصبب منه:

- أيها الأخوة.. هنالك موضوع هام جداً أود طرحه الآن أمامكم.

لكن الجميع كانوا يعرفون هذا الموضوع.

- لقد انتهت الحرب العالمية أيها الأخوة.. وتخلصنا منها ومن آثارها بفضل بعد نظر وحنكة سيادة الباشا.

ـ أدامه الله لنا.

ـ والآن.. ندخل مرحلة ما بعد الحرب.. إنها مرحلة صعبة جداً.. وما نخشاه هو ضياع الباشا في مثل هذه المرحلة.. ماذا سيحل بنا؟

نعم.. الموت أمر من الله..

ـ ماذا سيحدث بعد الباشا؟

ـ ماذا سنفعل؟

ـ هذا صحيح جداً.. يجب أن نحتاط لهذا الأمر بقرار أيها الأخوة..

وعندما كانوا يفترقون قبل اتخاذ أي قرار بهذا الشأن.. كانوا يتساءلون كعادتهم:

ـ ماذا سيكون بعد الباشا؟

عام (١٩٤٩) بقي من الأعضاء القدامى ثمانية وعشرون شخصاً، أي بعد مضي أحد عشر عاماً على أول اجتماع. لقد مات منهم أحد عشر شخصاً. وكالعادة وكما في كل مرة كانوا يملؤون الشواغر ليظل العدد أربعين شخصاً. بعد أن أطال رئيس الاجتماع الحديث قال:

ـ وكما تعرفون أيها الأخوة، اليوم ندخل مرحلة التعددية الحزبية. وإن لهذه المرحلة من الديمقراطية صعوبتها الخاصة.. لو ظل الباشا رئيسنا كما في كل مرحلة، نستطيع التغلب على كل هذه المصاعب.

ـ هذا صحيح جداً.. ولكن الإنسان ليس خالداً.

ـ أنا أيضاً رغبت بطرح هذا الموضوع.. ماذا سنفعل بعد الباشا؟

ـ ماذا سيحدث بعد الباشا؟؟

انفض الاجتماع في وقت متأخر، والجميع يسألون بعضهم نفس السؤال:

ـ ماذا سيصير بعد الباشا؟؟

عام (١٩٥٠).. وصل عدد المتوفين منذ عام (١٩٣٨) أي منذ الاجتماع الأول أربعة عشر شخصاً.. أما الأحياء الباقون كانوا ستة وعشرين..

كانت الصحف تتحدث عن المتوفى فتقول: «إنه رجل لا يستطيع أحد أن يملأ مكانه» ومع هذا كانوا يقبلون البديل في كل مرة.

بدأ رئيس الاجتماع الحديث.. وظل يلف ويدور حتى تطرق إلى الموضوع:

ـ أيها الأخوة.. الآن سأحصل على السعادة.. لما قال ذلك فهم الحضور قصده، فهم لم يعتادوا سوى سعادة واحدة:

ـ لقد خسر حزبنا في الانتخابات، وأقصي عن السلطة أيها الأخوة.. وأمامنا مرحلة صعبة جداً، وهي مرحلة المعارضة، والباشا على الدوام هو رئيسنا، ولكنه ليس دائماً.

ارتفعت الأصوات:

ـ أمدَّ الله في عمره.

ـ هذا صحيح.. لذا فنحن مجبرون على اتخاذ بعض الاحتياطات والتدابير اللازمة لمرحلة ما بعد الباشا.

عام (١٩٥٥).. لم يبق سوى ثمانية عشر شخصاً من أصل الأعضاء القدامى، فقد مات منهم اثنان وعشرون شخصاً. اجتمعوا كي يضعوا خطة لمناقشة الحكومة الجديدة.. ويعطوا صورة واضحة وجدية للمعارضة، وكانوا يسألون بعضهم نفس السؤال:

ـ ولك.. ماذا سيصيبنا بعد الباشا؟

عام (١٩٥٨) لم يبق من الأعضاء سوى اثني عشر شخصاً فقط..

أحدهم كان مصاباً بالربو، والثاني بمرض آخر وثلاثة آخرون كانوا يعانون من السكري.

ـ الحكم الديكتاتوري يرتكب أخطاء كثيرة أيها الأخوة.. وسيادة الباشا بالتأكيد سيجد حلاً لهذه المشكلة.. ولكن يجب أن نعرف بالرغم من صعوبة الأمر ومأساويته أن الباشا سيموت ذات يوم..

ـ ماذا نعمل بعد الباشا أيها الأخوة.

عام (١٩٦٠) بلغ عدد الأموات من الأعضاء القدامى أربعة وثلاثون، ولم يبق سوى ستة أشخاص، وكالعادة كانت الشواغر تملأ حتى يستقر العدد على الأربعين. قال رئيس الجلسة:

ـ أيها الأخوة، لقد استولى الجيش على السلطة.. ولا بد أن يفكر الباشا بحل لهذه المرحلة الجديدة، ولكن..

ـ لو أزيح الباشا عن الرئاسة..

ـ ماذا سنفعل؟

ـ ماذا سنعمل بعد الباشا؟؟

عام (١٩٦٥) بقي من الأقدمين ثلاثة أشخاص فقط: الأول غزير الإدرار ولا يقوى على إيقافه، والثاني يسيل لعابه باستمرار.. والثالث ينام على الدوام والآخرون الذين ملؤوا الشواغر كانوا كأنهم موتى.

عام (١٩٦٨).. بقي اثنان من أعضاء الاجتماع الأول، لقد مضى عليهم ثلاثون عاماً، وأصبحا مسنين.. أنهكهما التعب، عاجزين إلى أبعد الحدود، حرمتهما صروف الأيام السمع والبصر.

كان رئيس الاجتماع يتعمد إطالة الاجتماع، لأنه كان عاجزاً عن الدخول في لب الموضوع. وفي نهاية الأمر قال والعرق يتصبب منه:

ـ أخوتي الأعزاء.. وكما هو معلوم عند الجميع..

ـ نعم.. نعم.. نعلم..

ـ ماذا سيحل بنا بعد الباشا..؟ هناك مجموعات ومراكز قوى كثيرة، والمعارضة بدأت تستعر الآن.. ماذا سنفعل بعد الباشا..؟ يجب أن نأخذ بعض الاحتياطات اللازمة.. كي لا نترك مجالاً للاضطرابات بعده.

ـ نعم.. يجب أن لا نختلف فيما بيننا.. لو بقي الباشا حياً، لكان الأمر سهلاً جداً.. ولكن سيأتي يوم..

ـ ماذا سيحدث بعد الباشا؟

مرحلة ما بعد عام (١٩٦٩) مرت كسواها. وفي عام (١٩٧١) وكان الأربعون شخصاً سيجتمعون.. ولم يبق من الأعضاء القدامى سوى شخص واحد فقط.. عجوز مثل (بين بون) حضر الاجتماع بصعوبة.. حمله شخصان وأدخلاه القاعة بصعوبة وأجلسوه في مكانه.. غير عالم بأزرار بنطاله المفكوكة، إذ لا فرق عنده بعد الآن.. أبَقِي مفتوحاً أو مغلقاً.. أثناء المناقشات كان رأسه مستنداً على صدره، صار يغط في نومه، وكان الآخرون يكنون له احتراماً كبيراً، فهو أثر تاريخي ثمين. وكانوا يعرفون أنه عاجز عن تحمل أية مسؤولية.

بدأ رئيس الجلسة بالكلام.. وكان مضطرباً جداً.. فهو يجهل كيف سيطرق باب الموضوع.. وصار كالعادة يتحدث عن الأنهار والجبال، والمياه والهواء.. وعن السياسة الداخلية والخارجية.. وبعد أن تحدث مطولاً.. كان سيقول:

ـ الأخوة المحترمون.. إنها لمشكلة كبيرة تعترض قضايا بلدنا، فإذا قلنا إن الموت هو توأم الإنسان، فهذا قضاء لا مرد لحكمه، ويجب أن نفكر من الآن في حال أفول نجم الباشا عن دولتنا وعن هذه الدنيا.. ماذا

سنفعل..؟ ماذا سيكون حالنا..؟

لنحاول بعد الآن أن نروي الأحداث القادمة وكأننا شهدناها وعشناها:

وما كاد رئيس الجلسة ينهي كلامه، رفع العجوز التاريخي رأسه عن صدره وطلب الكلام.. وبمساعدة شخصين ورجلاه تزحفان على الأرض، صعد المنصة.. ونظر إلى الموجودين في الصالون، ولكنه لم يتمكن من رؤية أحد:

ـ يا أولاد.. نسأل على الدوام.. ماذا سيكون بعد الباشا؟ وماذا سنفعل بعد الباشا..؟ وعندما بدأنا بهذه التساؤلات.. كان بعضكم أطفالاً، وآخرون لم يكونوا قد ولدوا بعد! منذ أربعين عاماً ونحن نسأل هذا السؤال، وما زلنا نسأل.. ولم يبق من الأربعين شخصاً سواي.. إذا حسبتم أنني باق، فأنا لا أعتقد أنني سأظل حياً للاجتماع القادم. والذين سألوا قبلكم: «ماذا سيكون بعد الباشا..؟» كلهم انتقلوا من هذه الدنيا، ومازال الباشا حياً يرزق، ولا يسأل نفسه هذا السؤال: «ماذا سيكون الحال بعد ذهاب هؤلاء الأشخاص؟ وماذا سأفعل؟» الباشا.. إنسان.. إذا ذكرت الصحف أنه رزق ولداً.. فلن أحتار أبداً.. بل أقول: «لقد تزوج ثانية وصار له ولد». هذا الباشا الذي تعرفونه.. كما ودَّع زملائي في الماضي.. سيودعني، ويودعكم ويرسلكم دون عودة.. ولهذا السبب، اتركوا هذا السؤال: «ماذا سيحدث بعد الباشا؟» قولوا: ماذا سيحدث بعدنا..؟ لنفكر بهذا بعد الآن..!

قال أحد الموجودين:

ـ وإذا ما مات في أحد الأيام؟؟

انتهر الشيخ المتكلم الذي سمع صوته بصعوبة قائلاً:

ـ ولك عيني هذا لا يموت.. لا يموت أبداً..! وإذا مات، فإنه لن يخدع أحداً بعد الآن.

عندما سينتهي الاجتماع، سيسألون بعضهم نفس السؤال:

ـ ماذا سنفعل بعد الباشا؟

○ ○ ○

سكير كسر مرآة البار

ـ مرحباً أيها السيد.

ـ ...!

ـ مراحب أيها السيد.

ـ مرحباً يا سيدي.

ـ عفواً.. أتمنى أن لا أكون قد أزعجتك.

ـ أستغفر الله.. أنا لا أتذكرك.. من أين نعرف بعضنا يا ترى؟

ـ لا نعرف بعضنا.. ولكننا كما ترى تعارفنا هنا.

ـ نعم.. نعم.. كنت جالساً وحدك تشرب مثلي ثم قلت: لنتعارف!

ـ ...!

ـ حتى لو كنا لا نعرف بعضنا.. هل تسمحون لي أن أرفع القدح وأشرب نخبك؟

ـ على شرفك..

ـ أنا لا أحب الشرب بمفردي.. على المرء أن يشرب مع أصدقائه أو زوجته.

ـ أنا الآخر.. لا أحب الازدحام وكثرة الناس. أحب دائماً أن أبقى وحيداً.

ـ إن الوحدانية من صفات الله يا سيدي؟

ـ وأنا أعترف بالواحد الكبير والواحد الصغير.

ـ هيا نشرب إذن.. على شرفك (نخبك).

ـ أدامك الله.. على شرفك (نخبك)

ـ أرجوك.. هل تشرفني وتقبل دعوتي إياك إلى طاولتي.

ـ أشكرك كثيراً.. وأتمنى أن لا أكون قد أزعجتك.

ـ إذن.. هل تسمحون لي بالبقاء على طاولتكم.

ـ أنتم تعرفون..

ـ شكراً جزيلاً، عرفت أنك ستدعوني إلى طاولتك، كيف حالكم يا سيدي؟

ـ وكيف سيكون؟! إنه كما ترى.. بقاء الإنسان بالصحة والعافية.. الحال ليس على ما يرام.

ـ يا.. يا.. واه.. واه.. لنترك الهموم جانباً، ولنشرب على شرفك (نخبك).

ـ ميرسي.. وكيف حالكم أنتم؟

ـ أنا بخير.. وكما في كل مرة.. ولأنك سألتني.. أصبحت أفضل حالاً.

ـ إذاً.. هيا لنشرب.. لأنكم أحسن حالاً.

ـ أدامك الله.. أنا أحب هذا الملهى الصغير.

ـ أما أنا فلا أحبه أبداً.

ـ إذاً أنتم تحبون الكازينوهات الكبيرة.

ـ لا.. لا..

ـ غريب جداً.. إذاً لماذا تأتي إلى هنا.

ـ لا أدري.. ربما لأشرب.. هيا لنشرب.

ـ على شرفك.. (نخبك).

ـ على شرفك.. (نخبك).

ـ عذراً.. أتسمح لي بسؤال؟ يبدو أنك حزين جداً.. ما سبب ذلك يا ترى؟

ـ ليس سبباً واحداً، ولا عشرة أسباب.. إنها أسباب كثيرة.. فقدت أمي.. لقد ماتت المسكينة.

ـ نعم.. عظم الله أجركم.. الآن فهمت سبب حزنك.. هيا لنشرب.. ومتى ماتت؟

ـ تقريباً منذ خمسة وأربعين عاماً.. وأنا في الثالثة عشرة من عمري.

ـ لقد مر وقت طويل.

ـ بالنسبة لي.. كأنه البارحة.

ـ لا تبك.. لا أحد يموت مع الميت.. ماذا سنفعل..؟ الأمر خارج عن إرادتنا. أنا أيضاً أمي ماتت من خمسة وأربعين عاماً.. وكان عمري ثلاثة عشر عاماً.

ـ وكأنك لم تحزن لوفاة أمك..!

ـ لا يا روحي، طبعاً حزنت عليها كثيراً.. ولكن ما العمل؟ الأقدار بيد الله.. أحاول نسيانها.. وهذا من طبيعة الإنسان.

ـ أنا أحاول تذكرها.

ـ يجب أن نعيش..

ـ هل ستتبدل نواميس الطبيعة إذا عشنا.

ـ جيد.. وإذا متنا.. هل تتغير الأمور؟ بكل الأحوال سنموت.. فلماذا نحن على عجلة من أمرنا.

ـ أراك متفائلاً.

ـ الدنيا حلوة.. ما سبب تشاؤمك؟

ـ لأن كل شيء قبيح..

ـ حاول جاهداً تجنب سماع أو رؤية ما لا يعجبك.. هيا لنشرب.

ـ شكراً جزيلاً.

ـ من أجل صداقتنا.. وصداقتك..

ـ انس الأمر يا أخي..

ـ الموضوع خارج عن إرادتي، فألمي ليس واحداً.. لقد مات أبي أيضاً.

ـ يا يا يا.. واه.. واه.. عظم الله أجركم.. متى توفي رحمه الله..؟ منذ وقت قصير أليس كذلك؟

ـ نعم يمكن أن تعتبره كذلك. مسكين لم يستطع التخلص من السرطان الذي فتك بجسمه وأودى بحياته.

ـ لا تبك يا أخي.. يا للغرابة..! أنا أيضاً مات أبي منذ شهرين.. وبنفس السرطان..!

ـ ألا تحزن عليه؟

ـ ما فائدة حزني.. وماذا أجني..؟! هل سيعود أبي..؟!

ـ موقفك محير.

ـ لم يكن شاباً.. مات بأجله المحتوم.. وكان في الخامسة والثمانين من عمره.

ـ ووالدي أيضاً..

ـ أحسب أنه ارتاح، لأنه كان يتألم كثيراً، والموت أفضل له. هيا لنشرب.

ـ لنشرب يا روحي.. الموت شيء مخيف.. عندما أفكر أنني سأموت، تسود الدنيا في عيني.

ـ أنا أيضاً أفكر بالموت دائماً.. فكلما تذكرته، آخذ من الحياة كل متعها وملاذها. فعاجلاً أم آجلاً سأموت.. فالحياة لا تساوي شيئاً.. كلها يومان نحياهما.

ـ آ..آه.. آه.. لقد هربت زوجتي.. وحزني كله من أجلها.

ـ اشرب.. اشرب.. تستطيع النسيان.. هيا.. أنا أيضاً هربت زوجتي.

ـ هل سترقص من شدة الفرح لهروب زوجتك؟ ربما لم تكن تحبها.. أما أنا فكنت أحبها كثيراً.

ـ لا.. أنا أيضاً كنت أحبها كثيراً.. لكن ليس باليد حيلة، فالمعاشرة لا تكون بالقوة، وبما أنها هربت فمع السلامة.

ـ أما أنا ففي حيرة من أمري.

ـ اعمل مثلي.. بالتأكيد سأطلقها.. ومن ثم أتزوج امرأة جميلة وطيبة غيرها..هاه.. هاه.. هاه.. هيا لنشرب.

ـ لنشرب.. أوووف.. أوف.. في صدري شيء، هل أستطيع أن أفضي لك به؟

ـ بكل تأكيد.

ـ أنا أيضاً علتي تختلف وعندي حبيبة..

ـ أنا أيضاً.

ـ تصور.. في الوقت الذي لا أستطيع فيه الافتراق عنها يوماً واحداً.. ذهبت تزور أحد أقربائها ولمدة خمسة عشر يوماً.

ـ طيب، وما الداعي إلى الزعل..؟ حبيبتي أيضاً ذهبت في زيارة إلى أقربائها لمدة خمسة عشر يوماً.. إنني مشتاق لها.. ومنذ الآن أشعر بسعادة

لأننا سنلتقي بعد خمسة عشر يوماً.. هيا لنشرب احتفالاً بفرحة اللقاء.

ـ ماذا أفعل؟ هل أنفجر؟! أنا مريض.. مريض..هل فهمت؟

ـ يا يا.. حزنت كثيراً من أجلك.. إذاً.. هيا نشرب وننس همومنا.

ـ هيا..

ـ ربما تكون مصاباً بقرحة في المعدة؟

ـ كيف عرفت؟

ـ لأنني أنا أيضاً عندي قرحة في المعدة.. هاه.. هاه.. هاه.

ـ وهل يضحك الإنسان لإصابته بالقرحة..؟

ـ طبعاً.. أليست القرحة أفضل من السرطان.. أنا مسرور كوني مصاب بالقرحة.. هيا نشرب لأننا لسنا مصابين بالسرطان.

ـ على شرفك.. آه.. آه.. وكأن كل هذه العلل لا تكفيني..

ـ ماذا هنالك أيضاً؟

ـ لقد هضموا حقي.. ستة أشهر ولم يرفِّعوني.. ما العمل وأنا لا أعرف مسؤولاً واحداً.. ولا علاقة لي بأحد؟ ولذا فإن أكْلَ حقِ غريب مثلي سهل جداً. أريد أن أنسى.. أن أنسى. هيا لنشرب يا أخي.. هيا.

ـ لنشرب.. هاه.. هاه.. هوه.. هوه.. هوه.. آمان إن بدأت عيناي تدمعان.. من كثرة الضحك.

ـ ما هذا؟ هل رويت لك طرفة جعلتك تضحك؟!

ـ حللت كل ما قلته لي.. مما جعلني أضحك.. هاه.. هاه.. هاه.. أنا أيضاً لم يرفِّعوني منذ ستة أشهر.

ـ إي.. وما الداعي إلى الفرح في ذلك؟

ـ طبعاً أنا ممتن كثيراً.. لأن ضميري مرتاح.. هيا لنشرب.

ـ نعم.. ولكن لو طردوك من المنزل بسبب عدم دفعك للإيجار، كيف سيكون ردّ فعلك.. هل ستضحك؟ أم تبكي مثلي؟

ـ هاه.. هاه.. هاه.. هيه.. هيه.. هيه.. آه لقد ضحكت كثيراً، سأقع على الأرض مغمى عليّ.

ـ ما العمل.. يا أخي؟

ـ أنا أيضاً أخرجوني من المنزل.. وحجزوا على كل الموجودات فيه.. حتى لوازمي الخاصة.. المذياع.. السجادة..

ـ أنا أيضاً حجزوا على المذياع والسجادة.. ولم يمض على شرائي لهما أكثر من أسبوعين!

ـ أنا أيضاً منذ أسبوعين.. غريب أمرك إذاً.. لماذا أنت مسرور هكذا..؟

ـ ولك أخي.. المذياع طراز قديم جداً تخلصت منه.. والسجادة أيضاً قديمة جداً.. كانت عشاً للبراغيث. إنشاء الله أستطيع شراء سجادة جديدة غيرها عندما أملك المال..

ـ أنت كل أحوالك على ما يرام.. أما أنا فلا.

ـ ماذا بك يا أخي؟ قل لي.

ـ آآه.. آه.. ماذا سيصيبني أكثر مما أنا فيه ولك أخي.. أووف.. أوف..

ـ لا تبك يا أخي.. بالله عليك.. لا تبك.

ـ إن لم أبك أنا فمن سيبكي عني؟ فنتيجة الانتخابات كانت مهزلة.. والأصوات التي جمعها حزبنا أقل بكثير من الانتخابات الماضية.. أمعقول هذا..؟

ـ هاه.. هاه.. هاه.. وما الداعي إلى حزنك..؟ أنا أيضاً من أعضاء هذا الحزب..

ـ إذن أنت سعيد لتدني أصوات حزبنا!

ـ طبعاً.. فحزبنا سيجمع صفوفه ويقوى بعد هذه الصفعة التي تلقاها.. لنفرض أنه نال كثيراً من الأصوات.. واستلم الحكم.. وهو على هذه الحال من الضعف.. هل يكون أفضل؟ هاه.. هاه.. هاه..

ـ إذن هيا لنشرب.

ـ لنشرب على شرفك.

ـ أوووف.. أوف..!

ـ ولك أخي.. لا تبدأ ثانية بالبكاء..

ـ وكيف لا أبكي يا أخي..؟! بالأمس خسر فريقنا ثانية.. وضاعت البطولة من يدنا هذا العام.

ـ مع أي فريق أنت؟

ـ هور هور سبور.

ـ إذاً نحن نشجع فريقاً واحداً.. وما الداعي للحزن..؟

ـ يعني هل أرقص مثلك لأن فريقي خسر؟

ـ ليخسر.. كي يتخلص من العناصر الضعيفة في قيادته، وإلا فإنه لن يتحسن مطلقاً. وهل هناك أفضل من هذا يا أخي؟ هاه.. هاه..هاه..

ـ إذاً هيا لنشرب..

ـ لنشرب يا صديقي.

ـ أوووف.. أوف..

ـ هات ما عندك أيضاً يا أخي..

ـ لا أملك مالاً.. وديوني كثيرة.. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ـ هاه.. هاه.. هاه.. هوه.. هوه.. هوه..

ـ هل هنالك ما يضحك؟

ـ نعم فأنا الآخر مديون بأربعة آلاف ليرة.. ولذلك أضحك..

ـ أنا أيضاً ديوني تبلغ أربعة آلاف ليرة.

ـ حسن وما الداعي لهذا الحزن الشديد؟؟ الدين يا صديقي محرك الرجل. يجب أن تستدين دائماً.. حتى تعمل دائماً لتفي هذه الديون.. هاه.. هاه.. هاه..

ـ آه.. آه.. هل بالضرورة أن أكون مديوناً؟ انظر.. حذائي قديم ولا أملك نقوداً لشراء حذاء جديد.

ـ هوه.. هوه.. هوه.. هاه.. هاه.. هاه.. هيه.. هيه.. هيه..

ـ هيا.. أيضاً تضحك..! وما الداعي لذلك؟

ـ طبعاً سأضحك.. لأن حذائي أيضاً قد صار قديماً كما ترى.. ولو كنت أملك نقوداً لاشتريت حذاء جديداً.. كما أن هذا الحذاء يضغط على رجلي.. ويؤلمني.

ـ أوووف.. أوف..

ـ ما بك يا أخي.. أنت لا تستطيع البقاء دون بكاء دقيقة واحدة.

ـ ماذا هناك؟

ـ ستفنى.. الدنيا ستفنى.. يقولون.. إن نجماً مذنباً سيصطدم بالأرض بعد ثلاثة أيام.. وستقوم القيامة..

ـ لا تبك يا أخي.. لا تبك كي لا تضحكني.. هاه.. هاه.. هاه..

ـ أقول لك ستقوم القيامة.. وأنت ما زلت تضحك.. تحل بك المصائب ولا تحس بها.. ألا تستطيع البقاء دون ضحك.

ـ هاه.. هاه.. هاه.. هوه.. هوه.. هوه.. هل تقول إن القيامة ستقوم..؟ إذاً هيا لنشرب.

ـ هيا نشرب.. لكن قل ما الذي يضحكك ؟

ـ ولماذا لا أضحك.. ؟ إذا كانت القيامة ستقوم.. يعني أن الصدمة ستكون قوية.

ـ الآخرون يحتفلون بالأعراس كأنها أعياد يا أخي.. هاه.. هاه.. هاه..

ـ أوووف.. أوف.. ستموت ولَك..

ـ هاه.. هاه.. هاه.. هذا أفضل.. بدلاً من الحزن والبكاء هكذا.. تموت وتتخلص.. هاه.. هاه.. هاه.. هيا لنشرب.

ـ لنشرب.. أووف.. أوف..

ـ بالله عليك لا تبك.. لماذا تبكي؟ ماذا هناك..؟

ـ لا شيء.. أوووف.. أوف..

ـ إذا لم يكن هنالك من شيء فلماذا على الدوام تطلق هذه الأووف.. أوف..

ـ لا يستطيع الإنسان أن يشرب بدون سبب.. أسحب آهاً وأسحب أوهاً.

ـ إذن هيا لنشرب..

ـ لنشرب يا أخي.. على شرفك.

ـ هاه.. هاه.. هاه.. هوه.. هوه.. هوه.. هيه.. هيه.. هيه..

ـ هل من سبب يضحكك؟

ـ ولكن لنشعر بالكيف فنشرب.. الإنسان لا يشرب مثل المجنون، إن لم يكن في حالة كيف..

ـ هيا لنشرب إذن..

ـ على شرفك..

ـ آاه.. آه.. أوووف.. أوف..

ـ هاه.. هاه.. هاه.. هوه.. هوه.. هوه..

كان الملهى الصغير مزدحماً جداً، وثمة مرآة كبيرة معلقة على الجدار مقابل المنضدة.. وعلى أقرب طاولة منها يجلس رجل أدار وجهه نحوها. كان وحيداً.. يشرب على الدوام.. ويتحدث باستمرار إلى نفسه وهو ينظر إلى شكله في المرآة.. وبين الحين والحين يبكي ثم يتأوه «آه.. أووف» ثم يطلق القهقهات العالية.

وفجأة سُمعت ضربة قوية.. كان الرجل نفسه قد رمى المرآة بقدحه ثم بالزجاجة.. فكسرها.. ظناً منه أنه قتل الشخص الذي كان يحادثه منذ ساعات طويلة.

لا أحد يعرف أيهما مات، وأيهما بقي على قيد الحياة.. وهل كان من في المرآة المكسورة.. المتفائل منهما أم المتشائم!!

○ ○ ○

واه يا أستاذي يا سيدي

إن تصرف أي شخص مرهون بتصرف الشخص الذي يعامله، فإن كان من تعامله فظاً وغليظاً، ومهما كنت تتحلى به من لطافة ودماثة الخلق، فإنك ولا بد ستنفعل جراء فظاظة من أساء إليك. أما إذا كان من تعامله مرحاً لطيفاً ودوداً، فإنه ولاشك سيشيح عن وجهك التجهم والانقباض.

كثيرون هم من أحسنوا معاملتي، ولبوا طلباتي وحققوا رغباتي، وكثيرون آخرون خبرت طبائعهم ممن لا يقدمون لضيفهم فنجاناً من القهوة. هؤلاء لا يستحقون أن تقدم لهم ولو سيجارة واحدة، وفي نهاية الأمر أقول: إنني أعيب على نفسي مثل هذا التصرف، فنحن بشر نتأثر ونؤثر ببعضنا شئنا أم أبينا.. وانطلاقاً من هذا أسرد لكم هذه الحادثة المؤسفة التي جرت معي منذ أيام عندما كنت في أنقرة، ولازلت أفكر.. وأفكر.. هل أنا على حقّ أم هو؟ ولم أستطع التوصل إلى حل مقنع حتى الآن. وبما أنه ومن غير المستحيل أن نكون كلانا على حق أو عكس ذلك، فاسمعوا قصتي واحكموا أنتم من كان المخطئ فينا ومن المصيب، أرجوكم.

هل يعتدي إنسان بالضرب على شخص يحبه ويحترمه ويقدره؟! ماذا أفعل؟! لقد حصل ذلك معي، ضربني وضربته، قتلني وقتلته، شتمني وشتمته..

أدام الله أصدقائي فقد قدروني وكرموني كثيراً في زيارتي الأخيرة إلى أنقرة. عند المساء أكلنا وشربنا في مطعم جميل.. لم أسكر.. ولكن سحابة من الدخان غطت رأسي.. ولا أنكركم أن بعض المتعة تحدثه هذه السحابة في رأس الإنسان. خرجنا من المطعم بعد الساعة الحادية عشرة..

واتجهنا إلى كازينو يسمى (كازينو البحيرة).. كان مزدحماً جداً. ولست أدري إن كنتم قد شاهدتم في حياتكم امرأة (موشومة الظهر).. كانت المرأة التي تغني.. ظهرها مليء بالغمازات من كتفها حتى أسفل ظهرها.. فبدت للمشاهدين تضحك من الأمام ومن الخلف، والعكس صحيح!

وتابعنا الشرب هناك.. وحضر أحد معارف أصدقائي الذين كنت أجالسهم، فدعوه إلى طاولتنا، وقدموا له قدحاً من الشراب، وتعارفنا..

أما الأحداث المؤسفة التي حصلت.. فجرت بعد ذلك التعارف.. ويا ليته لم يتم.. ولم يكد يسمع اسمي حتى صرخ:

ـ واه يا سيدي.. واه يا سيدي.. آه يا سيدي.. كنت أبحث عنكم في السماء فوجدتم على الأرض. ما هذه السعادة؟

قال ذلك ولفني بساعديه بقوة.

لا أحب مثل هذه التصرفات الاستعراضية. وعلى الإنسان أن لا يظهر أحاسيسه ومشاعره الراديكالية أمام أحد من الناس، ولكن ما العمل..؟ بما أنه يعرض حبه ومشاعره عليك بقوة.. فعليك أن تجامله ولو بكلمة شكر وابتسامة ارتياح احتراماً لمشاعره.. ولأن الرجل طوقني بذراعيه.. رأيت من واجبي أن لا أبقى جامداً كحجر القبر أمام ما بدر عنه. كي لا يقولوا عني إنني رجل بارد.. متعجرف.. وأشياء أخرى أنا بعيد عنها.. وحتى لا أكون سبباً في وصفي هكذا.. لففت الرجل مرغماً ومكرهاً مجاراة لمشاعره. نعم لقد لففته.. ولكن الرجل لم يتركني وشأني.. حاولت أن أتركه ولكنه تعلق بي.. حاولت ذلك مرات عديدة وكأنني أقول له: «حاجة بقى» أنزلت يدي عنه.. ولكن الرجل لم يرعو.. وظل يشدني بقوة بين ذراعيه إلى صدره من جهة، ومن جهة أخرى يضرب على ظهري بيديه الطويلتين. رأيت أن الحالة لن تكون على ما يرام. أعدت يديَّ ولففت جسمه ثانية وبدأت بالضغط على جسمه. كان الرجل ضخماً جداً

وذراعاي قصيرتين.. أمدهما وأمدهما.. ولكنهما لم تصلا إلى المستوى المطلوب كي أضربه على ظهره كما يفعل معي.. وبما أنه يحبني بهذا القدر، يكون عيباً علي إن لم أقابله بنفس الشعور، فبدأت بضرب المكان الذي وصلت إليه يداي.. كنت أنزل الصفعات القوية على رقبته وأنزل ساعدي ثانية، والرجل لا يتركني.. ألفه ثانية، وأضرب بعد أن تضايقت كثيراً. ولم أدر ما سأفعل.. مازال الرجل يشدني بقوة. نظرت بحزن نحو أصدقائي الجالسين على الطاولة، وأومأت لهم كي يخلصوني من يد هذا الرجل، ولكنهم لم ينتبهوا أبداً.

شدني الرجل بقوة.. أكثر وأكثر.. وبقدرة قادر وبأعجوبة، استطعت أن أفلت من بين يديه، وقذفت بنفسي على الكرسي.

وقال:

- أنتم لا تعرفون.. لا تعرفون.. مقدار إعجابي بكم..

وبما أن الاستحياء عندي عادة أمام من يمتدحني.. تظاهرت بالخجل وقلت:

- أستغفر الله.

مرة أخرى:

- لا تعرفون.. كم أنا معجب بكم يا سيدي؟

قلت بشيء من الخجل:

- من معروفك يا أخي.

- توقف لأقبلك ثانية.

قال ذلك ومشى نحوي..

تراجعت نحو الخلف.. ولكن ذراعي الرجل طويلتان.. أمسكني بقوة وبدأ بتقبيل وجنتي.. يا الله.. ما هذه المصيبة؟! ماذا أفعل الآن يا ترى؟!

وليس من اللباقة بشيء أن أقف جامداً أمام رجل يقبلني.. رفعت نفسي نحو الأعلى حيث وقفت على رؤوس أصابعي، وقبلت الرجل من خديه.. في هذا المرة اشتط أكثر وغرق في تقبيلي.. ومن يقبلك خمس مرات، عليك أن تقبله على الأقل مرة واحدة.. وتظاهرت كأنني أقبله ثانية.. أفلتني من بين ذراعيه، فوقعت فوق الكرسي.

ـ آه يا أفندم.. آه يا أفندم.. لا أدري كيف أوضح لك..

هذه المرة بدأت أخجل حقيقة.. تصاعدت النار إلى وجهي.. إنه يمتدحني وليس من حقي أن أكسفه في موقفه هذا.. وسلوكي هذا يجب أن يضاف كمادة مستقلة في قانون حقوق الإنسان. كان الرجل يصمت ويصمت ثم يبدأ:

ـ آه أفندم.. آه أفندم..

ليس من اللياقة أن أترك الرجل دون جواب طبعاً..كنت بعد أربع سحبات من آه أفندم.. آه أفندم.. أرد من أطراف شفتي وبصوت خافت:

ـ آمان أفندم.. آمان أفندم.

في هذه المعمعة من الـ آه أفندم، وآمان أفندم.. فجأة قفز الرجل فوقي.. آ آ آ.. عندها فهمت أن الرجل مجنون بحق..! لو رأيتم نوعية القفزة التي قفزها.. لقلتم إنه يقصد روحك؛ قفز أولاً، رفس الثانية.. لفني وشدني وتركني.. تراجعت إلى الخلف كي أنقذ نفسي.. لكنني لم أجد نفسي إلا بين ذراعيه..

ـ أستاذ.. إن مكانتك لعالية.

ـ أستغفر الله.. أنا..

ـ آه يا روحي.. أفندم.. يا أستاذي الأفندي.

إنها مصيبة بكل ما في الكلمة من معنى، حاولت النهوض لأغادر

المكان، فتعلق برقبتي ولم يتركني.. ربما تقولون إنها مبالغة.. لا والله.. كان الرجل يؤلمني حقيقة.

ـ حسن.. حسن.. لن أذهب.

قلت ذلك وخلصت نفسي من يديه بصعوبة. هذه المرة.. كنت لا أستطيع الحراك خشية أن يقفز الرجل ويمسكني.

ـ أنتم.. آه أنتم.. موجودون..

يا الله.. ليتني لم أولد.. ليقل ما شاء.. فأنا راض.. فقط أن لا يقفز إلي بين وقت وآخر. فإذا ما أمسكني، كان يشدني بقوة، وكنت أتأخخ وأتأوه من الألم.. ولكنه لا يفهم.

ـ آه يا أستاذي.

ـ واي آمان..

ـ آه أفندم.

حاولت النهوض من مكاني وأن أجعل رجلاً يفصل بيننا. فلم يتركني، لكنه لم يقفز علي هذه المرة بل بدأ بضرب ظهري ورقبتي وكتفي بضربات استعراضية دون توقف. وكما قلت: إن الإنسان مجبر على رد تصرفات الشخص الذي يعامله. مقابل كل ثلاث أو أربع ضربات ينزلها على رقبتي وهو يقول: «واي يا أستاذي».. كنت أنزل على ظهره ضربة واحدة. لأنني إن لم أجامله بسلوك كسلوكه، أكون قد خالفت هذا البروتوكول العجيب..! ومع هذا الأخذ والرد، فوجئت بالرجل ينهال على رجلي لكماً ولبطاً وكأنه يريد مصارعتي..! ولو لم أكن واعياً ومتخذاً كل الاحتياطات، لسقطت على الأرض مغشياً عليَّ. لقد اشتط الرجل كلياً في تصرفاته.. صحيح أنني صغير ومكتنز.. لكنني كالقنبلة قوي البنية، مارست رياضة المصارعة في شبابي. قلت في نفسي: «لو حاول ثانية ضرب رجلي، سيرى ما لا يرضيه».

ـ واي يا روحي.. يا أستاذي.. يا أفندم.

وتعلق برقبتي.. «ألا يكفيك ما فعلته حتى الآن؟».. توكلت على الله.. وسحبته من رقبته وأنا أقول له:

ـ واي يا أخي يا روحي.

وبما أنه لم ينتظر مني هذه المبادرة ولم يكن محتاطاً لها، فقد هزته هذه السحبة القوية، وألقته على بعد مترين وأوقعته فوق امرأة على طاولة أخرى. ولولاها لكانت الأرض ستتلقاه ممدداً كالقتيل. كان الرجل خفيفاً، فقفز ثانية ووقف مقابلي.. وأصبحنا وجهاً لوجه.. أضربه ويضربني.. فتدخل الأصدقاء ـ ؟ ـ ثم لطفوا الجو.

خرجنا من الكازينو.. افترقت عنهم فقال الرجل:

ـ لا هذا غير ممكن.. أنا لا أترك أستاذي..

وسحبني من رقبتي.. فهجمت عليه بقوة، وألقيته أرضاً تحت عامود الكهرباء، ثم تابعت طريقي مسرعاً، وكان لا يزال يصرخ وهو ممدد على الأرض:

ـ لا تهرب يا أستاذي لا تهرب. هذا غير محسوب.. سنلتقي ثانية.

ما فعلته لا يليق بي طبعاً.. وهل كان بمقدوري أن أفعل غير ذلك؟ تصرف أي إنسان مرهون بتصرف الشخص الذي يتعامل معه، شاء أم أبى.

هذه حكايتي وضعتها بين أيديكم.. فما جرى.. ذنب من؟ ومن البادئ بالاعتداء؟ والبادي أظلم.. أنتظر قراركم..

○ ○ ○

حرام على مال الشعب

تسألون لماذا استغرق بناء هذا الفندق وقتاً طويلا..؟ أنتم على حق.. فقد كان بالإمكان بناء مدينة كبيرة بدلاً من بنائه.

بعض الشركات الأجنبية تقدمت بعروضها لبناء هذا الفندق. ولست أدري كيف تمت المناقصة، وعلى من رست.. على من دفع أكثر، أم على من سيبني أفضل وأجمل، أم على من أقام المأدبة!

شُلّت يداي إن رويت لكم ما سمعته.. بل الذي رأيته..

أقيمت الاحتفالات، وقصت الأشرطة، ووضع حجر الأساس أحد المحظوظين من كبار المسؤولين، وأقيمت حفلات سيسجلها التاريخ.. وكتبت الصحف موضحة بالرسوم..

وبوشر بالبناء.. ارتفعت الجدران.. وظهر هيكل الفندق.

ذات يوم.. وقفت سيارتان أو ثلاث، لوحاتها حكومية، أمام البناء.. نزل كبار المسؤولين من السيارات، وجالوا في البناء.. قال أحدهم، وكان يتقدم الجميع:

ـ لماذا هذا (الكوريدور) ضيق هكذا؟

قال أحد المهندسين:

ـ كي يتناسب مع المخطط يا سيدي.. فهو بعرض خمسة أمتار.

ـ يعني ألم نر في حياتنا فنادق..؟ الفنادق التي نزلت فيها في الدول الأخرى كانت كوريدوراتها أعرض وأوسع بكثير من هذه.. لنقل أنها غير ضيقة، ولكنها قليلة جداً. هل هناك فنادق قليلة الكوريدورات بهذا

الشكل..؟ ها..؟ بما أننا نبني ونعمل، ونصرف.. فلنجعلها على أكمل وجه. حرام أن نضيع أموال الدولة والشعب.

سكت المهندس ولم يقل بعدها أية كلمة.. التفت المسؤول الأول والذي كان في المقدمة وسأل من معه:

ـ ماذا تقولون..؟ أليس عدد الكوريدورات قليلاً بالنسبة لحجم هذا الفندق؟

ـ قليل يا سيدي.

ـ قليل يا أفندم.

ـ قليل جداً.

حسبما جاء في الاتفاق تم إلغاء العقد مع الشركة.. لنترك للمحاكم أمر البت في إلغاء أو إبطال العقد.. بعدها تم تغيير مخطط المشروع من أساسه.. فزاد عدد الكوريدورات، وأصبحت أكثر عرضاً.

عندما كان المخطط الحديث يطبق بحذافيره، وإذا بعدة سيارات حكومية رسمية تقف أمام الفندق.. تفقد المسؤولون البناء، كان المسؤول الذي يمشي في المقدمة رجلاً آخر.. فدخل من باب لم تركب درفتاه بعد وسأل:

ـ ما هذا المكان؟

قال أحد مسؤولي الشركة الجديدة:

ـ صالون يا سيدي.

ـ هل تقول صالون..؟ وأي نوع من الصالونات هذا؟!

ـ لم ينته بعد يا سيدي.. لازال على الهيكل، وقريباً يتم إكساؤه.

ـ أنا أفهمك يا أفندم.. عرفنا أنه صالون.. لكن ماذا سيعملون هنا؟ هل سيتسابقون على الخيل..؟ أمن المعقول أن يكون الصالون بمساحة حارة..؟

حرام مال هذا الشعب الفقير.

ـ إننا ننفذ المخطط الموجود بين أيدينا يا سيدي.

ـ هذا المخطط الذي تسميه (حاشا) ليس آية.. يجب تغيير المخطط والمشروع من أساسه.. نفذوا هذا الأمر فوراً.

لم تحدث خلافات مع الشركة الثانية، وانتهى الأمر بالتراضي. وكما جاء في المشروع الجديد، فقد ازداد عدد الكوريدورات، وصغرت الصالونات.

كان العمل يسير على قدم وساق، والبناية على وشك الانتهاء.. وإذا بعدة سيارات حكومية تقف أمام الفندق، وينزل منها عشرة أشخاص، دخلوا البناء وجالوا في جميع أرجائه. أعجب المسؤول الجديد الذي كان يمشي في مقدمة الزائرين.. وبينما كان المسؤول يرفع نظره نحو السقف، التفت وقال:

ـ أين قبب وزنانير هذا الفندق؟

قال المهندس المعماري الصغير السن بعد أن وقف طويلاً مضطرباً أمام سؤال المسؤول، فهو لم يفهم قصده.. والسؤال بحد ذاته كان غريباً عليه:

ـ عفواً.. لم أفهم.. ما القبة وما الزنار؟

ـ أليست هذه عمارة تركية؟ بما أننا نبني الفنادق من أجل الغرباء، يجب أن يكون طراز البناء تركياً وشرقياً.. هل من المعقول أن يكون الفندق تركياً بدون قبة وزنار؟؟

ـ آمان أفندم.. المخطط الذي بين أيدينا...

ـ وماذا يعني المخطط..؟ هذه نتيجة إعطائنا المشاريع للغرباء، لأنهم لا يفهمون طبائعنا، ولا طراز بنائنا.. ولا عاداتنا وتقاليدنا..

ـ بناء لا يجسد روحنا.. لا ينفع شيئاً.

- القبة والزنار شرط هام أفندي.

قال الواقف أمام الزائرين:

- حرام إهدار مال هذا الشعب..!

تم هدم الفندق ثانية.. وبما أن وضع القبب والزنانير يكلف غالياً.. فقد عدل في المخطط وتم وضع عدد من القبب والزنانير ليكون مناسباً.. من جديد سار العمل على قدم وساق.. الأعمال الكبيرة كانت على وشك الانتهاء، وإذا بالمسؤولين كما في كل مرة حضروا ليلقوا نظرة على الفندق.. كان المسؤول الأكبر قد تغير أيضاً هذه المرة.. جال بنظره هنا وهناك، وأطال النظر ثم قال بحزن كبير.

- تووووه.. لما هذا العدد الكبير من الكوريدورات.. إنها أكثر من الغرف، وأخال أن النزلاء سيضيعون بينها.. حرام هذا مال الشعب..

مع كل هذه التغييرت.. كان بناء الفندق يتأخر ويتأخر. وعندما بدأت الانتقادات تظهر تباعاً على صفحات الجرائد.. سرَّعوا العمل مما أدى إلى تغيير شكل الطوان في عدة جوانب. وحتى يكون الطوان مناسباً للروح الوطنية.. بدأت التساؤلات والخلافات تظهر من جديد.. هل نضع على السطح قرميداً محلياً.. أم قرميداً خاصاً من مرسيليا.. وأخيراً تم التخلي عن القرميد، وصب بالبيتون المستوي.

مسؤولون آخرون زاروا الفندق، وكان في مرحلته النهائية:

- (أين خزف هذا الفندق؟) هل يوجد فندق تركي دون خزف؟

دخلوا الصالون الكبير وكان بدون أعمدة، فقال المسؤول الذي كان يمشي في المقدمة:

- ألا يوجد عمود واحد في هذه القاعة..؟ هذا السقف بحاجة إلى عمود وإلا فإنه سيسقط..

ـ لا تفكروا بالموضوع يا سيدي فقد صمم وفق حسابات دقيقة، ولهذا فلن يصيب السقف أي ضرر.

ـ كيف لا يسقط..؟! فالسقوف التي تسقط.. كيف تهوي وتسقط؟؟

والتفت إلى الخلف:

ـ ما رأيكم..؟ هل يقسط أم لا؟

ـ يهوي يا سيدي.

ـ يسقط مائة بالمائة يا سيدي بسبب كل هذه الأثقال.. وغداً عندما يمتلئ بالأغراض، والزبائن والضيوف، وتزداد الزحمة.. طبيعي جداً أن ينهار.

ـ وبصوت قوي أيضاً.

ـ كأننا ألقينا كل هذا المال في الشارع.. وا أسفاه على مال هذا البلد.. انظر إن الجميع يقولون.. سيسقط، إضافة إلى أن العمود يعطي منظراً وجمالاً للقاعة.

تم وضع أعمدة في جميع الصالونات بعد تعديلات طفيفة.. مسؤول آخر لم تعجبه الأعمدة المربعة.. وقال إنه شاهد بعض الأعمدة في المعابد اليونانية القديمة.. أسطوانية الشكل.. حرام.. لهفتي على مال هذا البلد..

ـ هذا سهل جداً يا سيدي.. نستطيع تحويلها كما تريد.

كانوا يكسون الوجه الخارجي للفندق بالموزاييك.. وإذا بأحد المسؤولين يزور الفندق ويقول:

ـ العمارة الحديثة هذه الأيام يجب أن تكون واجهتها من زجاج.. فما الذي تفعلونه..؟

بالرغم من انتهاء بناء الفندق من الناحية العمرانية والتجميلية كان من الضروري أن تتم فيه بعض التعديلات، لأن أحد المسؤولين البارزين وجد أن السلالم عمودية أكثر من اللازم، وأن المسنين لا يستطيعون صعودها.

ـ هناك مصعد يا سيدي.. سيصعدون بواسطته.

ـ إذاً لماذا وضعتم هذه السلالم..؟ أليس هذا هدراً لمال البلد؟ السلم أيضاً لازم، فبعض الحاجيات لا يمكن رفعها إلى الطوابق العليا إلا عن طريق السلالم.

لنترك التعديلات تقام في الفندق لأن اقتراحاً جديداً قد ظهر.. يقولون إن مهندساً معمارياً أجنبياً قد زار الفندق.. وقال للمسؤولين:

ـ إنها عمارة ضخمة جداً، وأثر معماري عظيم.. أقترح أن لا يكون فندقاً.. بل يجب أن يكون مقراً لهيئة الأمم المتحدة.

فالقباب والزنانير والخزف الموجودة على جدران الكوريدورات، والأصابع الحديدية، يجسدون الفن التركي. أما السقف والرواق فيعكسان الروح الاسكندنافية.. والإضافات التي أجريت على الصالونات تعطي أو تعكس الفن المعماري العربي.. إضافة إلى الطراز الإيطالي هنا وهناك.. أما الحمامات والمراحيض فهي تمثل الذوق الأمريكي.. وفيه أيضاً من العمارة الهندية والصينية.

وكأن ذلك المهندس الأجنبي يريد أن يقول:

ـ عجباً لكم..! كيف استطعتم وضع كل هذه الفنون في هذا المكان الضيق؟!

إذا فسبب تأخير بناء هذا الفندق كان من أجل ذلك.. كي لا يذهب مال الشعب هدراً..!

تسع سنوات وهم يرفعون ويهدمون ويعدلون ويزيلون وينقصون.. وأخيراً وبعد موافقات وإلغاءات وإعجاب واستهجان انتهى بناء الفندق، ولم يذهب مال الشعب هدراً، على المدى المنظور..!

O O O

يتمنى الإنسان من أعماقه أن يكون اشتراكياً

٤ آذار (١٩٥)

استيقظت عند الساعة الحادية عشرة بعد ليلة صاخبة شربنا فيها كثيراً مع مجموعة من الأصدقاء.. كان جوفي يحترق.. مددت يدي إلى (الكومودينة) مرة ثانية فلم أجد العصير. مرات عديدة قلت للخادمة كي تضع إبريقاً من العصير المثلج فوق الكومودينة.. ضغطت على الجرس فجاءتني بكأسين من عصير التفاح شربتهما وسألتها عن مكان زوجتي فقالت إنها ركبت السيارة وذهبت دون أن تخبرها عن مكان ذهابها. ثم ألقيت نظرة على الصحف المحلية، لكنني لما قرأت قصة ذلك الرجل انحبس الدم في رأسي.. لقد وضع هؤلاء اليساريون السفينة على الخازوق.. وزاد في طغيانهم رغبتهم في بذر الشقاق بين المواطنين.

الرجل الذي عينته وكيلاً عاماً لي اتصل بي هاتفياً وقال إنه لا يستطيع جمع كل الإيجارات عند استحقاقاتها دفعة واحدة. ويقول: «ماذا أفعل؟» قلت:

ـ ألا يكفيك أنني أعطيك ثلاثة بالمائة من الأجور التي تجمعها؟ وتطلب مني الآن أن أفكر بعملك أيضاً؟! هناك ثلاثة محامين موجودون للتعاون معك في الدعوى والتنفيذ وليأخذوا الإيجار بالحجز أو بغيره، ثم ليرموا بالمستأجرين المتمنعين خارج الباب.

وقلت له ألا يزعجني بمثل هذه الأمور التافهة والصغيرة بين وقت وآخر.

اتصلت مع (نور بيري):

- كيف حالك من ليلة الأمس وإلى الآن يا سكّرتي؟

طيلة حياتي لم أولع بواحدة مثلها. قالت:

- هل سنجتمع هذه الليلة؟

وكأن زوجها غريب عنها.. ليكن.. قبلت.. ولكنها طلبت أن لا تكون زوجتي معنا، لأنها تغار منها، فهناك حفلة (بوكر) في منزلها.. ستمتد حتى الصباح.

اتصلت بالمكتب لأطمئن عن العمل.. وهل كل شيء على ما يرام.. قالوا إن البنوك أصدرت (Akreditifi).

وبما أنني سأتناول طعام الغداء مع ممثلي إحدى الشركات.. وجب أن أجهز نفسي، فلربما اتفقنا على بعض الأعمال الكبيرة. وفي المساء أمر على النادي وآخذ (نور بيري).

* * *

١٦ نيسان (١٩٥)

مازلت كالمخلل.. استيقظت الساعة الحادية عشرة ولكنني لم أستطع مغادرة السرير حتى الواحدة. تناولت الإفطار في السرير وقلبت الصحف أيضاً فيه. قلت مراراً في نفسي يجب أن لا أقرأ مقالات هذا العديم الوجدان والناموس. ومع ذلك لم أتمالك نفسي عن قراءتها.. أقرأها لأعرف ما قال، وما الأكاذيب التي اختلقها هذا اليوم. مرة ثانية بدأ (أرباب العمل، أو الجهد).. يقول إن أرباب العمل يستغلون العمال. هل الذين يؤمنون فرص العمل ويقدمونه للآخرين مستغلون؟

يبدو أن الحسنة لا تساوي شيئاً عند هؤلاء.. فمقاصد اليساريين معروفة وواضحة، وهي الإضرار بأمن البلد. لشدة غضبي ألقيت بالجريدة جانباً.

زوجتي ليست في البيت أيضاً. تقول الخادمة إنها ذهبت إلى الحلاق

ولم ترجع حتى الآن. منذ أسبوع لم أر وجهها أبداً. اشتقت إليها كثيراً.. أنا راض عنها لأننا لا نتشاجر، كما أنها لا تغار مني ولا تغار علي.. وأرغب أن تكون هي الأخرى راضية عني.. ولماذا لا تكون..؟ فأنا ألبي لها كل طلباتها. بدأت أحس بالضيق ممن تسمى (نور بيري) لأن اسمها يظهر على صفحات الجرائد دائماً، وخاصة صفحة القال والقيل، ولأن الهوة أصبحت كبيرة بينها وبين زوجها.. أوف.. لقد ضقت ذرعاً بهذه المرأة.. ومهما كانت النتيجة فإنه ليس أقرب للإنسان من زوجته.. إنها تصبر على الدوام.. قبل أيام طلبت مني أن أجدد لها سيارتها.

ولسوء الحظ فقد خسرت مبلغاً كبيراً من المال قبل يوم واحد في بيت (نور بيري) فأجبتها أن هذا غير ممكن.. علماً أنه لم يمر عام واحد على شرائها لهذه السيارة. ولكي أطيب خاطرها، وعدتها بأن تذهب بنفسها لانتقائها كي يحضروها لها.

* * *

٢٤ أيار (١٩٥)

النساء ليس عندهن عقل أبداً. لقد ركبت زوجتي رأسها فهي تريد بيتاً صيفياً. لنفرض أننا اشترينا هذا البيت.. هل سأكون مجبراً على سكني هذا البيت كل صيف. لا أريد أن أكونْ مقيداً بمكان، وفي الصيف أقصد المكان الذي أرغب، وأسكن بيتاً تشتهيه نفسي وأراه مناسباً.

صيف في الجزيرة.. وصيف في البوغاز.. وصيف في أركوي..

لم أستطع إقناعها.. تقول إن بيتاً في السعادية أعجبها.. له حديقة كبيرة. قلت لها: «اصبري بعض الشيء فنبني بيتاً صيفياً على ذوقنا». ولكنها لم تصبر، فقصدت الدائرة العقارية لإتمام معاملة الشراء وتحويل المنزل الصيفي الذي اشترته إلى اسمها.

في الصباح استيقظت باكراً.. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة

والنصف.. بقيت في السرير حتى العاشرة أقلب صفحات الجرائد. يقولون إن معامل الدولة تخسر باستمرار.. طبعاً تخسر..! لماذا لا يسلمون المعامل إلى القطاع الخاص؟! وبذلك تلتفت الدولة إلى مؤسساتها وتترك الصناعة والتجارة لأصحابها.

اليوم أيضاً نفث هذا المنحط سمومه على صفحات الجرائد. إنه يغرر بهذا الشعب المسكين. أنه يثيرهم ويحرضهم على الدوام، يأكلون خبز هذا البلد وفي الوقت نفسه ينكرون الجميل. فإذا لم يعجبهم الوضع لجؤوا للتحريض.. ليغربوا عن وجوهنا ويتركوا البلد بأمان.. فلا أحد يمسكهم من أيديهم.

سكريتيرتي الجديدة فتاة جميلة جداً «إنها دمعة» أموت من أجلها.. بالأمس فقط عرفت اسمها «يلديز» ردت دعوتي بلطف.. وربما ستعذبني كثيراً.

أحب النساء اللواتي لا يرمين أنفسهن بسهولة. لا عمل لي في المكتب ولكنني سأذهب اليوم من أجلها.. سأجربها ثانية.. وها أنا أستعد للذهاب.

* * *

٢ حزيران (١٩٦)

بعض الأحداث تغضب الإنسان كثيراً. صفحات الجرائد مليئة بأخبار الإضرابات، وهذا يضرب ويتذمر من اقتصاد البلد كثيراً، وكل ذلك بسبب هؤلاء الاشتراكيين الذين خربوا الوحدة الاقتصادية وأزكوا نار الفرقة بين أبناء الشعب. مرة أخرى هذا القليل الوجدان.. نشر الكثير في جريدته.

لو لم تكن يلديز معي في هذه الأيام العصيبة لجننت. أنسى همومي قربها.. اليوم سأستأجر لها شقة من إحدى العمارات.

* * *

٢٢ حزيران (١٩٦)

بالأمس عدت من أوروبة.. كنت في جولة سياحية. على المرء ألا يخرج بسياحة خارجية مع زوجته، لأنه لا يشعر بطعمها. فقد تلقيت تلغرافاً يطلبون مني العودة سريعاً، تركت زوجتي التي ستنتقل إلى إيطاليا ورجعت لأنها ستبقى هناك على ساحل البحر في فندق سياحي شهراً كاملاً لترتاح.. وأبقى وحدي حراً مع «يلديز».

عندما كتبت الجرائد عن الاستبداد الحر، طلب مني أحد شركائي العودة سريعاً لأنهم وكما يدعون أن مجموع اختلاساتنا بلغ أكثر من عشرين مليون ليرة.

حذرتهم كثيراً.. لكنهم لم يتخذوا التدابير الكافية.. ما دام هؤلاء اليساريون في البلد فلن ننعم بالأمن ولا الراحة كما يفعلون الآن.. لكنهم أشبه بعاصفة في فنجان.

قبل قليل اتصل زوج نور بيري هاتفياً.. يقول إن نور بيري عاتبة لأنني لا أزورهم في المنزل. فبعد أن أوقعت نفسي باختياري وخسرت ذلك المبلغ الكبير في بيتها قررت ألا ترى عيناي لا نور بيري ولا سواها.. هذا المساء سأطير إلى أنقرة وسآخذ معي «يلديز» لأنني لا أستطيع أن أبقى بعيداً عنها.

* * *

٢٨ حزيران (١٩٦)

غير معقول أن يكون الإنسان وقحاً بهذا الشكل، فشريكنا الذي يملك أكثر من واحد وخمسين بالمائة من أسهم الشركة.. وبيده كل شيء.. يبيع حصصه خلسة دون إعلامنا، ولم يبق سوى واحد بالمائة من حصته، عندما علم أن الأمور ليست على ما يرام كي يجنب نفسه الخسارة.

ويقولون إن عملية الاختلاسات التي قمنا بها في صفقات الاستيراد

سيحيلونها إلى المحكمة، أضف إلى أن المصارف حجبت عنا القروض. فكرت طويلاً وتوصلت إلى قناعة أن أعمال الدولة هي أفضل شيء. لو كانت الدولة على ما يرام وخلصتنا من هذه الورطة بشرائها مؤسساتنا فهي تكفي.

* * *

٣ تموز (١٩٦)

أحد الشركاء تحرك قبلي وأعلن إفلاسه بحيلة ناجحة.. وهكذا يكون قد تخلص من الديون. ولكنه أضر بي كثيراً، حيث بدأ الدائنون الذين اقترضت منهم باتخاذ التدابير الاحترازية من قبيل الاحتياط حفاظاً على أموالهم.

* * *

١١ تموز (١٩٦)

قررت هذا اليوم نقل أملاكي إلى زوجتي.. فليس من حل آخر، وإلا فإنها ستطير من يدي. مع أنني دفعت كثيراً.. لكنني لم أستطع إعادة الأمور إلى نصابها.

* * *

٢١ تموز (١٩٦)

قال لي محاميَّ إنه يجب أن أطلق زوجتي، لأنه بمقدور الدائنين أو المطالبين أن يتحولوا إليها لوجود حالة شراكة بين الزوج وزوجته، وبمقدورهم إثبات ذلك بسهولة.. وبما أنني مكره على ذلك حزنتْ كثيراً وتألمتْ وبكتْ. أوضحت لها أننا مجبورون على اتخاذ هذا التدبير كي ننقذ أموالنا من الضياع. ولا قيمة لعقد النكاح.. مادمنا نعيش معاً في بيت واحد، ووعدتها بتجديد عقد النكاح بعد أن تستقيم الأمور. ألم يروا أن البلد يسير نحو الهاوية؟ وما من حل سوى القضاء على اليساريين.

* * *

٨ آب (١٩٦)

ما كان ينقصنا فقد حدث.. جاء المفتشون وخبراء الحساب.. ودققوا سجلاتنا المالية.. يقولون إنني تهربت من دفع الضرائب.. فالمصائب تأتي تباعاً. لو توقعت أن هذا سيحدث معي لأقدمت على تهريب أموالي إلى خارج البلد، وتركت الوطن لأعيش خارجه.. فكرت بالانتحار، ولكنني لم أستطع. زارني أحد الأصدقاء وهدأني وقال إن هذه المشاكل يمكن أن تصيب المرء عدة مرات كي يأخذ منها دروساً وعبراً، وتكون دافعاً لمزيد من العمل الجاد.

* * *

٢٦ آب (١٩٦)

انتهى كل شيء بالنسبة لي.. طلب المحامي مبلغ مائتي ألف ليرة ليدافع في دعوى التهريب و«الاختلاس»، ويقول إنه لا يطلب هذا المبلغ لنفسه بل ليوزعه على هذا وذاك «كعونطة» ليصار إلى طمس الدعوى.. يعرف أنني لا أملك مالاً.. رجوته أن يدافع عني، ووعدته برده له فيما بعد، فأقسم أنه لا يملك المال.. «قليل الناموس.. كذاب» ثلاثة محامين فقط كانوا يأخذون مني في العام الواحد أكثر من نصف مليون ليرة. لقد كان واحداً منهم، أما الاثنان الآخران فلم يمرا بي أبداً. طلبت المبلغ من زوجتي المطلقة، هي الأخرى لم تعطني. سألتها عن مصير الأموال التي حولتها إلى حسابها في البنوك، قالت إنها اشترت مزرعة. طلبت منها بيع شقة من العمارة حتى ندفع المبلغ، وأعلمتها أن توقيفي محتمل، فأجابت: «هذا غير ممكن.. أليست كل هذه الأموال والنقود ملكي؟»

الانتقادات تنهمر كالمطر.. انتقدوني من أجل عشرة آلاف ليرة.

قصدت أصدقاء كثر كنت قد ساعدتهم كثيراً، ولكن دون فائدة.

* * *

٣٠ تشرين الأول (١٩٦)

بقيت مدة قصيرة في السجن، ثم خرجت بكفالة نقدية.. قصدت شخصاً أعطيته في الماضي مبلغاً من المال، طالبته به لأدفعه لإخلاء سبيلي فقال: «عوضاً عن مائة ألف ليرة أعطيك أربعين ألفاً». ورضيت بذلك كي أخرج من السجن لأن هذا الاعتقال، ولو لمدة قصيرة، قد علمني أشياء كثيرة.

لم أذهب إلى البيت، فزوجتي لم تزرني ولو لمرة واحدة في السجن، ناهيك عن إشاعات تتحدث عن احتمال زواجها.

الآن أسكن في الفندق، ولم أستطع استيفاء قرش واحد ممن أقرضتهم في الماضي. أصبحت المعيشة صعبة، واستدانة مبلغ صغير من هنا وآخر من هناك لا تسد الرمق.

أنا لا أحب ذلك الرجل، غير أنني صرت أقبل بنهم على قراءة مقالاته التي أصبحت جيدة إلى حد ما.

* * *

٤ تشرين الأول (١٩٦)

استيقظت باكراً ونزلت إلى الشارع.. لقد عرف الدائنون مكان إقامتي، ولذا أصبحت أغادر الفندق قبل أن يطبقوا علي مطالبين بأموالهم، لأنني عاجز عن دفع أجرة الفندق.

عند الظهر قصدت صديقاً قديماً ربما يدعوني لتناول طعام الغداء معه.. وفعلاً تحقق ما تمنيت. قال إنه من اليسار الوسط، وقنعت بذلك.. كلمة اليسار ليست جميلة.. ولكن، ليكن.. فليس من حل سوى اليسار الوسط. ولا ينقذ هذا البلد سوى اليسار الوسط.

* * *

١١ كانون الأول (١٩٦)

البارحة بعت ساعتي، ودفعت أجرة الفندق.. وقررت الانتقال إلى فندق متواضع جداً في «توب هانه» ينام فيه ثلاثة أشخاص في غرفة واحدة. وصرت آكل الخبز والجبنة دون أن أدع أحداً يراني.

البلد يعيش حالة انهيار تام، فالكل عاطل عن العمل، فلا عمل ولا نقود.. لا.. لا.. حتى اليسار الوسط لا ينقذ هذا البلد.. أصبحت قانعاً بالاشتراكية.. باشتراكية تناسبنا.. أنا اشتراكي ستون بالمائة.

بدأت أبحث عن عمل.. أذهب إلى الأصدقاء القدامى وأنا مدين لهم.

* * *

٢ كانون الثاني (١٩٦)

قضيت رأس السنة في غرفة قذرة في فندق قذر.. بقيت وحيداً، بكيت.. بعد منتصف الليل خرجت إلى الشارع، وبقيت ألف وأدور حتى الصباح.

إنهم يهدرون الأموال كما يهدرون المياه، فمن يرى هؤلاء يتمنى من قلبه أن يكون اشتراكياً. ألا يرون الفقراء أبداً؟! ألا يخجلون من أنفسهم عندما يمرون أمامهم بسياراتهم الفارهة؟! والله إن نسبة الستين أو الثمانين بالمائة من الاشتراكية لا تقوِّم هذه الأعمال. كل شيء خرج عن طوره ولك أنا اشتراكي.. وماذا في ذلك؟!

* * *

٧ شباط (١٩٦)

منذ يومين وأنا جائع.. سرقت كعكة عن طاولة بائع الكعك هذا الصباح. ألقيت نظرة إلى الجرائد.. على واجهة دكان بائع التبغ، كاتب واحد فقط يقول الحقيقة. وبما أنني لا أملك المال، صرت أفتح الجريدة كل

يوم وأقرأ مقالاته وأنا واقف!! إنه رجل يقول الحق بصدق.. نعم.. نعم.. أما من شخص يقوم بانقلاب؟! فلا يخلصنا من هذا الفقر المدقع سوى الانقلاب.

* * *

٤ أيار (١٩٦)

وأخيراً وجدت عملاً، بدأته منذ خمسة عشر يوماً بعد أن ذهبت إلى أنقرة وقابلت أحد الأصدقاء الذين سمعوا بحالي وبمصيبتي.. إنه موظف كبير في إحدى الوزارات.. ذو نفوذ واسع.. وضعني عند أحد المستوردين.

وبما أنني خبير في هذه الأمور، كنت مصدر خير للرجل، وأقبض من المال ما يكفيني. استأجرت بيتاً في أنقرة.

غضبت ثانية في المكتب عندما كنت أقرأ الجرائد.. الرجل يتعمد بث التفرقة لتخريب الوحدة الوطنية.. أمثاله يقدمون العون والمساعدة للأعداء، ويتلبسون جلباب الاشتراكية.

* * *

١٦ حزيران (١٩٦)

لضرورة العمل أبقى في استانبول خمسة أو عشرة أيام في الشهر، وبما أنني لا أرتاح في الفندق أصبحت مجبراً على شراء شقة بأربع غرف.

ثم اشتريت سيارة صغيرة. كانت الشوارع مزدحمة عند وقت الظهر، سألت: ماذا هناك؟ قالوا إنها مظاهرة.. لقد اتحد العمال مع الشباب. آه.. هذه الأمور لا يخطط لها غير هؤلاء اليساريين.. إنهم يخدعون الشباب المساكين أيضاً.

* * *

٢٠ تموز (١٩٦)

أخيراً فتحت شركة خاصة، وبدأت الاستيراد.. وشكراً لله، اشتريت شقة كبيرة واستقريت في استانبول. ليلة أمس حاول زوج زوجتي القديمة مشاركتي في بعض الأعمال.. رحبت بفكرته وأبديت موافقتي وقلت في نفسي يجب أن أدق لهم خازوقاً لا ينسونه طوال حياتهم.

* * *

٤ آب (١٩٦)

استيقظت عند الساعة الحادية عشرة.. وكنا قد شربنا كثيراً ليلة الأمس مع الأصدقاء.. كانت أعماقي تحترق.. مددت يدي إلى (الكومودينة).. العصير ليس موجوداً.. ناديت الخادمة، وشربت كأسين باردين من عصير التفاح. سألتها عن مكان زوجتي، قالت: «لقد ركبت السيارة وغادرت ولكنها لم تقل إلى أين». زوجتي القديمة لم تكن تملك متليكاً واحداً، أما هذه فغنية، لكنها ليست جميلة.. ليكن، فالمال يستر كل العيوب.

دخلت الحمام.. قلبت الجرائد وأنا أتناول طعام الإفطار، فما إن قرأت مقالة ذلك الرجل حتى احتقن الدم في رأسي. هؤلاء اليساريون بدؤوا يزايدون.. إنهم يريدون الإيقاع بين المواطنين.

اتصل بي وكيلي العمومي.. هناك عمل.. قلت له أن يخفض من السعر بعض الشيء. اتصلت بـ (بيرسان) إنني أعبدها.. ستقتلني.. في حياتي كلها لم أتعلق بفتاة مثلها.

سنتناول طعام الغداء مع ممثلي شركة أجنبية.. يجب أن أحضر نفسي وأخرج من البيت. في هذه الأثناء تماماً جاءني شخص من جمعية (حرب مع اليسارية) وطلب المساعدة التي كنت أدفعها له كل شهر.

هؤلاء اليساريون الخونة.. إنهم يقودون الوطن بيساريتهم إلى الهلاك والهاوية.

اتصلت مع مديري كي يدفع مبلغ عشرة آلاف ليرة مساعدة لجمعية (حرب ضد اليسارية) ويدونها على السجلات.. كي لا تحسب عليها الضرائب!

ooo

كل الرجال الوسيمين يلبسون من عندنا

عندما ذهبنا إلى محلات البالي (الثياب المستعملة) في سوق البراغيث، قلت لصديقي:

ـ لا أعتقد أننا سنجد ثياباً تناسبك.

كان صديقي بديناً إلى حد ما..

دخلنا عدة محلات دون أن نتناول أي طعام، فلم نجد ثياباً على مقاسه.. وبدأنا ننتقل من محل إلى محل ونحن جياع ولم نأكل سوى كعكة.

عند المساء دخلنا أحد المحلات فوجدنا تقريباً ما يناسب صديقي من الملابس، حتى ولو لم تكن على مقاسه تماماً غير أن صديقي لم يعجبه شيء من تلك الألبسة لأنه خبير بالثياب، ويحب الأناقة.. وكان على الدوام يجد المبررات: هذا خصره ضيق.. وهذا ساقه قصيرة.. وهذا طراز قديم..

كان صاحب الدكان إنساناً صبوراً جداً، يخرج على الدوام ألبسة جديدة ويعطيها إلى صديقي ليجربها.. وعندما يتذرع صديقي بحجة ما يقول له صاحب المحل:

ـ اجلس وأشعل سيجارة.. خلال دقائق أوسع لك الخصر، وأطول الساق عند الخياط..

أنزل صاحب المحل ومعاونه الألبسة المعلقة تباعاً، وجربها صديقي واحداً واحداً.. بعضها كان على مقاسه تماماً.. إلا أن صديقي كان يختلق حجة ما: لا.. هذه لونها فاتح.. وهذه غامق. لا.. لا أريد جاكيتاً بزر

واحد. لا.. هذا القماش خطوطه عريضة...

دهشت كثيراً لصبر بائع الألبسة.. كان لا يقطع الأمل من بيع صديقي الذي لا يعجبه شيء.. قطعة أو قطعتين.. فقد تحملنا ساعات طويلة دون كلل أو ملل.. هم يبحثون عن ألبسة مناسبة، وأنا أفكر بالبائع وصبره. فهذا العمل والصبر والعناد لا يمكن تحملهما من أجل ربح ليرات في لباس مستعمل، وإن كان لا بد فيجب أن يكون هذا الإنسان عاشقاً محباً لمهنته وعمله.. أو إذا لم يكن هناك المزيد من الربح. يكون الرجل قد عاند نفسه، ويجب أن يبيع لمشتريه قطعة أو قطعتين وبأي شكل كان، فإن لم يستطع بيع قطعة ما، فحتماً سيكون تاجراً فاشلاً. لم أنته من تفكيري هذا والذي انصب على صبره غير المحدود. حتى فوجئت به يفقد صبره في لحظة واحدة عندما قال صديقي عن البنطال إنه ضيق عليه.. حيث انتزعه من يد صديقي وأمسك بساقيه وشدهما.. وإذا بالبنطال يتحول إلى قطعتين دفعة واحدة. وعاد ليخرج ألبسة جديدة دون أن يقول شيئاً.

أخيراً وبعد هياط ومياط وجد صديقي ما يناسبه. غير أن المبلغ الذي بحوزته لا يكفي ثمن اللباس.. تحركت على الفور وتدخلت لأنني أشفقت على البائع المسكين الذي انتابته حالة من الهيجان والاضطراب.

ـ أنا معي نقود لأعطيك..

قال صديقي:

ـ هذا غير ممكن.. فأنا لا أشتري لباساً بالدين.

عندما سمع التاجر هذا الكلام انفجر فجأة لأن التعب قد نال منه وبلله العرق واحمر وجهه من التعب والاضطراب، خاصة بعد أن قطع الأمل من الشخص الذي أمامه:

ـ أنت لا تريد شراء ألبسة ولا غيرها.. أنت فقط تريد أن تمضي وقتك متسكعاً هنا وهناك.. أنت مدع لا تفهم شيئاً بالألبسة.

كان محقاً في كل حركاته وتصرفاته وتحقيره لنا.. لقد أوصله رفيقي إلى حافة الجنون فأوشك أن يبكي ويشد شعر رأسه ويضرب نفسه.. صديقي هذا لا يعجبه العجب ولا الصوم في رجب.

خرجنا من الدكان.. ولم نتم العشر خطوات، وإذا بالبائع يقطع علينا الطريق، وقال لنا بلطف:

ـ دقيقة أيها السادة، أرجوكما أن تتفضلا إلى المحل ثانية.. تذكرت بعد أن خرجتما من الدكان أن هناك لباساً خاصاً سيعجبكما، ويناسبكما تماماً.. كان هادئاً إلى حد ما.

وكما فهمت أن هذا الرجل، إن لم يستطع بيع زبون دخل محله، يظل أسبوعاً كاملاً لا يعرف النوم ولا الراحة.. فأمسك من ذراع صديقي بلطف وسحبه إلى المحل بلطف وهدوء.. وتبعتهما أنا الآخر من الخلف.

أحضر البائع بزة وقدمها له.. رثة للغاية ولا يمكن قبولها.. الثياب التي يلبسها صديقي أفضل منها بكثير.. صغيرة ولا يستطيع طفل في الخامسة عشرة من عمره أن يلبسها.

لما رأى صديقي البزة ضحك بسخرية:

ـ والله فعلتها يا عمي.. هذا اللباس لا يسعني.. وعندما ألبسه سأصبح مهزلة.. هل تسخر مني؟

ـ أستغفر الله يا سيدي.. البسه فقط وسترى.. إنه سيفتح على جسدك.. إنه مناسب لك تماماً. إذا لم يعجبك لا تأخذه، لن أبيعه لك بالقوة طبعاً.

ـ انظر يا أخي.. مقاسه صغير جداً.. إن رجليّ لا تدخلان في ساقيه.

ـ ارتداء الثياب ليس بالمال يا سيدي.. فقط البسه وسترى.

كان من جهة يتحدث، ومن جهة يحاول خلع ثياب صديقي بقوة مع معاونه.. ألبسه ذلك البنطال القصير والضيق الذي لا ينزل شبراً واحداً تحت ركبتي صديقي، فظهرت ساقاه المشعرتان للعيان.

ركب الشيطان رأسي وبدأت بالضحك. قال البائع:

ـ إنه يليق بكم كثيراً.. لقد ركز على جسمك تماماً. ما رأيك لو تلبس الجاكيت أيضاً؟

كان صديقي يصرخ بقوة:

ـ لا أريد.. لا أريد..

وبنفس اللحظة، وعندما أدخل يده في جيب البنطال.. حيث كان واقفاً أمام المرآة ينظر إلى نفسه بين حين وآخر، ويقف على رؤوس أصابعه، تغير وجهه فجأة وامحت تجاعيد الغضب الموسومة فيه.. وأشرقت ملامحه وقال:

ـ هذا البنطال يناسبني تماماً.. أعجبني كثيراً. أعطني سترته حتى ألبسها.

عندما أخذ البائع يلبسه السترة بصعوبة، أبت سواعده أن تنزل في أكمامها، ورفض جسمه أن يدخل فيها، فتمزقت من عدة أماكن. لا الأزرار تدخل في العرى.. ولا الخيوط تحملت الضغط.

قال صديقي وهو ينظر إلى المرآة ودون أن يرفع يده اليمنى من جيب البنطال:

ـ هذا جميل جداً.

قال البائع:

ـ وقماشه إنكليزي.

ـ واضح.

ـ ويا لهذه الخياطة!! إنها مهارة من الدرجة الأولى.

ـ نعم.

ـ لو فصَّلتها فلن تكون هكذا.. ثم إنها جديدة..

لم أستطع تحمل ما أسمعه فقلت:

ـ هذا مرقَّع ولك أخي.

بدأ صديقي بالدفاع عن ثوبه أكثر من البائع:

ـ هذه ليست رقعة.. وما أفهمك باللباس؟؟ هذا موديل!

قال البائع:

ـ تلبسونها بالسعادة والهناء.. وتقطعها بالصحة.

لا أدري ماذا فعل صديقي، وإذا بالبنطال يتفتق. قال البائع:

ـ هيا اخلعها كي أخيطها بسرعة.

قال:

ـ لا.. دعه هكذا أفضل بكثير.

عندها فهمت لماذا لا يخرج يده من جيب البنطال.. ولماذا لان هكذا..

قال البائع:

ـ أنت ذواقة بالألبسة.. ولك دراية بها.. أحسبها لك بثلاثمائة ليرة. والله لن أبيعها لغيرك بهذا السعر، كي أربحك زبوناً للمحل، وتعتاد رجلاك على الدكان.

التفت صديقي صوبي وقال:

ـ معك نقود أليس كذلك؟ ما رأيك لو تقرضني مائة ليرة؟

كان لديه ألبسة جميلة غالية وبمائة ليرة.. قال بائع الألبسة عندما وجدني بارداً وغير راض:

ـ إذا لم تودوا شراءها فلن أبيعها لكم بالقوة.. صدقوا، والله إنها خاسرة.

ـ لا.. لا.. سأشتريها.. لماذا لم ترني إياها قبل ذلك؟ لقد عذبت نفسك وعذبتنا الساعات الطوال..

ـ نحن الحرفيين لا نعرض البضاعة الجيدة إلا في الآخر.. لأن الجميع لا يقدرون قيمة البضاعة مثلك.

أنا الآخر لا أملك مائة ليرة.. كان معي ثمانون فقط.. ولا أدري كيف سأتصرف.. أما البائع فقد وجد الحل:

ـ أشتري الألبسة التي خلعتها عن جسمك بعشرين ليرة.

أعطيناه الألبسة والمال وخرجنا من الدكان.. قال صديقي:

ـ بالله عليك لنبتعد من هنا سريعاً.. هيا امش بسرعة.

كانت يده اليمنى في جيب البنطال الأيمن.. وكنت أفهم سبب هذه السرعة.. مشينا بعض الوقت فقال:

ـ سأذهب من هنا.. سأفترق عنك.. عن إذنك.. أشكرك جزيل الشكر..

ظن أنه سيخدعني، قلت له:

ـ انظر إلي.. هل تراني مهبولاً؟؟ أتظنني لا أعرف سبب تركك تلك الألبسة الجميلة، وشرائك هذه المهزلة؟

ـ اشتريتها لأنها لاقت بي كثيراً.

ـ نعم لاقت بك كثيراً.. وهناك ثقب في خلفك.. أمن أجل التهوية تركته؟! مهما يكن فنحن شريكان بالمبلغ الذي في جيبك.. أخرجه..

ـ هذا مستحيل وسط الزحمة. لنذهب إلى مكان هادئ على الأقل.

ـ سنتقاسمه مناصفة.

ـ وما المناسبة يا أخي؟ وما دخلك أنت؟ الثياب لي.. وما يخرج من جيوبها فهو لي.

بعد اتفاق طويل قال:

ـ أنت أعطيتني ثمانين ليرة.. لن تأخذ سوى حقك. عشرون بالمائة لك ولن أعطيك الثمانين ليرة التي دفعتها.

واتفقنا على هذا

عندما هزَّ ذراعه صار كمُّ البزة يتشقق من الكتف.. قلت له:

ـ خذ حذرك.. إن ذراع سترتك يسقط على الأرض.

دخلنا زقاقاً ضيقاً في مكان هادئ لنعد المال.. بدأ الأطفال بالجري خلفنا بعد أن رأوا منظر صديقي المضحك. وهم يصرخون.. يووو.. كنت أخجل، ولكن لم أشأ تركه قبل أن آخذ حقي منه.

دخلنا ساحة أحد الجوامع.. في مكان خال من الناس.. أخرج صديقي المحفظة من جيب البنطال.. محفظة جلدية قديمة ولكنها منتفخة.. كيف نسوها في هذا الجيب.. ألم يلاحظها أحد يا ترى؟

قلت:

ـ لا أريدك أن تغشني.. هيا عد المبلغ.

قلب صديقي المحفظة فسقطت منها رزمة من أوراق الإعلانات.. انحنيت إلى الأرض وأخذت واحدة منها وقرأتها:

(جميع الذواقة يلبسون من مؤسستنا.. نبيع ونشتري الألبسة المستعملة.. لدينا ألبسة للإيجار.. شرفونا تجدوا ما يسركم)

فهمت أنه لو جاء عزرائيل إلى محل بائع الألبسة هذا ليأخذ روحه فسيبيعه الألبسة حتى وهو في الرمق الأخير..!!

○ ○ ○

يكفي ربحُهُ

إنه يحب التجوال كثيراً في سوق البراغيث.. ينظر إلى الأشياء النادرة والجميلة.. وغير الصالحة والقديمة.. مثل الطاولات والمقاعد والثريات.. ويفرح كثيراً للأشياء التي لا اسم لها والمجهولة المنشأ ووجهة الاستعمال.

هنالك شخص عرض مجموعة من الأشياء الصغيرة على قطعة قماش فوق أحد الأرصفة.. نقود معدنية قديمة.. أزرار صغيرة.. وقطع معدنية نادرة.. ومزهريات.. وزجاجات فارغة.. وأشياء أخرى لا تعد ولا تحصى.

جلس هذا الإنسان القرفصاء وبدأ يقلب هذه الأشياء.. وكما في كل مرة، وبعد تقليب وتحريك ولعب، وإمعان نظر بهذه الأشياء.. يذهب دون أن يشتري شيئاً منها لأنها لا تفيده بشيء.. وكان يحب المرور بسوق البراغيث كل أسبوع مرة ليلهو وينظر هنا وهناك دون أن يشتري شيئاً.

فكر كثيراً بأشكال وأحجام هذه الأشياء العجيبة والغريبة التي كان يراها كل مرة.. ومجالات استعمالها وكيفية صناعتها..وسحبها وطرقها.. إلى ما هنالك..

على الناصية وضعت علبة فيها بعض النرود وأشياء أخرى.. بعيداً قليلاً عن العلبة مجموعة من الكتب المغبرّة، ومجلات أجنبية ظهر على غلاف أعلاها صورة لامرأة عارية، وربما على المجلات الأخرى أيضاً، ربما تكون مكتوبة باللغة الألمانية أو المجرية، أو بلغة أخرى. لم يكن شخصياً من شرّائها.. فقط كان يقلب صفحاتها بيديه ونظره، وانتقل إلى المجلة الثانية، ثم إلى الثالثة..وصل فيها إلى صفحة وبعدها قلب أوراق المجلة بسرعة عجيبة، ثم أطبقها بسرعة وسأل البائع:

- بكم هذه المجلة؟

لقد خاف كثيراً لأنه ظن أن البائع سيأخذ المجلة ليلقي نظرة عليها.

البائع الذي كان يعرف أن القيمة ستهبط إلى ربع السعر الذي سيضعه قال:

- أعطني ليرة واحدة.

أعطاه الليرة وهو يمسك بالمجلة بقوة. استغرب البائع تصرف هذا الشخص الذي دفع له الليرة دون إبطاء ودون مساومة لأنه كان يظن أن الرجل لن يعطيه أكثر من ربع ليرة. لم يشك الرجل بوجود خزنة كبيرة داخل هذه المجلة.

أسرع الرجل بعد أن طوى المجلة بيديه بقوة كي لا يقع ما في داخلها وابتعد عن المكان. وظناً منه أن البائع سيستعيد المجلة منه في أية لحظة. وهل من ضرر لو دخل مكاناً وعد المال الموجود داخل المجلة.. بعد أن ابتعد كثيراً عن سوق البراغيث دخل مرحاضاً عاماً وفتح المجلة بروية.. كان يخاف أن تهب ريح وتلقي بالمال داخل حفرة المرحاض. عد المال.. ستة عشر ورقة من فئة الخمسمائة ليرة.. أوراق جديدة..

أصبح بإمكانه أن يتزوج الآن، وثمانية آلاف ليرة في تلك الأيام لم تكن مبلغاً كبيراً.. ولكن.. ليكن.. فهذا المبلغ بالنسبة لإنسان فقير مثله يعد كبيراً. لكنه لا يستطيع أن يدخر هذا المبلغ طوال حياته.

* * *

كان رجلاً لا شكل له ولا رائحة ولا طعم.. ولكنه مع ذلك موجود. ولأنه كان يملأ جزءاً من فراغ هذا الكون.. إذن فهو مخلوق، وكائن.. إنه إنسان وفق الإحصاءات الرسمية ومواطن لأنه خدم في الجيش.. ويدفع الضرائب ويعاقب على أي جرم أو ذنب يقترفه. ولأنه كذلك، كان عليه أن يكثر نسله، أي أن يتزوج. وهذا واجب عليه.

إنه من القلائل الذين ينتقدون أنفسهم. كان يعرف ذاته ويعرف أنه لا شكل له، ولا طعم ولا رائحة.. على الدوام يدِّخر المال.. معه ثمانية آلاف ليرة اقتطعها عن نفسه وعن أكله وشربه وثيابه. ويعرف أن هذا المبلغ لا يكفيه للزواج.. وبما أنه بقي أكثر من عشر سنوات معزولاً عن الناس ليدخر هذا المبلغ.. لا ينخرط في المجتمعات ولا يتعرف إلى الناس.. فلا أحد يعرفه ولا أحد يقدره.. فكيف سيجد الفتاة المناسبة لتكون زوجة له.

قال السيد خيري والذي كان الرجل يكثر من زياراته له في الدائرة التي يعمل بها.. حيث كانت تربط بينهما صداقة إلى حد ما، في إحدى المرات، وأثناء الحديث معه:

ـ يكفيك عزوبية.. يجب أن نزوجك..

عندما سمع الرجل هذا الكلام لمعت عيناه بفرحة سرية كشف عنها جفناه.

قال وهو يحاول إخفاء فرحه وشوقه ولهفته:

ـ وأية امرأة ترضى الزواج بي؟!

لم يقولوا عبثاً إن «للبائع الأعمى زبوناً أعمى».. ولهذا السبب فقط ارتبط الرجل مع السيد خيري ارتباطاً عجيباً لأنه زرع الأمل في قلبه، مع أن السيد خيري لم يقل سوى هذه الكلمات عن الزواج. كان يشعر بفرح عظيم جداً عندما يقول له السيد خيري إنه سيزوره في منزله. فالسيد خيري رجل غني جداً، ومشهور جداً وطيب جداً بالنسبة إليه. وربما يأتي إلى منزله لأنه يعرف فتاة تناسبه.. حتى ولو كانت أرملة.. حتى وعندها أطفال سيقبل بها. ولا أهمية لعمرها.. ولتكن شقراء أم بيضاء أم سمراء.. فهي مقبولة ولا أهمية للون.. حتى ولو كانت أمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة..

وهل حقاً أن السيد خيري كان رجلاً غنياً ومشهوراً وطيباً؟ إنه لا يعرف ذلك.. تنبئ عن ذلك تصرفاته وكرمه وقهقهاته العالية ومصارحته.

في يوم ما كان قد صرح للسيد خيري أن بحوزته خمسة آلاف ليرة ادخرها

للزواج.. ولم يفض له عن المبلغ الكلي الذي يخبئه وهو ثمانية آلاف ليرة. فهو دائماً يحب أن يحتاط لكل طارئ.. ويشعر أنه لو تحدث عن ماله المدخر كأنه يصرفه لشيء تافه.. ولذا فإنه لم يكشف سوى عن الخمسة آلاف.

وأبقى الثلاثة آلاف الأخرى مكتومة.. فلا أحد يعرف ما يخبئه المستقبل. وربما سيأتي يوم يفصح عنه ويعترف به أيضاً.. لقد أقر بخمسة آلاف ليرة ليعطي دليلاً ويؤكد أنه يريد الزواج. وهل يدخر المال لسبب آخر؟ والسيد خيري يجب أن يعرف مدى استعداده. وبما أنه تأكد من ذلك فسوف يحضر إلى منزله.

ويا له من منزل!! فمنذ سنوات طوال وهو يعيش في غرفة صغيرة. وهذا ما ساعده على ادخار هذا المبلغ؟

كان عليه أن يستقبل السيد خيري في هذه الغرفة الخشبية الحقيرة الكائنة في حي شعبي خارج المدينة! إنه يخجل من نفسه كثيراً.. ولكنه سوف يقول للسيد خيري إنه بعد أن يتزوج سيجعل زوجته سعيدة.. وسيستأجر لها منزلاً جميلاً وسط المدينة وسيسعدها كثيراً.

لقد تباهى بنفسه كثيراً لأن السيد خيري سيحضر إلى منزله.. وصار كل من صادفه يعرف ذلك.. وأول شخص سمع بالخبر قال له:

ـ ماذا..؟ هل تقول السيد خيري..؟ خيري النصاب وليس سواه..؟ ولك عيني.. هذا الشخص يسرق الكحل من العين..

ـ ماذا سيأخذ مني..؟ وما الثروة التي أملكها حتى أخاف عليها؟

ـ يا أخي، هذا الرجل لا يهمه ما هو موجود أو غير موجود.. والله ينتزع سروالك الداخلي المرقع كي يتدرب. أن تشعر بذلك!!

أحدهم ذهب أبعد من هذا كثيراً:

ـ ولك.. خيري نفسه الذي يُجلس المرء على الخازوق.. هذا الرجل

يسحب الكفن عن جسد أبيه إذا كان خارج السجن.

ـ هذا لا يظهر عليه أبداً.

ـ مثله كالنصابين جميعاً.

جميع من أخبرهم أن السيد خيري سيزوره في منزله قالوا نفس الكلام، وأكثر من ذلك.. عندها قال:

ـ سأكون حذراً.

ـ حتى ولو حذرته عشرة أضعاف فحذرك هذا لن يفلتك من قبضته فلسانه يقطر عسلاً ويجعلك تعطيه كل ما تملك دون أن يطلبه منك. آمان خذ حذرك.. ها.

وقال أحدهم:

ـ في هذا الرجل تجمعت كل الرذائل.. النصب والاحتيال والسرقة.. وجميع المحرمات.

قال:

ـ ولكن وعدته.. ودعوته إلى منزلي يوم الأحد.

ـ الأفضل أن تهرب من البيت في الموعد المحدد.. وتذهب إلى أي مكان.. وعندما يأتي إلى المنزل ولا يجدك.. لن يرجع فارغ اليدين، فإما أن يحمل بابك ويأخذ معه أو ينتزع زر الجرس من مكانه.

ـ ولكني وعدته..

ـ إيه.. أنت أدرى بمصلحتك أكثر منا.. غير أن البكاء بعد ذلك لن يجديك نفعاً.

لم يلتق شخصاً واحداً ذكر السيد خيري بالخير.

ما إن جاء يوم الأحد حتى صارت أوصاله ترتجف خوفاً.. أين يجب أن يخبئ المبلغ الذي ادخره للزواج بعيداً عن متناول يد السيد خيري بعد

أن حرم نفسه من الطعام والشراب واللباس ليوفره؟؟ لم يضع الست عشرة ورقة جديدة في المصرف خشية إفلاسه. ولم يخبئه في المنزل مخافة أن يحترق فتذهب أتعابه أدراج الرياح..ست عشرة ورقة جديدة من فئة الخمسمائة بقيت فوق قلبه في جيب سترته. أما الآن عليه أن يخفيها في مكان آخر. ولربما جاء السيد خيري واحتضنه وشعر بالتضخم الموجود في جيبه فينشلها منه.. وإن وضعها تحت البساط القديم الذي يغطي أرض غرفته يكون أفضل. ارتاح قليلاً للفكرة، لكنه شعر أن هذا غير ممكن.

من المحتمل أن يتعثر به السيد خيري ويعرف مكانه.. يا الله! لماذا قال للسيد خيري أنه يملك خمسة آلاف ليرة؟ تناول المبلغ عن الأرض ووقف وسط الغرفة، وبحث عن مكان أمين يخفي فيه المبلغ. وضعه في درج الطاولة تحت مجموعة من أوراق الجرائد، وقال هذا مكان مناسب جداً.. ولكن.. ماذا لو فتح درج الطاولة..؟ يا الله..

بحث طويلاً فلم يجد مكاناً يضع فيه ماله ويبعده عن السيد خيري. بعد أن أفرغ علبة البن.. وضع الثمانية آلاف ليرة داخل العلبة وملأها ثانية بالقهوة.. لا.. لا فالخطورة تكمن هنا أيضاً. لأن ما سمعه من الناس يؤكد أن هذا الشخص يشم رائحة النقود من بعيد ويجدها.. هاه.. هذه علبة بيرة فارغة! ولأنها ملونة فلا يمكن رؤية المال من الخارج.. فرز الأوراق النقدية ثم لفها وأنزلها داخل العلبة.. أحس ببعض الراحة.. ولكن.. لا.. لنفرض أن السيد خيري حمل علبة البيرة بيده، وعرف ما في داخلها، لكسرها وأخذ المال..! كان على الرف كتابان، وضع النقود داخل أحدهما، ثم بحث عن مكان يخبئ فيه الكتاب.. فوضعه داخل الدولاب السلكي (براد الفقراء) تحت إحدى الطناجر.. لا.. هنا أيضاً غير ممكن.. غير أن موعد اللقاء اقترب والسيد خيري على وشك الحضور، وبدأ يدور داخل الغرفة وهو يقول: «أعطني عقلاً يا إلهي.. أنا على وشك أن أجن». لف المبلغ بورقة ووضعها داخل (بوري المدفأة..! فكر: (ربما قال السيد

خيري: الجو بارد هيا أشعل المدفأة)! أعادها ووضعها في جيبه الأمامي ثم في جيب البنطال.. ثم في الجيب الداخلي.. ولكن الانتفاخ واضح:

هنا.. وهناك.. هنا يراه.. وهنا لا يراه.. وهنا غير ممكن.. داخل الوسادة مقبول نوعاً ما.. ووسط هذا الارتباك الممتزج بالخوف دُقَّ الباب.. فتح الباب ووجهه يحاكي الليمون.. وإذا بشاب:

ـ يقولون إن السيد خيري سيزورك هذا اليوم.. فنظراً لانشغاله بعمل هام جداً وعاجل فلن يستطيع الحضور، وأرسلني لأعتذر عنه منك. وقال: لا يؤاخذني.

أووه.. الشكر لله.. لقد سَلِمَت نقودي.. ولن أخاف عليها الآن.. دخل الغرفة ليأخذها.. نظر هنا ونظر هناك.. آ آ.. المال غير موجود.. يا الله..! لقد وضعته تحت هذا الأصيص.. أين ذهب هذا المال..؟ وتذكر أنه أخذ النقود من الأصيص ووضعها على الرف.. وهنا أيضاً لا يوجد شيء.. تذكر أنه أخذه عن الرف لأنه يراه هناك ووضعه في جيب بنطاله المعلق.. قلب جيوبه فلم يجد المال..

بدأ يلطم وجهه ويبحث عن نقوده.. وظل هكذا أياماً وشهوراً طوالاً آمِلاً أن يجد ماله الذي اختفى في هذه الغرفة الصغيرة.. ولكن عبثاً.

لم يرو حادثة الضياع سوى لشخص واحد:

ـ ذهب المال.. ذهب..

ـ ألم أقل لك أن ذلك الشخص المسمى خيري الواطي يسحب المال منك.

ـ لا.. يا روحي.. السيد خيري لم يدخل بيتي.

ـ ليكن.. حتى ولو لم يأت يمكنه نشله.. تكفي ريحه ولك عمي.. أرأيت؟ لقد ضاعت نقودك بمجرد قوله: «سآتي إلى منزلك». ولا ندري ما كان سيحصل لو جاء فعلاً.

مستحيل بعد الآن أن يدخر مبلغاً كالذي أضاعه.. وبقي خمسة عشر عاماً يبحث عن نقوده التي أضاعها.. ومات قبل أن يتزوج.

لم يكن له أقرباء.. حتى وإن كان هناك بعضهم، فلا أحد يعرفهم. باع أصدقاؤه أمتعته التالفة، وأقاموا جنازته.. بيعت الأغراض إلى تجار البالي في سوق البراغيث.. بينها مجلات أجنبية ومجموعة من الأوراق اشتراها ذلك البائع أيضاً بالكيلو من مخلفاته.

* * *

ست عشرة ورقة من فئة الخمسمائة ليرة.. يعني ثمانية آلاف ليرة وجدها الرجل داخل المجلة.. ركض بفرح إلى منزله.. نعم.. لقد صار معه مبلغ من المال.. يستطيع الزواج بعد الآن.. كما أن إيجاد فتاة بهذا المبلغ سهل جداً.. خلال أيام قلائل وجد الفتاة.. تصادقا وتحابا.. وقررا الزواج. وفي اليوم المحدد ذهبا إلى السوق المغلق لشراء خواتم الخطوبة.

أعطى الرجل للصائغ ورقة من فئة الخمسمائة ليرة. تناول الصائغ المال ونظر إليه بدقة، وقلَّبه عدة مرات وقال:

ـ هذا المال لا يساوي شيئاً.

ـ لماذا؟

ـ إنه مال قديم جداً.. هذه الفئة من الأوراق سحبت من الأسواق.. هوه.. هوه.. منذ وقت طويل.

ـ ألا يمكن استبدالها من البنوك.

ـ مضى عشر سنوات على سحب هذه النقود من السوق.

خرج الرجل مع الفتاة من دكان الصائغ.. واكفهر وجه الفتاة من حراجة الموقف.

○ ○ ○

أقدمُ خالص احتراماتي

استيقظت متأخراً من النوم.. ثم متعت ناظري بمرأى فندق جميل ونظيف.. حلقت ذقني قبل القيام بأي عمل.. ودخلت الحمام فرن جرس الهاتف.. أخذت الجهاز الموجود قرب السرير دون أن أنشف جسدي. كان المتصل كاتب الفندق، قال:

ـ رجل يريد مقابلتك يا سيدي.

لملمت نفسي لأنني عار ومبلل.. سألت الكاتب وأنا أخبط مثل دجاجة مبتلة:

ـ من الذي يريد مقابلتي..؟

التفت عامل الفندق إلى الضيف وسأله من يكون ثم قال:

ـ أحد المعجبين يا سيدي يريد التحدث معك على الهاتف.

لو كان شخصاً آخر ما أردت مقابلته، أو أختلق حجة كي لا أقابله.. ولكن بما أنه من المعجبين فالأمر يختلف.

اعترتني قشعريرة من ظهري حتى أخمص قدمي.. وبانتفاضة واحدة تساقطت المياه من رأسي ثانية وتوزعت على جسمي.

ـ أعطني لأتحدث معه.

سمعت صوت معجبي على الهاتف:

ـ معاليكم حسن أفندي يا سيدي؟

وووو.. رعشة أخرى أصابتني.. هذه المرة ليس من البرد بل فخراً واعتزازاً بنفسي.

لا أحب هذه الكلمات.. «فخامتك.. معاليك.. جنابك» لأن محدثي عندما يردد هذه الكلمات.. يجبرني على قبولها عندما أرد عليه قائلاً: «أنا هو شخصياً»

ـ نعم أنا هو يا سيدي.

حتى صوتي كان غريباً علي آنذاك.

ـ ما إن سمعت بتشريفك هنا يا سيدي.. أسرعت بالحضور إلى الفندق، فأنا من المعجبين بكم.

أحسست بالبرداء تلف جسدي، وصارت أسناني تصطك، وبدأت بالعطاس لمرات متتالية.

ـ أستغفر الله يا أفندم.. هاتشووو..!

مسحت سماعة الهاتف بالمنشفة..

ـ أتمنى أن لا أكون قد أزعجت معاليكم..

ـ ها.. ها.. هاتشووو.. لا.. لا.. وما المناسبة؟

ـ أرجو ألا أكون قد أيقظتكم من النوم.. إن شاء الله لم تكن نائماً؟

ـ ما كنـ.. هاتشووو.. ما كنت نائماً.

ـ آه المعذرة.. لقد أيقظتك من النوم.

ـ لا يا أفندم.. ما كنت نائماً.. هاتشوووو..

ـ أنتم لا تعرفونني.. ولكن أنا أعرفكم جيداً.

ـ أشكرك جزيل الشكر.

لقد اقشعر بدني وأصبحت مسامات جلدي كحبات البرغل..

ـ ها.. ها.. هاتشووو.. هاي هاي يا أفندم.

ـ ما رأيكم لو تتكرمون وتتناولوا طعام الغداء معنا.. فأصدقائي

ينتظرونك ليحصل لنا شرف عظيم.

ـ أستغفر الله.

ـ رجاء يا سيدي..

ـ أنت تحرجني كثيراً.

ـ هذا فخر لنا يا سيدي.

ـ أمد الله في عمرك يا أفندم.

في حياتي كلها لم يحدث معي تصرف كهذا.. إنها لغة القصور والسرايات، وانتظرت وتحملت حتى ينتهي الرجل من كلامه. وبما أنه من المعجبين، لم أستطع الاعتذار منه بأن أقول: «أنا أستحم.. نتحدث فيما بعد» أو أن أقول: «يرجى الاختصار». كما أن إقفال سماعة الهاتف في وجهه خطأ لن أرتكبه. وبقيت عظامي ترتجف حتى أنهى كلامه.

كان معجبي ينتظرني في صالون الفندق. جففت نفسي، ولبست ثيابي ونزلت. كان خمسة أو ستة أشخاص جالسين.. أيهم معجبي يا ترى؟؟

ربما يكون ذلك المتأنق في لباسه.. وربما هذا البدين..

سألت موظف الاستعلامات:

ـ من الذي طلب مقابلتي؟

ـ السيد الذي يقرأ الجريدة.

كان منطوياً على ذاته تماماً، وشكله ليس كما يجب.. اقتربت منه.. نظر إلي من الأعلى إلى الأسفل وبالعكس.. تفحصني جيداً.. واتضح أنه هو الآخر أحس بما أحسست به.. أي أنني لم أشبع عينيه.. وبدا عليه الندم لأنه تحدث معي باحترام شديد على الهاتف، وبما أنه بدأ الحديث باحترام فلن يتراجع عن أسلوبه.. نهض على رجليه:

ـ آه أفندم.. آه يا سيدي العزيز. شرف عظيم حصل لنا بحضوركم. لقد طال انتظارنا ونحن نقتفي أثركم.. تفضلوا لنذهب يا أفندم.

قدمني عليه.. وبدأ يمسح ظهري وذراعي ونحن نجتاز الباب. ثم ما لبث أن توقف حفاظاً منه على آداب الاستقبال.. وخرجنا من الفندق.

ـ لو تفضلتم وسمحتم، لنذهب إلى نادي المدينة فالأصدقاء ينتظروننا هناك.

ـ أستغفر الله..

ـ أو أنكم تريدون الذهاب إلى مكان آخر..؟ فلا مانع لدينا.. الأمر أمركم.

ـ أنتم تعرفون يا أفندم.

ـ حسب رغبتكم يا أفندم.

الاحترام الزائد والكلام الأكثر احتراماً وضعني في مأزق حرج جداً.. كان إلى يساري. والأهم من ذلك أنه لم يمش بمحاذاتي.. المهم أن نادي المدينة لم يكن بعيداً.. دخلنا صالون المطعم التابع للنادي.. فقدم لي الكرسي وأعطاني قائمة الطعام وقال:

ـ ما هو شرابكم المفضل يا سيدي؟

ـ لا أشرب نهاراً.. أشكرك..

بدأنا بتناول الطعام.. كنت أخجل كثيراً لشدة ما أحاطني به من احترام.. وما كنت أحسبني آكل طعاماً، أم ضرباً وقتلاً. لقد أمسك بذراع أحدهم وكان ماراً قربنا. قال وهو يشير إلي:

ـ انظر.. المفاجأة.. إذا قلت لك من هذا السيد فستحتار.. إنه السيد حسن!

قال الآخر:

ـ هل يعقل أن لا أعرفه يا سيدي؟! ما شاء الله.. ما شاء الله..

قال ذلك ثم تناول كرسياً وجلس قربي. وهذا يعني أن المصيبة الواحدة أصبحت اثنتين. تضايقت كثيراً من تلك الكلمات التي أسمعها: «معاليك.. حضرتي أنا.. أستغفر الله.. معلومكم.. يا سيدي العزيز.. كما أعرضها لكم».

ـ عجيب أمركم يا سيدي..! كيف تستطيعون الكتابة بهذا الأسلوب..؟ عجيب والله!

أقول وبصراحة: لقد أعجبني كثيراً هذا المديح.. وكذلك الإطراء والنفخ. كل هذه الكلمات كانت تعجبني إلا أنني كنت أشعر بضيق كثير أخفيته بابتسامة خجولة..

هذه المرة بدأ الاثنان معاً:

ـ هذه الكتابات يعجز أي كان عن كتابتها يا سيدي..! إنها من أمهات ومن أروع ما كتب..! كيف تكتبون هذه الكتابات؟!

ـ إنها عادية جداً.

ـ ما شاء الله يا أفندم.. كيف يتسنى للإنسان أن يكتب بهذه الكثرة؟! ما سر هذا يا سيدي..؟!

حتى لو كنت أعرف سره لما قلته.. لأنهم إن اكتشفوه أحسبهم سيباشرون بالكتابة فوراً..!

ـ سر هذا الشيء يا سيدي هو الضيق.. الأسرة الكبيرة.. والحياة الصعبة.. مما يجعلني مجبراً على الكتابة..

ـ هيه.. هيه.. هيه.. كاه.. كاه.. كاه.. ومن يصدق أن هذا الأسلوب الشيق وليد شظف عيش أو بدافع ضيق أو حاجة؟!

كان الآخر يضحك أيضاً:

ـ بما أن الأمر هكذا، أدعو الله أن لا يجنبك الضيق والحياة الصعبة.. هاه.. هاه.. هاه..

ـ زاد الله في ضيقك يا حسن أفندي.

انضم آخرون كثر إلى المائدة.. وكان صاحبي يزداد سروراً وارتياحاً كلما زاد عدد الجالسين معنا.

ـ أنا لا أحب الرسميات كثيراً، اسمحوا لي ونرفع التكلف فيما بيننا.

إي والله.. رضي الله عنك.. قلت:

ـ طبعاً يا سيدي، وما الضرورة للرسميات؟

بعدها صار يقول «حسن» بدلاً من «السيد حسن». ولكنهم كانوا يرددون اسم حسن كثيراً مخافة أن ينسوه.

ـ حسن..

ـ أفندم..؟

ـ كانت لك كتابات رائعة.. بأي أسلوب تكتب..؟ استمر على هذا النحو..

مع تقدم الوقت صاروا ينفتحون أكثر:

ـ يا حسونتي.

ـ أفندم..؟

ـ ولك، كيف تكتب هذه الكتابات..؟! أوضح ثانية لوجه الله..

ـ والله لا أعرف.. أكتبها لأن الكتابة عملي.

وازداد الحضور.. فأضافوا طاولة ثانية..

ـ ولك حسن..

ـ أفندم؟

ـ ما رأيك لو تشرح لنا كما شرحت آنفاً طريقتك في الكتابة.. ليسمعها من فاته ذلك من الأصدقاء.

لقد تولى صاحبي مهمة تقديمي للوافدين الجدد كونه أول معارفي وأقدمهم بعشر دقائق:

ـ ألا تعرفون حسن هذا..؟ لا يغرنكم منظره الذي يشبه السعدان..! من لا يعرفه لا يضعه في مصاف البشر..! ولكنه كاتب فذ..يعني.

ـ ولك حسن..

ـ أفندم؟

ـ قديماً كتبت مقالة.. بحثت من خلالها.... هل تذكرتها؟

ـ نعم.

ـ ولك حسن.. ما أروعها كتابة..! ولك «يلعن أمو».

صار أحدهم يربت على رقبتي ولعدة مرات ثم يقول:

ـ كاتب..! ما شاء الله..! كاتب..!

ـ ولك حسن..

ـ أفندم..؟

ـ ولك.. متى تكتب كل هذه الكتابات..؟ ولك.. «بوف.. يلعن أمو».

فانبرى أحد الحاضرين قائلاً:

ـ كاتب..! ولكنه قليل الناموس..! كاتب..!

ضقت بهم ذرعاً.. ولكنني لم آت بحركة لأنهم جميعاً معجبون بي.

قرص أحدهم وجنتي وهو يقول:

ـ الأهبل يكتب مثل السم..

لا أدري هل يمزحون.. أم يقولون الحقيقة؟ ما كنت أفهم.. حتى ولو فهمت، ماذا كان بوسعي أن أفعل؟! لا شيء.. لقد وضعوني على نار حامية وصارت مقصاتهم تنهشني. بعد مدة أصبحوا لا يذكرون حتى اسمي: «ولك»، «هاي»، «هيشت»، «انظر إلي»..

ـ ولكْ..

غضبت كثيراً ولم أستطع قول كلمة أفندم.. بل صرخت في وجهه:

ـ ماذا تريد ولكْ؟

ـ تلك الكتابات..

ـ ما لها؟

ـ والله لقد كان كاتبها قليل الناموس لأنه فكر في كتابة كهذه..

قلت في نفسي علي أن ألتزم جانب الجد بعض الشيء حتى يثوبوا إلى رشدهم.. تجهم وجهي وقطبت حاجبي.. ولكن ما هي إلا لحظة حتى انهال أحدهم على رقبتي صفعاً وضرباً وهو يصرخ:

ـ هايت.. إنه كالأسد.. ولك.

والذي إلى جانبي أنزل بمرفقه لكمة إلى صدري المفتوح وهو يقول:

ـ ولَكْ واطي.. أنت من يحول الأمور إلى نكبات..

بعد أن انتهى الجميع من تناول الطعام وقفت فجأة وصرخت بكل جدية:

ـ عن إذنكم..

فتعلقوا بذراعي ورجلي وسترتي..

ـ لا.. لا.. منذ أربعين عاماً ونحن ننتظر هذا اليوم.. هل نتركك.. ولكْ؟

أحدهم شدني من خدي.. والآخر ربت على ظهري.. وواحد صفعني على رقبتي.. ورابع داعب وجهي براحتيه...

صرخت:

ـ اتركوني ولك.. أريد أن أذهب.

ـ إن ذهبت وتركتنا هنا تكون أحقر رجل في العالم.

امتثلت لأمرهم وجلست.. باستمرار يمدحون كتابتي، لكن أي مدح..؟! «المادة الخاصة من القانون الجزائي التركي ـ ؟ ـ» مديحهم كله على هذا المنوال.. وكلما ازدادوا حقارة كان صاحبي يقول للآخرين:

ـ لا تنفخوه أكثر من ذلك.. يكتب.. ولكن ماذا يكتب..؟!

وقال آخر:

ـ صحيح.. لا نضخمه أكثر من اللازم.. كل الناس عندهم أعمال.. وعمل هذا الشخص هو الكتابة.

ـ حتى والدي يكتب أفضل منه.

ـ لو تيسرت لي أوقات فراغ لكتبت..

ـ فهل يستطيع هو أن يعمل في مجالاتنا..؟

قال أحدهم بعد أن لكمني لكمة قوية على خاصرتي:

ـ هيشت.. قل شيئاً ولك.. أصحيح ما يقولونه..؟

لقد نفذ صبري تماماً، قلت من أعماقي: «يا الله» متوكلاً على الخالق.. بادرت الجالس عن يساري بصفعة قوية على وجهه.. والجالس عن يميني وجهت صفعة قوية إلى رقبته.. آه لو رأيتموني آنذاك..لأعجبتم تماماً.. وصرخت فيهم:

ـ طبعاً أنتم أيضاً تستطيعون الكتابة أيها المهابيل (جمع أهبل)..

وفجأة خرجت القهقهات العالية. قال أحدهم:

ـ لا ولك عمي.. وكيف سأكتب..؟ كلامنا فقط للقيل والقال.. وهكذا يعني..

وقال آخر:

ـ أنا لا أعرف كيف أكتب رسالة ولك أخي.

أكثر من ساعتين قضيناهما على تلك الطاولة بين هرج ومرج.. ونهضنا جميعاً.. فأوصلوني إلى الفندق وتركوني هناك.

في الليل ارتفعت حرارة جسمي إلى (٣٩,٥) جراء البرد الذي لفحني عندما خرجت عارياً من الحمام.

في اليوم التالي بعد أن علموا بمرضي حضروا جميعاً لزيارتي. بعضهم أحضر الطبيب، وآخر جلب الدواء.

بعد يومين حضروا لوداعي في المحطة، وقد حمل كل منهم هديته.. كانوا يخاطبونني «السيد حسن».. وتصرفاتهم تدل على الاحترام الزائد. وعندما كانت الحافلة تتحرك قال الذي هاجمني أكثر من غيره في المطعم:

ـ لا تخرجنا من قلبك يا سيد حسن.. واذكرنا دائماً.

والآن أراسلهم جميعاً.. وكل رسائلهم تبدأ بالسيد أو بالسيد الأستاذ.. وتنتهي بعبارة «أقدم خالص احتراماتي».

ο ο ο

انصراااف يا أسطة

كان الأسطة مراد لا يتذكر حتى تاريخ ابتدائه بأعمال الحجارة وبناء الجدران. وذكريات طفولته الأولى كان محورها الأحجار والجدران والبنايات.. أما الأصوات الأولى التي تركت آثارها في أذنيه.. كانت أصوات المطارق والقاطعات التي تقطع وتكعب الأحجار.. والجدران التي تبدأ من الأساس حتى ترتفع وتناطح السحاب.. كل هذا يشكل اللوحة التي حفظتها عيناه.

لا يعرف أمه أبداً.. ولقد أخبره والده أنها ماتت عندما أنجبته. وكانت حياة الأسطة مراد وحياة والده متشابهتين إلى حد بعيد، فوالده أيضاً نشأ وترعرع دون أم فهو لم ير وجه أمه أبداً. جميع رجال قريته كانوا أباً عن جد حجارين ونحاتين وبنائين لا يعودون إلى قريتهم إلا في الشتاء.

عاش الأسطة مراد في قريته ثلاث سنوات فقط.. وبما أنه لا قريب له فيها فقد عاش عند قريب له في منطقة بعيدة عن قريته.

وكان والده يأخذه معه إلى الورشات حيث يعمل فيها وعمره لا يتجاوز الثلاث سنوات. وكان مراد يلعب فوق الجدران وبين أحجار الورشة التي يعمل فيها والده.. ولم يكن مراد يعتبر وحيداً أو يشعر بالوحدة.

أصدقاؤه كثيرون من الحجارة والجدران والحصى والمطارق وقاطعات الأحجار.. وكان يعتبر هذه الأدوات والأحجار مخلوقات فيها أرواح.. يحادثهم ويعاتبهم ويلاعبهم.. ينام مع والده في ليالي الصيف القائظة ضمن الورشة التي يعمل فيها. فوالده لا يعود إلى القرية مطلقاً، حتى

الشتاء كان يقضيه في المدينة.

وهكذا هجر مراد قريته ولم يعد إليها بعد ذلك مطلقاً.. لقد ولد وترعرع فوق خشبة مسرح. فكما أن هناك ممثلين من أب وأم فقط فالأسطة مراد هكذا.. لم يكن قد كبر وترعرع في المسرح ولكن ضمن مجموعة كبيرة من الحجارة والجدران مثل أبيه وجده ووالد جده.. كلهم كانوا حجارين وبنائين فهو على الدوام يسمع من أبيه ذكريات هذا العمل.. ولهذا فهو يقلد والده ويبدأ بتسوية الحجارة وبناء العمارة.. وجبل البيتون.. وأصبحت يداه الغضتان الصغيرتان مليئتين بالجروح، فلا شيء يملأ عالمه الصغير سوى الأحجار والحصى والجدران، وبتعبير آخر كانت الدنيا تعني بالنسبة له تسوية الأحجار وإعطاءها شكلاً هندسياً، وعمارة الجدران والأبنية والقرميد..

كلما كبر كان إدمانه على الحجارة والقرميد والجدران والبناء يكبر مع مرور الأيام.. كان عالمه الطفولي ولعبه من الحجارة.. ومع مرور كل يوم كانت تتحول إلى عالم حقيقي مبني من الحجارة. أما يداه الصغيرتان الناعمتان فقد اخشوشنتا باكراً.. لقد هشمتهما المطارق والكسارات. كان عمله لعباً ليس إلا.. ففي أحد الأيام سقط من أعلى البناية وفج رأسه.. وفي يوم آخر انهارت عليه كومة من التراب عندما كان يلعب في أساس بناء كانوا يحفرونه.. وبصعوبة انتشلوه من تحت الأنقاض.. وذات مرة علقت إصبع يده اليسرى بين حجرين كبيرين فكسرت.. ومرة أخرى سقط في بئر كلس حي غرق فيه حتى منتصف جسمه.

كانت علاقته الشخصية الفردية والآنية بأدوات البناء والعمارة تشبه إلى حد علاقة إنسان بإنسان آخر وضمن العائلة الواحدة. ومهما كانت هذه العلاقات فإنها تجلب له السعادة والسرور. إلا أنها بعض الأحيان كانت تضعه في مواقف صعبة جداً ومحزنة.. لم تكن الحجارة على

الدوام تتوافق مع القواطع، والمطارق، والأتربة، والجدران، والأدوات الأخرى.. كما أنها لا تكون على نمط واحد وبسلام وأمان.. فهي وفي بعض الأحيان، وكالمشاكل التي تحدث ضمن العائلة الواحدة، تسوء بين الحجارة والأدوات، وتتحول إلى صراع مرير فيبدأ وبأسلوب فنان متميز يسوي هذه العلاقة بشكل فريد من نوعه.. فأقسى أنواع الحجارة كانت تحني رأسها أمام حركات أصابعه الرشيقة لتأخذ الشكل الذي يريد.

لم يستطع الذهاب إلى المدرسة حتى أنه لم يفكر بذلك أبداً.. وعندما مات والده وهو في العاشرة من عمره.. لم يبق له في الدنيا من قريب أو نصير أو مدافع سوى الحجارة والأتربة والجدران والحصى.. بعد الآن لا صديق سوى هذه العُدد والأدوات. أصبحت بالنسبة إليه من أوفى وأعز الأقرباء.. لقد عمل عدة أعوام عند معلمين آخرين لتأمين طعامه فقط.. كانت مهمته «خذ هذا واجلب ذاك».. ولأن هذه المهنة قاسية ومجحفة ولا تترك مجالاً للخطأ.. أو لا تسمح بالخطأ أبداً.. فقد كانت تعصف بمن يعمل بها وتذيقه أقسى أنواع العذاب والآلام.. فقد خشن وجه مراد واشتد وهو بعد غض الإهاب.

وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره أصبح صانعاً من الدرجة الأولى يقدم الحجارة للبناء ويتقاضى أجراً كبيراً.

في السادسة عشرة من عمره أصبح مساعداً، وبعد عدة سنوات أصبح بناء مشهوراً وذاع صيته وزادت شهرته يوماً بعد يوم. ولكثرة ما كان يحادث الحجارة في صغره ويناقشها أصبح اليوم يجعل الحجارة الصماء والبكماء تتكلم.

حتى خلال خدمته العسكرية فقد بنى جدران ثكنته، ونحت أحجاراً كبيرة وكثيرة لأبنية ضخمة. تزوج عندما أنهى خدمته الإلزامية.. ولم يعرف أحد سبب انفصاله عن زوجته الأولى، ولكن وحسبما يدعون أن

زوجته لم تكن تحب الحجارة، ولأنها كانت عديمة المعرفة وضعيفة الحس بفن العمارة وجمال الأبنية والعمارات والجدران، فلم تدرك قيمة الأسطة مراد أبداً. لقد خدعته فلم يلمها ولم يتهمها بل تركها، لأنه كان يعرف نفسه أكثر من سواه.. إنه قاس وبارد كالحجارة التي عاشرها طيلة حياته.

تزوج الثانية. وهذه أيضاً كانت تغار من الحجارة التي يقطعها، ومن الجدران التي يعمرها، ومن العمارات التي يشمخ بها على الدوام. وتقول له باستمرار: «أنت تحب عملك أكثر مني» فتتشاجر معه وتحرد. فالأسطة عندما تزوج قرر التخلص من الوحدة، وظن أنه سيعمل على تمتين الجدران أكثر من ذي قبل.. رغبة منه في تقوية مهارته وحبه، مع حبه لزوجته وبيته وأولاده. ولكنه عرف سريعاً أنه قد أخطأ ثانية.. وظل يصبر ويتحمل كما يتحمل قساوة الحجارة وبرودتها، وفي نهاية الأمر انفصلت عنه زوجته الثانية أيضاً.

عندما بلغ الخمسين من عمره ذاع صيته في كل المناطق، وتهافت عليه المتعهدون والمهندسون يريدون إعطاءه تعهداتهم في البناء كي ينبيها.. كانت أصابعه ويداه الغليظتان المشوهتان رائعتين جداً في حركاتهما الإبداعية وصياغتهما للجمال.. لقد أصبح ذا إلمام عظيم في فنون البناء والهندسة كالمهندسين وأكثر، جراء تجارب السنين الطويلة الماضية. لقد وصل أرقى مراتب الفن والمعرفة نتيجة التجربة والعمل المتواصل.. وكان المهندسون والمعماريون الذين تخرجوا حديثاً يثقون بعمله فيتركون له حرية التصرف بالبناء.. حتى أن الناس كانوا يقولون: «هذه العمارة الجميلة بناها الأسطة مراد» فلا يذكرون أسماء المهندسين أو المتعهدين.

الصناع والمعلمون الذين يعملون معه يكنون له مزيداً من الاحترام، كما ويخافونه لأنه دائماً حاد الطباع قاس في عمله.

لقد أحضر عدداً كبيراً منهم، أي من معلمي البناء المقتدرين والمحترفين

مثله، وزجهم في خضم العمل.. وكلهم يحترمونه، لكنهم لا يحبونه لأنه على الدوام على أيديهم يراقب عملهم، ويزودهم بآرائه، وينفذون بإشرافه.

وعندما بلغ الستين من العمر أصبح مثل أي جدار عادي.. بنى جسوراً عديدة، وكانت عيناه تضحكان فرحاً عندما يرى الناس والحيوانات والعربات والسيارات تمر فوقها. كما بنى عمارات كبيرة وكثيرة جداً.. ولما يرى سكانها فيها يروحون ويجيئون ويعملون تغمر الفرحة قلبه، وتمتلئ عيناه بدموع الفرح والمحبة.. وأكثر ما كان يفرحه بناء المدارس، فيذهب بنفسه بعد أن يبنيها.. يراقب حركة الأطفال ويطرب لعربدتهم في ملاعبها.. ويشعر كأن هذه الأصوات والنداءات تخرج من أعماقه. فرحة عامرة وسعادة كبيرة تغمره بعد الانتهاء من كل مسكن وخلال حياته الطويلة والعملية كلها.. مرة واحدة فقط ترك العمل في مسكن دون أن يتمه.. لقد كان ذلك البناء سجناً.. وربما كان السجن ضرورياً.. وربما كان الجلاد ضرورياً في بعض الأحيان.. لكنه فضل أن يتم غيره هذا العمل، فقد اعتبر نفسه وهو يبني جدران السجن مثل عنكبوت يضع شباكه ليوقع فيه الآخرين ويسجنهم. أحس وكأنه يحفر لنفسه قبراً.. ولكنه شخصياً كان يحب الحياة ومرتبطاً بها.. ولذلك ولأول مرة يترك عملاً قبل إتمامه.. ولو لم يترك ذلك العمل سيبقى طوال حياته يكره عمله وفنه- وحجارته وجدرانه.

لا يعطل إلا قليلاً.. حتى في أيام العطلة لم يتوقف عن العمل.. كان يجهز الحجارة للناس الفقراء ويساعدهم في بناء بيوتهم الصغيرة. كان يفهم لغة كل أنواع الحجارة.. وكلها تفهم لغته.. وكأن لغة جديدة ظهرت إلى الوجود هي (الحجارية). وعندما يتعطل عن العمل، وهذا نادر جداً ما يحدث، يذهب ويراقب الأبنية والعمارات التي بناها في الماضي. كان يشعر بالعز والفخر عندما يشاهد العاملين هناك والسكان دون أن يشعر به أحد.

لقد شيد الكثير من العمارات والأبنية.. أما لنفسه فحتى الساعة لم يبن بيتاً، مع أنه كان يملك المال وباستطاعته أن يبني لنفسه بيتاً كبيراً جميلاً جداً. ولأنه لا يستطيع مراقبة نفسه ومنزله، ولا يشعر بالفرح كما يشعر به عندما يراقب البيوت والعمارات الأخرى.. أو ربما لأنه كان وحيداً ومسناً.

كان يتعجب من الناس عندما يعطونه المال بعد إتمام بناء كل بيت، فهو لم يعتد على هذا الإقبال حتى الآن لأنه شخصياً عندما يبني هذه الأبنية يلبي رغبة جامحة في نفسه، ويجد لذة ومتعة. كان يعمل من أجل نفسه وليس من أجل المادة.. كان يلبي طموحه ويقبض المال.. كان يبدع ويتفنن ليحقق سعادته فقط. لو كان غنياً لأعطى المال للآخرين كي يبني لهم العمارات كما يريد.. أما المخيف جداً هو أن يأتي يوم يمنعونه فيه من بناء الجدران والعمارات، وتسوية الحجارة ورفع الأبنية.

لما وصل السبعين من عمره بدأ يفكر بحزن، فالآلام والنوبات كانت تنتابه بين الحين والحين، ولم يخبر أحداً فهو لا يستطيع العيش دون حجارة أو جدران. وصل إلى قناعة بأن الحجارة والجدران لا يستطيعان الحياة من دونه، لقد اعتبرهما هياكل وأصابعه هي التي تضع الروح فيهما.

لما اشتدت آلامه.. أخذه أحد صُنَّاعه إلى الطبيب.. ويومها قال: «ثمة حصاة في كليته» عندها أطلق الأسطة مراد قهقهة عالية، وهو الذي لا يضحك إلا نادراً:

- إذا لم تظهر حصاة في كليتي يا حكيم، فما الذي سيظهر يعني..؟!

في الخامسة والسبعين أخذوه ثانية إلى الطبيب.. ويومها قال له:

- مع تكلس..

ابتسم الأسطة مراد، وكأن الطبيب قال له: «لم أجد فيك علة».

وقال البناؤون الآخرون الذين تخرجوا من مدرسته:

ـ كفى يا أسطة مراد يجب ألا تعمل بعد الآن.

المال الذي بحوزته يكفي مصاريفه ولو على مضض.. ولكنه لا يريد التوقف عن العمل.. كان ظهره المحني نحو اليسار قد احْدَوْدَبَ، وكانت رقابة شديدة تحدث في الخفاء بين الأسطة مراد والأسطوات الآخرين لأنهم كانوا يرزحون تحت ضغطه ومراقبته.. ولأن الناس يقولون لهم علناً:

ـ أين الأسطة مراد وأين أنتم؟! الفرق كبير بينكما..

كانوا يتألمون كثيراً في أعماقهم لدى سماعهم هذه التعليقات. كانت شهرته عظيمة بشكل كبير.. حتى ولو صاروا معلمين أكثر منه لبقيت مكانة الأسطة مراد أعظم شأناً عند الناس.

لكنه عندما بلغ الثامنة والسبعين من عمره، أصبح ثقيل الجسم لا يقوى على الحراك.. توقف عن العمل.. فقد خارت قواه وخانته عزيمته وأصبح لا يستطيع رفع المطرقة ولا رفع الحجارة.. حتى أن الوقوف أصبح صعباً عليه.. وعندما يسمع صنّاعاً يتباهون ويتفاخرون بعملهم كان يتسم ويقول:

ـ أعرفهم.. إنهم بناة حقيقيون وقادرون على كل شيء، لأنني أنا الذي دربتهم وعلمتهم. ولكن هناك خلافاً واحداً بيننا.. هو أن أبي كان معماراً.. ووالده.. ووالد والده كذلك، أي أننا معلمون أباً عن جد.. أما هم فمعماريون من عشرين أو ثلاثين عاماً فقط.. تاريخنا نحن يشهد لنا منذ ألف عام.

كان يحكي لهم قصة حياته وخبرته العملية..

وجاء يوم اضطر فيه الأسطة مراد على ملازمة فراشه، وأصبح عاجزاً عن مغادرته.. وحيداً لا أقرباء ولا زوجة ولا أولاد.. ولكن المعلمين الآخرين لم يتركوه وحيداً لحظة واحدة.. أما من يعوده من الأطباء كان يقول:

ـ لن يعيش طويلاً.. ربما يوم أو يومان.

مع أن الأسطة مراد الجبار لم يكن يريد الموت.. وكان يهذي على الدوام:

ـ أحضر حجراً..! أعطني شحنة..! ضع ملاطاً..! وهكذا...

طبعاً كان البناؤون الواقفون حوله حزينين جداً.. كان للأسطة مراد فضل كبير عليهم وجهد. لقد انتابهم شعور غريب سري في أعماقهم تجاه هذا العجوز والمعلم الذي تمنوا مراراً لو يمسحوا حتى اسمه من ذاكرتهم وذاكرة الآخرين.

ومرت ثلاثة أيام.. وخمسة.. وعشرة.. وخمسة عشر.. والأسطة مراد لم يمت.. كان يهذي على الدوام:

ـ أحضر حجراً.. أعطني.. ضع ملاطاً.

كانت عيناه مغمضتين ولكن صوته ظل قاسياً.. حار الأطباء من أمره..

معلم واحد أحب الأسطة مراد كثيراً.. كان يعمل في مدينة بعيدة.. ما إن سمع بمرض الأسطة مراد حتى ترك عمله وجاء وهو مضطرب جداً.. وفور وصوله وقف قربه.. كان معلمه لا يزال يهذي:

ـ أحضر حجراً.. أعطني مطرقة.. ضع ملاطاً..

لقد بح صوته قليلاً.. ولكن القساوة لم تفارقه.

ست ساعات والرجل مسمَّر قرب رأس الأسطة مراد.. والآخر يهذي ويهذي.. كاد أن ينفجر من الحزن عليه. قبَّل يديه الغليظتين والمشوهتين.. كاد جلده أن يلتصق بعظمه، ولم يبق سوى أوردة وجهه ويديه.. مضت أيام والأسطة مراد لم يعرف أحداً خلالها. قال أحد الموجودين قربه:

ـ المسكين لا يريد الموت أبداً.

قال من ترك عمله وجاء إليه:

ـ ما دام يهذي فلن يموت.

ثم تقدم وانحنى أمام الأسطة مراد وهمس في أذنه:

ـ أحضر حجارة.. ضع ملاطاً..ارفع..

تمتم الأسطة الشاب في أذن الأسطة مراد:

ـ أسطة.. أيها الأسطة الكبير.. انصراااف..

توقف صوته.. نعم لقد انصرف الأسطة مراد نهائياً عن العمل والدنيا.. دون كلل ولا ملل، ولا عمل ولا صعوبة.. لقد كان انصرافه سهلاً.. لما قطعت أنفاسه.

○ ○ ○

مجمع الأهنك

ماذا يفعل بواب بناية (الأهنك)؟

قال الأولون: «في الآخرة إيمان وفي الدنيا مكان». مقولتهم هذه كانت جميلة، فهي حكمة بحد ذاتها، لأنه من المستحيل أن يكون لنا مكان في هذه الدنيا لولا أن الموت حوَّل ألمنا إلى فرحة عظيمة.. عندما صار لنا بيت جراء هذا الموت..! كون أحد أقربائنا انتقل إلى دنيا الإيمان (الآخرة)، وبما أننا ورثته أصبح لنا مكان في الدنيا.. أخذنا بيتاً وأصبحنا ضمن الأقلية السعيدة التي تخلصت من علة الإيجار.. نعم.. نحن..!

في البدء سأوضح لكم كل شيء.. دائماً وأنا أردد نحن ونحن.. من نحن يا ترى؟! نحن جنود قادمون من جبال (الطاي). وكما جئنا من هناك مهاجرين، فمازلنا حتى الآن نعيش هذه الهجرة مع فرق واحد فقط: هناك كنا نمتطي ظهور الخيل، أما هنا فنمتطي الحافلات والسرافيس ونعاني من زحمتها.. هناك كنا نعيش ضمن الخيام وبيوت الشعر، أما هنا فنقاسي من مأساة الأجرة والاستئجار.

أووه.. لقد ارتحنا كثيراً لما صارت الشقة التي نقطنها ملكنا.. أتعلمون أن هذه الملكية الخاصة المقدسة تغير الإنسان فجأة..؟ تجعل منه أكثر أدباً وأكثر لطافة..؟ زوجتي التي كانت تهذي وهي نائمة وتصرخ وتشتم على الدوام وطوال أربع وعشرين ساعة، أصبحت بين ليلة وضحاها (ست هانم) من الدرجة الأولى بعد أن انتقلنا إلى شقتنا الكائنة في إحدى العمارات.. أقلعت عن الصراخ والشتائم، وأوشكت أن تتحدث بهمس. ولكي أسمع حديثها أجعل من يدي (ماسورة) أحولها نحو فمها حتى

أسمع حديثها. تتحدث بأدب وهدوء رائعين وتقول: «يا زوجي العزيز.. يا سكَّرة.. يا روحي..». نعم لقد أدهشني تأثير هذه الملكية الخاصة المقدسة على البشر..!

تتكون أسرتنا من سبعة أشخاص، كل واحد منهم يفكر نقيض الآخر. ثلاث فتيات عوانس بقين في المنزل، وولد طائش، ووردة لا تتفتح أبداً مليئة بالشوك على الدوام.. يعني حماتي..! وزوجتي التي تحولت إلى علبة كونسروة (عصبية). بعد أن ارتقيت من مستأجر إلى مالك لي بيتي الخاص، لم أقل عنها زوجتي أمام الآخرين، بل صديقة حياتي. نحن عائلة سعيدة مكونة من سبعة أفراد.. عائلة تعيش الصفاء العائلي.

وتعرَّف عائلتنا اجتماعياً أنها مجموعة من البشر لهم عنوان واحد، وساعي بريد واحد. ووحدة العنوان هذه هي الرابطة الوحيدة لأفراد أسرتنا.

لنأت إلى الجيران

المسكن حيث نعيش يحوي سبع شقق، وساكن كل شقة هو مالكها. عندما انتقلنا إلى شقتنا كانت ثلاث شقق مأهولة: على الطابق الأول المطل إلى الشارع يعيش موظف متقاعد مع زوجته وابنته، وعلى الطابق الثالث محام، وعلى الطابق المتوسط أي الثاني مقابل شقتنا يسكن شخص يعمل سمساراً.

بعد فترة قصيرة من سكنانا انتقل إلى الشقة التي فوقنا تماماً مصلح مذياع.. وعلى الطابق العلوي موظف محاسبة.. وبقيت شقتان من الشقق السبع لم تباعا، وهي الشقق الخلفية من الطابق الأول.. يعيش فيها البواب حالياً لأن شقة البواب لم تكن قد بنيت بعد.. فإذا بيعت الشقة حيث يعيش مؤقتاً عليه أن يخليها فوراً.

المحامي كان الأهم في البناية، ويعتبر خبيراً لا مثيل له. ولكي لا يبقى

دون عمل أو مال، يتدخل بين الزوج وزوجته، وبين الأخ وأخيه، والشريك وشريكه، والجار وجاره.. ويذكي نار الفتنة فيما بينهم في الوقت الذي يعيشون فيه بأمان وسلام.. ويظل يلاحقهم بذكائه وحنكته، ويضرب بعضهم ببعض حتى يوصلهم إلى المحاكم.. وهكذا يستلم دعاواهما دفعة واحدة. وفي نهاية الدعوى يعيد الأمور إلى نصابها، والأوضاع إلى ما كانت عليه قبل المحاكمة، دون أن يأخذوا عليه أي مأخذ.. يربح المال، ويرضي الطرفين، ولا يزعج نفسه.. هكذا يوقع بين مسافرين في الباخرة لا يعرفان بعضهما، فيدخل الشيطان بينهما ويجعلهما يتشاجران ليحتكما أمام القضاء.. وهناك يتدخل بينهما ويطلب مهما أن يتجاهل كل منهما الآخر.

وهذا يعني أن المحامي الجيد يجعل الأمور أكثر تعقيداً في بداية كل دعوى ثم يعيدها إلى ما كانت عليه قبلها.

أما الموظف المتقاعد وزوجته فكانا يعرفان كل شيء.. الداخل إلى البيوت الأخرى، والخارج منها وما يحصل داخلها أكثر من أصحابها.. وما شراؤهم الطابق الأرضي والقريب من المدخل إلا من أجل ذلك. هذا ما كنت أعتقده شخصياً، ثم تأكدت أن ظني في مكانه.. فالزوج والزوجة لا يغادران النافذة المطلة على مدخل البناء دقيقة واحدة. والموظف المتقاعد المصاب بمرض السكري لا يترك نوبته حتى ولو ضايقه الإدرار واضطره لدخول المرحاض، بل يظل منتظراً زوجته حتى تعود من المطبخ أو من أي مكان آخر لتستلم النوبة منه.. لا يغادر مكانه لحظة واحدة حتى ولو عملها تحته..! كالجندي الحارس الذي لا يترك محرسه قبل مقدم زميله. عندما أعود مساء أتلقى أخبار البناء كاملة من جاري المتقاعد هذا.. يقطع الطريق علي ويقص لي كل شاردة وواردة، ويقدم تقريراً مفصلاً عن كل ما يحدث في البناء منذ الصباح حتى المساء.. عن زوجة المحامي التي لا تعود إلى المنزل إلا عند بزوغ الفجر، فهي تلعب القمار طوال الليل،

وتخسر مبالغ كبيرة. أما زوجة المحاسب التي تزوجت مرتين قبل زوجها الثالث هذا، فتدّعي الصلاح، وتؤدي الصلاة والصيام، حتى صلاة النافلة، وزوجها يضربها على الدوام.. وأشياء كثيرة مماثلة من الأخبار الهامة وصلتني من جاري هذا، وكان يصر على أن يقدم لي تقريراً مفصلاً عن سكان البناء كل مساء.

أما ساكن الشقة المقابلة لنا وهو السمسار، فقد كان له فمٌ وليس له لسان.. رجل صامت على الدوام.

شقتكم أكبر من شقتنا

في الأسبوع الأول من انتقالنا إلى البيت الجديد، زارنا الجيران ليباركوا لنا، وليقولوا: «تسكنونه بسعادة إن شاء الله». فرددنا لهم الزيارة، ثم قمنا بزيارة مباركة إلى الجيران الذين انتقلوا حديثاً أيضاً، بادلونا الزيارة بمثلها.. وهكذا..

أصبحنا ممن يملكون بيتاً خاصاً بهم بعد أن أمضوا نصف حياتهم، لا بل ثلثيها دون منازل. وهذا يتطلب منا الجدية في التصرف، والرسمية في اللباس، واللباقة في السلوك.. أليست الملكية الخاصة مقدسة، وتحتم علينا سلوكاً يتناسب معها؟! فجأة، بعد أن أصبح كل منا يحمل صفة المالك، تحكمنا بتصرفاتنا.. فالاحترام واجب، ودماثة الخلق فرض يقتضيه الوضع الجديد. لم نعد بعد الآن ممن تصدر عن أفواههم رائحة القذارة في زوايا الإيجار والاستئجار.. وبكل تأكيد علينا أن نكون جديين ومحترمين فوق العادة.

كنا نبادر بعضنا بتحية الصباح كلما التقينا: «صباح الخير» باحترام زائد ولباقة لا مثيل لها، وكأننا ننحدر من سلالة اللوردات الإنكليزية العريقة. وعلى أية حال لا يستطيع من يسكن بالإيجار أن يتصرف هكذا، أو أن يعتبر نفسه على هذا المستوى من الرقي والأرستقراطية. ومن خلال هذه

الملكية المقدسة الخاصة تعلمنا أصول التحية ونظام الزيارات التي خلقت بيننا حواجز لا يمكن تجاوزها من حيث الأصول، ولا يمكننا التصرف عشوائياً كما كنا سابقاً حيث العلاقات القوية والصداقة الحميمة التي أبعدتنا عن كل تصنع أو تكلف.

ولكن جارنا السمسار زارنا يوم الأحد، وهو يوم عطلة، ضارباً عرض الحائط بكل الأنظمة والقوانين المستقاة من الملكية الخاصة المقدسة، خارقاً أعرافها وتقاليدها.

صباح أحد الأيام جاء لزيارتنا.. شربنا القهوة وجلسنا وكل واحد منا يتمثل عادات وأنظمة الملكية المقدسة الخاصة كما يفهمها.. نجلس باحترام، ونتحدث بلباقة بالغة.. و.. خرجت أستأذنه إلى المرحاض بحجة أنني سأجلب الجريدة، لأنه من المعيب على المضيف أن يترك ضيفه ويقول له: «أنا متضايق وأريد الذهاب إلى المرحاض كي أستريح».

بينما كنت أغسل يدي دنت مني حماتي وقالت: «هل هذا الرجل مجنون..؟! لقد أخرج حبلاً من جيبه وبدأ يقيس الجدران». هذا التصرف من حماتي أكد لي أنها تراقب الضيوف الداخلين إلى غرفة الاستقبال من خلال ثقب المفتاح. وربما أنها اعتادت ذلك لأنها أرملة من مدة نافت على خمسة وأربعين عاماً.. وأضافت: «أنا راقبته من ثقب مفتاح الباب». وفعلاً كان الجار السمسار يقيس الجدران بحبل يحمله في يده عندما دخلت عليه فجأة.. ولكنه جمع الحبل وأعاده إلى جيبه، وبقي قسم منه ظاهراً.. هذا التصرف غير اللائق لا يعجب صاحب ملكية مقدسة خاصة بأي شكل من الأشكال.

خرجت من الغرفة بحجة أخرى وراقبته.. فما كادت قدمي تتخطى الباب حتى أخرج الحبل وبدأ يقيس ما بين الجدران.. طولاً وعرضاً.. هذه المرة لم أفسح له مجالاً ليجمع الحبل المشدود فدخلت عليه مباشرة وقلت:

ـ ماذا تفعلون..؟!

قال:

ـ لاحظت أن بيتكم أكبر من بيتي، ولهذا أقيسه.

كانت شقق البناية بنفس الاتساع والارتفاع.. فقط صالون المحاسب الذي ضم إليه الممشى أو الشرفة كان أكثر اتساعاً منه في بقية الشقق.

ـ حسن.. وماذا لاحظت..؟ هل طابقنا أوسع..؟

ـ نتيجة القياس نفس الكبر والاتساع.. ولكن عندما أجلس وأنظر يتهيأ لي أن شقتكم أكبر من شقتنا.. قستها ثلاث مرات ولم أتوصل إلى شيء.. والله أمر عجيب.

إذا هذا السمسار الصامت قاس منزلنا وصالوننا ثلاث مرات ولم نشعر به. ومع هذا لازالت الشكوك تراوده. إنه يزورنا مرتين أو ثلاث أسبوعياً، وفي كل مرة يقوم بالقياس سراً.. وفي كل مرة لا يثق بقياسه فيتهيأ له أن منزلنا أكبر من منزله، وكما يقولون: «تتراءى دجاجة الجار إوزة في نظر الجار الآخر». لم يكن جارنا هذا ينظر إلى بيتنا كما ينظر إلى دجاجة الجار، بل كان يفكر بهذا المنطق: «بما أن غرفه وصالونه مليئة بالأغراض والمتاع، فإنها تظهر أصغر حجماً.. أما غرفنا وصالوننا تظهر عليه أكثر اتساعاً لأنها فارغة تماماً، ولأننا لا نملك أغراضاً ومتاعاً مثله». فهذه الحقيقة لم أقلها للسمسار الصامت أبداً. مجيئه في الأسبوع عدة مرات إلى منزلنا وقياسه للغرف والحمام والمطبخ والصالون سراً.. كان يسليني بعض الشيء. أحببت أن أفسح له المجال لذلك فأخرج من الغرفة أو المنزل بحجج واهية كي يقيس على راحته. لكنه اشتط في سلوكه ولم أعد أتحمل تصرفاته المزعجة التي اعتبرتها في البدء مسلية.. بدأت حركاته تكثر حتى صارت علة ومشكلة تؤثر علينا.. لقد أقنع الجيران أن منزلنا أكبر من منازلهم، وصاروا يأتون لزيارتنا ويقومون بقياس المنزل كلما سنحت لهم

الفرصة بذلك. فلو كان منزلنا أكبر من منازلهم فلماذا إذاً باعوه لي بنفس سعر منازلهم؟!

كانوا يظنون بأنهم قد (أكلوا الخازوق) أو هكذا كان يتراءى لهم. وكما سمعت فإنهم كانوا سيرفعون شكوى عاجلة للمحكمة بحق المتعهد وبحقي.. ولم يخطر ببالهم أبداً أن هذه الشقق السبع بنفس السعة والارتفاع والكبر. لقد تغلّبت الملكية المقدسة الخاصة على منطقهم المسكين.

في أحد الأيام ضبطت السمسار وهو يقيس البيت سراً فقلت له:

ـ هذه الحركات الطفولية غير الشريفة لا تليق بشخص مثلك وصل إلى مرتبة صاحب ملكية خاصة.

كيف وجدتم قولي..؟ هل كان مناسباً..؟ لم تبدر منه أية ردة فعل أو كلمة بعد أن قلت له ذلك.

وفي مساء اليوم التالي لتوبيخي السمسار طلب مني كل من زوجتي وحماتي وبناتي الثلاث أن ألبس ثيابي لأذهب وأقدم دعوى بحق المتعهد الذي اشترينا منه المنزل، وقلن إن البيت الذي اشتراه مصلح المذياع هو أكبر من منزلنا، وبما أننا اشترينا البيوت بنفس التسعيرة فيجب أن نقدم ضده دعوى مستعجلة.. وعبثاً حاولت أن أوضح لهن استحالة هذا الشيء.. كما فوجئت بأنهن أخرجن ربطة من الحبال وقلن إنهن قسن بيت مصلح المذياع.

قلت:

ـ ربما أخطأتن في القياس.

قلن:

ـ إذا كانت إحدانا قاست خطأ، أمن المعقول أن نكون كلنا على خطأ؟!

ربما معهن حق.. ولكن كيف تكون شقة الرجل أكبر من شقتنا؟! قلت:

ـ هذا غير ممكن أبداً.. إننا نسكن في شقق فوق بعضها، وكلها بطول واحد وعرض واحد.

ـ لم نقل لك إن الاختلاف في الطول أو العرض..!

ثم صرخن وبصوت واحد:

ـ الارتفاع.

قال شو..؟ إن الحمام عندهم أعلى بثلاثة عشر سنتيمتراً.. قالت ابنتي الكبرى:

ـ أنا من لاحظت هذا الشيء قبل الجميع /عذراً/ لأنني عندما دخلت إلى المرحاض ونظرت هنا وهناك، تراءى لي أن ارتفاع الحمام أكثر ارتفاعاً من حمامنا. فأعلمت أمي بذلك لكنها لم تصدقني.. هي الأخرى ذهبت إلى المرحاض ورأت بنفسها.

بدأت زوجتي بالكلام:

ـ ثم ذهبنا واحدة بعد الأخرى إلى المرحاض، وتأكدنا من ذلك بأنفسنا. والله إنه أكثر ارتفاعاً من حمامنا. وخشية أن يكون بصري قد خدعني قستها بنفسي.

ـ ولكن كيف قمت بعملية القياس..؟ هل يوجد سلم في الحمام؟

ـ لا يا روحي.. دخلت المرحاض مع أمي وقفت على ظهرها وقست بالحبل.. هاه.. هذا هو الحبل.. فإن لم تصدق قس أنت الآخر.

قالت حماتي:

ـ أدخل إلى الحمام قبلك وأنتظرك داخله.. ثم تأتي أنت بحجة أنك ستغسل يدك، وتصعد على كتفي وتقيس.

وبعدها...!؟ هذا عمل شائن وصبياني لا يليق بأصحاب الملكية الخاصة.

ـ وإذا ما رآنا أحد..؟

ـ ومن الذي سيرانا يا حبيبي..؟ نحن الاثنان في الحمام.. ولا يستطيع أحد أن يدخل علينا. (هل سيكبسون علينا يعني..؟)

لما رأتني حماتي صامتاً، قالت:

ـ تحسب أنني لا أقوى على حملك.. آ آ.. لا تهتم.. أستطيع أن أرفعك..

أخبرنا عائلة مصلح التلفزيون بأننا سنزورهم، وفيما كنا نشرب الشاي في الصالون غمزتني حماتي، ولاحظت زوجتي أنني تأخرت عن اللحاق بها فهمست في أذني قائلة:

ـ لماذا لا تتحرك ولك عيني..؟ المرأة تنتظرك في الحمام منذ ساعتين، ولا تستطيع التحمل أكثر. وإذ بها تخرج من الحمام وتدخل الصالون. جلست مقابلي وبدأت تحرك حواجبها ورموشها وعيونها.. ثم خرجت. رأيت أن لا خلاص لي من هذه الورطة.. فتحركت نحو الحمام متذرعاً بأنني سأغسل يدي.. دخلته فوجدت حماتي وقد أحنت ظهرها تنتظرني كي أصعد وأقيس. قفزت إلى ظهرها، لكن يدي لم تصلا إلى السقف.. والذي حصل آنذاك عندما قلت لحماتي:

ـ ارفعي نفسك قليلاً..

حاولت التطاول بعض الشيء مع حركتها، فسقطت على أرضية الحمام. وعلى صوت تكسر المرآة أسرع الجميع نحونا فوجدونا ملقين فوق بعضنا البعض على الأرض.. وبدأ الدم يسيل من جبيني.

صباح اليوم التالي قدَّم الجار المتقاعد وزوجته كعادتهما تقريراً مفصلاً

عن الحادثة إلى كل الجيران..

- ما هذه الحقارة..؟! (لا شفنا ولا سمعنا) عندما تريدون القيام بعمل لا أخلاقي قوموا به في منزلكم. ألم تجدوا مكاناً آخر غير مرحاض جاركم..؟! الله يعمي عيون الاثنين دفعة واحدة.

من المؤكد أن عيون الرجل شريرة.. يحشر امرأة مسنة في مرحاض الجيران.. وأثناء الزيارة..! هذا الموقف لا يصدق..! تصور كيف أن المرأة العجوز المسكينة ضربت رأس صهرها بالمرآة لتدافع عن شرفها من الأذى.. لقد وجدوهما على الأرض وهما في وضع لا أخلاقي..!

املكوا أنفسكم

أول من خالف الأصول والتربية والتصرف اللائق الذي وهبتنا إياه الملكية الخاصة المقدسة هما زوجة المحامي وزوجة السمسار.. فالمعروف أن النساء الأرامل عندما يتجاوزون الخمسين من عمرهن يعملن المستحيل لإيجاد زوج مناسب لهن.. وعندما يفشلن في ذلك يتحول حبهن للزوج إلى حب كبير لتربية القطط..

وزوجة المحامي التي لها زوج وأولاد، مولعة بالقطط كثيراً، فهي تربي في منزلها ثلاث قطط دفعة واحدة، وإحدى هذه القطط اعتادت أن تتبول فوق مساكب البقدونس والبقلة التي زرعتها زوجة السمسار.. وبما أن حديقة البناية ملك للجميع فقد قسمت بالتساوي.. قطعة لكل شقة، بالسنتيمتر.. وأجريت القرعة لمعرفة صاحب كل قطعة حتى لا يكون هنالك غبن أو خلل في التوزيع.. أسرع السمسار وزرع في أرضه بعض البقدونس والنعناع والبقلة.. والخس..

وقطة زوجة المحامي وكأنها تتعمد الإيذاء فلا تبول إلا على بقدونس ونعناع زوجة السمسار. وبالرغم من حدوث عدة مشادات كلامية بسبب القطة بين زوجة المحامي وزوجة السمسار، حتى وبعض الصدامات

والاحتكاكات، إلا أنها لم تخرج عن أصول اللياقة واللباقة التي وهبتنا إياها قدسية الملك الخاص، ولم تتخط حدودهما. وكانت زوجة الكومسيونجي تظهر بمظهر النظافة أمام الجميع، فهي على الدوام تمسح الغبار وترتب المطبخ والغرف، وتحتفظ لنفسها بهذا السلوك.. خاصة أنها أصبحت صاحبة ملك خاص.. فتثور وتغضب حتى لمشاهدة وبرة في البيت كأن شيئاً ما قد مس شرفها. كانت القطط الثلاث تطبع درجات السلم بالأوساخ في صعودها ونزولها. أما المشاجرة الأولى فقد بدأت عندما قالت زوجة الكومسيونجي(السمسار):

ـ رجاء.. اضبطوا قططكم.

غير أن زوجة المحامي لم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً.. كانت تسكن الطابق الأعلى.. والقطط ستنزل وتصعد، شاءت أم أبت، وكانت تقول:

ـ هل أضع القطط في كيس وأنزلها من النافذة يعني..؟ ثم إن أرجل القطط نظيفة وليس فيها أي شيء حتى توسخ الدرجات..

أما أكثر التجاوزات لحرمة الملكية الخاصة المقدسة هو أن القطط وأثناء لعبها في الحديقة كسرت أصيص الزهور:

ـ رجاء يا أفندم.. اضبطوا قططكم.

ـ لا تهتمي، سأشتري لك بدل الأصيص المكسور أصيصاً جديداً.

ـ هذه المسألة لا تهمني يا سيدتي.. ولكن قططك على الدوام تلعب فوق جدار الحديقة، وقد حفرت الجدران بمخالبها.. وعلى هذا المنوال فلن يبقى ما يسمى جدار.

ـ قبل كل شيء هذا الجدار ليس ملكاً لك وحدك.. إنه ملك الجميع.

ـ لم أفهم.. ولماذا يكون ملكاً للجميع..؟! بعد فترة تقولين إن جدار صالوننا ملك لك أيضاً..! أنا لا أريد أن تتسلق القطط جداري.

بعد أن كانت المشادات الكلامية والمصادمات على مستوى رفيع بفضل عطاءات الملكية المقدسة الخاصة لنا، فقد تبدلت بعد إقدام القطط على التبول فوق البقدونس والنعناع.. وأخذت نمطاً جديداً.. لقد نفذ صبر زوجة الكومسيونجي الصامتة:

ـ يا هانم.. يا هانم.. إما أن تكوني صاحبة القطط بحق وتضبطينها، أو أمسكها من رجليها وأجعلها نصفين.. أمزقها (جارت).

ـ هاي.. هها هاي ي.. جارت.. آ.. أتحسبين قطتي ورقة سميكة أليس كذلك..؟ أضحكتني والله.. سأجعلك طعاماً لـ.. قطتي.

ـ آه.. سيغمى علي الآن.. ما هذه المرأة..؟! يبدو أنها امرأة سوقية ليس إلا.. ولك.. أقول لك إن رائحة بول القطط قد غلبت على رائحة النعناع.. ألا تفهمين..؟! منذ أيام وضعت بعض النعناع على الحساء وقدمتها للضيوف.. خجلت كثيراً بسببك.. أقول لك اضبطي قطتك.. وكفى.

ـ آ آ آ.. جنت هذه المرأة.. والله جنت.. اسمعوا كلامها.. ولك أنا لا أستطيع وضع قطتي في كيس بلاستيك.

كثر الكلام من هذا القبيل.. ونسيت المرأتان أنهما من أصحاب الملكية الخاصة المقدسة.. وعادتا إلى الوراء.. إلى حياة الإيجار والاستئجار، واشتبكتا ببعضهما.. الرأس بالرأس والشعر بالشعر..!

هذا الموقف الأرعن أثر كثيراً على مشاعر وأحاسيس الملكية الخاصة لدى بقية الجيران.. هل هو مظهر حضاري يا أفندم.. أن تتشاجر امرأتان أمام الجيران..؟! إنه التخلف بعينه.. لم يكن أحد غيري من الرجال حاضراً أثناء الشجار، فتدخلت بينها:

ـ رجاء أيتها السيدات المحترمات.. أنتن من أصحاب هذا المجمَّع الجميل..

قبل أن أتم كلامي ابتعدتا عن بعضهما والتزمتا الهدوء والصمت، غير أنهما عاودتا المشادة ولكن بالكلام وضمن حدود الملكية الخاصة المقدسة..

أما خلافاتهما بسبب القطط فلم تتوقف في يوم من الأيام..

حق البواب

لم يكن هنالك أية خلافات بين سكان البناء بالنسبة لإيجار البواب.. وفجأة في أول أحد الشهور.. خرج السيد المتقاعد عن المألوف وبدأ بالتلاعب (العونطة) فادعى أنه مظلوم.. كل واحد منا كان يعطي للبواب عشرين ليرة في مطلع كل شهر. وبما أن المتقاعد وزوجته يسكنان الطابق الأرضي ولا يستعملان الدرجات أبداً.. فكان نصيبهما أقل منا بكثير لأن عمل البواب كان محصوراً في نظافة البناء والسلالم، فهما لا يطلبان منه شيئاً، ولم يسبق لهما أن أرسلاه «لا إلى البقال، ولا إلى الجقال» فقد كانا يشتريان أغراضهما من السوق بأنفسهما. أما العائلات التي تسكن الطوابق العليا هي من يجب أن تدفع أكثر من الآخرين، فهم يستعملون السلالم، وطلباتهم تتعب البواب كثيراً. كنا نسمع جارنا المتقاعد يتحدث مع نفسه وبصوت عال أثناء دخولنا من الباب أو خروجنا منه وكأنه يريد أن يسمعنا احتجاجه:

ـ ألا يوجد عدالة اجتماعية..؟ من باب منزلي إلى باب الشارع خمس خطوات.. ومن أجل نظافة هذه الخطوات الخمس أدفع عشرين ليرة في الشهر..؟ هذا ظلم.. وباطل.. نحن لا نوسخ الدرجات.. هل اشترينا بيتاً أم مصيبة..؟

ومن خلال الحقوق المكتسبة من الملكية الخاصة المقدسة كنا نتقصد عدم سماعنا ما كان يقوله الجار المتقاعد. ولكن عندما طالبناه بدفع ما ترتب عليه للمصباح الكهربائي الذي ركبناه على مدخل الباب الخارجي والسلالم قامت قيامته وصرخ:

ـ أنا لا يلزمني المصباح ولا ضوء المصباح الموجود على الباب.. أنا لا أخرج إلى الشارع في الليل.. حتى ولو خرجت.. أستطيع تلمس باب منزلي في الظلام ضمن هذه الخطوات الثلاث.

أما حماتي وزوجتي اللتان تصارعان خيالهما عندما لا تجدان من تصارعانه، فقد أشعلتاها حرباً ضروساً مع جارنا المتقاعد وزوجته حيث أنني كنت خارج المنزل.. وساعدهما الجيران في ذلك كون الموضوع يهمنا جميعاً. وهجموا على المتقاعد وزوجته بالكلام.. فلم يتركوا نوعاً من السباب والشتائم إلا وصبوه عليهما. ولدى عودتي مساء إلى البيت رأيت زوجتي وقد ربطت جبهتها بقطعة قماش كسابق عهدها، وهذا يعني أنها مضطربة جداً. أما حماتي فكان التجشؤ المتكرر وتناول الكافور بكثرة ينبئان عن عصبيتها الشديدة. جرت مشادة بينهما وصارتا تتناوبان الحديث وهما تقصان علي الحادثة. ولأنني قلت لهما: «خيراً..؟» أكون هضمت حقهما كاملاً لأن هذه الأقوال يجب أن تقال للمتقاعد وزوجته. وإن قلت لهما: «لم تفعلا خيراً» فستطبقان السماء على رأسي.. لقد عرفت ذلك سلفاً.. وبعد كل سؤال كنت أجيبهما: «آمان.. قلتما شيئاً جميلاً.. حسناً فعلتما.. سلَّم الله لسانيكما.. لا فض فوكما.. نعم قلتما خيراً». كان ردي عليهما كأي زوج يسخر من زوجته وحماته.

ألا ندفع مالاً يعني؟

وذات يوم وبينما كنت أستعد للذهاب إلى العمل وأحلق ذقني في الحمام، اقتربت مني زوجتي وهي تتنفس الصعداء:

ـ تعال.. تعال.. آمان.. تعال بسرعة.. اليوم جرت معركة بين زوجة السمسار وزوجة مصلح المذياع.. تعال واسمع..!

ـ الصابون على وجهي.. انتظري حتى أنتهي من الحلاقة.

ـ آمان.. يا لك من رجل بارد وحذر.. ستنتهي المشاجرة قبل أن تنهي حلاقة ذقنك.

حقاً كنت أتمنى أن أرى وأسمع تلك المشادة الكلامية، غير أنني لم أكن في موقف يسمح لي بذلك.. فدنياي الجديدة، وعالمي الجديد، عالم الملكية الخاصة المقدسة، اللذان يتطلبان الاتزان واللطافة وأشياء أخرى كثيرة لا يسمحان بذلك.. أريد مشاهدة ذلك دون أن يراني أحد حتى ولا زوجتي.. وذلك لاعتبارات نفسية واجتماعية كثيرة.. وتحت إصرار زوجتي المتكرر وقفت خلف الباب أستمع إلى الأصوات. في إحدى يدي فرشاة الصابون، وفي الأخرى مكنة الحلاقة.. ومن خلفي وقفت زوجتي تشرح لي سبب المشكلة من بدايتها بصوت خافت وهي أنه عندما كان البواب يمسح درجات السلم وصل أمام باب السمسار الذي قالت زوجته للبواب: «ساكنو هذه البناية يعطونك مالاً أكثر منا؟» فأجابها البواب: «لا.. كل منكم يعطيني عشرين ليرة» ثم قالت له: «نحن نجمع المال ونعطيه لزوجة مصلح المذياع، وبما أنها تنقدك المال تظن أن المبلغ كله منها فقط أليس كذلك؟ فتمضي ساعات طِوال أمام بابها تمسح المكانْ وتنظفه بصابون العرب.. وعندما تصل أمام باب منزلنا تمسحه كيفما تيسر.. وبسرعة». وفيما كانت تقول ذلك للبواب وبصوت مرتفع سمعتها زوجة مصلح المذياع فخرجت من بيتها مسرعة:

ـ يا هانم.. يا هانم.. لماذا تثبتين نظرك دائماً على بابنا؟ ما تريدين قوله قوليه لي شخصياً ولا تتحدثي من خلفي.

ـ ولماذا أتحدث من خلفك ولك حبيبتي..؟ أولاً أنا لا أنحدر إلى هذا المستوى، وثانياً استغلالكم للبواب يعرفه العالم كله.. كل شيء تطلبينه من البواب.. هذا ليس مجنداً لخدمتك.. هو بواب.. بواب.. هل فهمت..؟

هنا بدأت التنصت إليهما.. كانت زوجة السمسار تقول إنهم يرسلون البواب لشراء الحاجيات من السوق.. حتى أنهم يكلفونه بالأعمال المنزلية.. كما أنه يمسح لهم المنزل. أما زوجة مصلح المذياع فكانت تصرخ بأعلى صوتها:

ـ آ آ آ.. الله يعطينا الخير والصحة.. ويحفظنا من الافتراءات ولك حبيبتي.. أنت تستغلين البواب.. ألست أنت التي تركت طفلك الرضيع مع البواب وذهبت إلى السينما؟

ـ تووو.. عليك.. أيتها الفاجرة. اسمعوا يا جيران ماذا قالت لوجه الله.. أنتم شهود.. أنا سأرفع دعوى بحق هذه المرأة.

وفجأة أصبحت تتكلم بلطف وهدوء حسب الأصول كونها صاحبة ملك خاص.. وأضافت:

ـ الذنب ذنبي لأنني تنازلت وتحدثت مع واحدة مثلك.. لقد وضعتك في مقام كبير كونك صاحبة ملك خاص.. لكنني خدعت بك.

ـ اسمعوا أيها الأصدقاء كلام هذه المرأة العديمة التربية.. لقد اشتروا منزلهم بقرض من البنك.. وتتعالى علي الآن.. توور.

وبما أن وطيس المعركة قد حمي أكثر، لم يعد سماع الأصوات فقط يكفيني.. وعلي أن أخرج إلى ساحة القتال وأرى ذلك بنفسي.. فخرجت من وراء باب المراقبة واتجهت إلى مكان الشجار.. وإذا بكل الأبواب من الأعلى إلى الأسفل قد فتحت نصف فتحة أو بعض الشيء.. وكل الجيران يراقبون الأحداث أولاً بأول. كانت الأيدي والأرجل قد خرجت من خلف الأبواب ومن محطات المراقبة.. فالملكية الخاصة تمنعهم من مراقبة الأحداث أو سماعها ساعة حدوثها ومكانه.. ولذلك أخفوا أنفسهم ولكنهم كانوا يسمعون من وراء الأبواب.

الجيد في هذه المشاجرة أن مصلح المذياع كان غائباً عن البيت ولولا

ذلك لحدثت جريمة فالرجل قوي جداً.. أما زوجة السمسار الصامتة فلم تنطق ببنت شفة.

في اليوم التالي زارنا المتقاعد وزوجته في منزلنا وكأن شيئاً لم يكن. أما زوجتي وحماتي ومن خلال الحق المكتسب الذي منحتهما إياه الملكية المقدسة الخاصة، تصرفتا بلباقة وأدب واحترام مع الضيوف وكأنه لم يحدث شيء بينهما منذ عدة أيام بسبب البواب والمصباح الأوتوماتيكي.

كان المتقاعد وزوجته يعيبان كثيراً على تصرف كل من زوجة السمسار وزوجة مصلح المذياع.. قال الزوج:

ـ لقد اختل نظام البلد يا سيدي، فكل من يستطيع أن يجمع قرشاً من هنا وقرشاً من هناك يمكنه شراء منزل.. تكون النهاية هكذا.. ولا أعلم أين ستوصلنا هذه الطريق.

قالت حماتي:

ـ أنت محق يا سيدي. أصلحنا الله.. الإنسان الذي كان يسكن الأحياء الشعبية، ثم يصبح صاحب دار، تكون معه النهاية هكذا.

من الأعلى ضجة ومن الأسفل صرخة

لا.. لا.. نحن لا نستطيع العيش ولا السكن في هذه البناية.. الإيجار كان أفضل من هذه العيشة بكثير. ولن نتمكن من الانتقال إلى مكان آخر لأننا اشترينا هذه الشقة بقرض كبير أخذناه من البنك، ويترتب علينا دفع أقساط البنوك وبدل الإيجار فهذا غير ممكن أبداً. إنه عبء ثقيل لا أقوى على حمله، والأفضل أن أبيع هذه الشقة وأتخلص نهائياً. لو جاءني أحدهم ودفع المبلغ الذي دفعته، حتى ولو أقل بشيء يسير فأنا راض ببعض الخسارة.. وأبيعه على الفور.

خلال الأشهر الأولى لسكنى هذه الشقة لم يحدث ما ينغص علينا حياتنا.. ولكن عندما اشترى أحد الأطباء الشقة المقابلة لشقة المتقاعد لم

يبق للبيت ولا للبناية أي طعم. لقد كان الاثنان الوحيدين في البناء بدون أولاد.. وبما أن الزوجين يذهبان إلى العمل في النهار فقد كنا بغيابهما ننعم بالهدوء. ولكن عندما يعودان في المساء، كانت الراحة تطلقنا لأنهما كانا باستمرار يضربان من الأسفل ربما بعصا غليظة أو بقطعة حديد أو أي شيء قاس.. ويضربان سقف غرفتهم.. ولماذا؟ يدعون أننا نزعجهم. يا روحي يا سيدي.. ليس عندنا أطفال صغار حتى نحدث ضجة دائمة.. عندي غلام كالوتد الكبير وثلاث فتيات عوانس.. طبعاً هذا منزل.. وطبيعة المنازل واحدة.. ربما تصدم الأخت أختها وتسقطان على الأرض.. ربما يسقط صحن أو منفضة سجائر..

من خوفنا لم نعد نضحك أو نتحادث بصوت عال.. صرت أضع رأسي بين الوسائد عندما أعطس.. إن اشتغلت الغسالة أو المكنسة الكهربائية كانت الضربات تتصاعد من الأسفل.. حتى صرت أخشى على أرضية شقتنا من الانكسار.

صدقوا أو لا تصدقوا.. ما سأرويه يبدو بالنسبة لكم مجرد وهم، أما بالنسبة لي فهو عين الحقيقة. لا بد لطنجرة البخار أن تصفر عندما يبدأ ما في داخلها بالغليان.. لو تسمعونهم ساعتها.. لم يتركوا كلاماً سيئاً إلا وقذفونا به..

ـ يا سيدي ما تقولون إنه ضجة ليس سوى صفارة طنجرة البخار.

ـ آ آ.. هذا أسوأ بكثير.. تريدون تفجير الطنجرة لتهدم الجدران على رأسنا.

لا.. لا.. أدام الله زوجتي وحماتي.. لو أني أتركهما لحظة واحدة لقامتا بالواجب على أكمل وجه. ولكني قلت في نفسي ومن خلال ما تفرضه علي التربية الحسنة التي اكتسبناها من الملكية الخاصة المقدسة.. إنهما مواطنان ويحق لهما العيش مثلنا، ولهذا السبب كنت أمنع زوجتي

وحماتي من القيام بواجبهما تجاه هذه العائلة..

لم يكفهم كل ما ادعوا وأذاعوه وعادوا يقولون: «إنكم تشخرون ليلاً».

يا ناس، أليس هذا منزلي يا سيدي؟ إن أردتُ الشخير فأشخر وإذا أردتُ الوقوف فأقف.. ما علاقتكم؟ قالوا: «عيب على صاحب شقة وملك خاص أن يشخر». قلنا لهم: «نحن في حياتنا لم نشخر، وأنتم تفترون علينا ليس إلا». بعدها أتعلمون ماذا فعلوا؟ سجلوا شخيرنا على كاسيت من الطابق الأرضي وأسمعوه لكل الجيران. وهذا يعني أنه لم تعد هناك حُرمة لمنزلنا..

هذا ما جرى لنا مع الساكنين تحتنا.. وماذا عن الذين فوقنا.. ما إن يعود مصلح المذياع إلى منزله حتى يبدأ الصراخ والعويل.. هذا الرجل... عفواً.. المعذرة.. هذه الكلمة سقطت مني سهواً فمن المعيب أن أتفوه بكلمة كهذه كوني صاحب شقة خاصة.. هذا الشخص ينتهي من أولاده ويبدأ بضرب زوجته، ويترك زوجته فيبدأ بضرب أولاده.. نقضي الليل كله نستمع إلى بكائهم. لم أعد أحتمل.. في أحد الليالي صعدت إلى الطابق العلوي وطرقت الباب كوني صاحب ملك.. أتحلى بالخصال الحميدة.. وبصوت خافت وناعم.. ولن أكذب.. وكنت خائفاً بعض الشيء قلت لمصلح المذياع:

ـ المعذرة.. يا سيدي.. أن أزعجتك بعض الشيء.. هنالك ضجة كبيرة مصدرها بيتكم.. أرجوكم أن تخففوا منها بعض الشيء.

قال:

ـ وأين هذه الضجة..؟

ـ في منزلكم.

وما هي إلا لحظة حتى هجم علي وأمسكني من ياقتي وهزني بقوة

كما يهز شجرة التوت وهو يسألني:

ـ ما هي الضجة التي تصدر عن بيتنا..؟ آه.. هيا قل ما هذه الضجة؟

ـ وما أدراني بضجيج منزلكم يا سيدي.

ـ هيا تكلم، ما هذا الضجيج؟

أنت وحدك تعلم سبب هذه الضجة.. أنا لا أعلم ذلك.. ما أعرفه أن مصدر هذه الضجة هو بيتكم.

ـ هيا قل ما هذه الضجة؟

كان يصرخ بأعلى صوته:

ـ هيا.. تكلم.. ما هذه الضجة؟

يا للمصيبة..! أنا في الطابق الأسفل.. فكيف لي أن أعرف سبب الضجة التي تصدر عن بيته؟

الوقت متأخر جداً والرجل يصرخ بأعلى صوته، والأبواب بدأت تفتح واحداً إثر واحد.. بدأ سكان البناء يتنصتون علينا. وكما يقولون: «لا يقدر على قليل الدين سوى قليل الإيمان». هنا تأكدت أن هذه المقولة صحيحة.

وإذا بزوجة السمسار الصامتة.. تصعد أربع درجات من السلم واضعة يديها في خصرها مغمضة عينيها وفاتحة فاها وتقول:

ـ كفانا ما لقينا منكم ولك.. ألا تستحيون على أنفسكم.. أنتم أصحاب بيوت من الدرجة الأولى تووره عليكم.. تووره..كل ليلة.. كل ليلة.. هذا ما لا يتحمله أحد.. وتسأل دون خجل وحياء.. ما هذه الضجة..؟

واي.. واي.. واي.. اختبأ مصلح المذياع خلفي بعد أن ترك ياقتي. خلصت نفسي منه وعدت إلى منزلي.. وقلت لزوجتي:

ـ لا يحق لمثل هؤلاء أن يكونوا من أصحاب المنازل الخاصة.. أوشكت

أن أرتكب جريمة. كنت سأقتل الرجل شرَّ قتلة.. البركة في زوجة السمسار.. أنقذته مني.

ولم يتغير الوضع أبداً واستمر الضجيج من الأعلى والصراخ من الأسفل.

اجتماعنا الأول

أعلم أن المحاسب جميع الجيران أنه يقترح عقد اجتماع لمناقشة جميع المشاكل المتعلقة بالبناء الذي نقطنه.

والحقيقة أنه اقتراح جيد، ولكن ثمة نقطة مهمة جداً وجب علينا معرفتها، وهي أننا كيف سننظر في وجوه بعضنا وكيف سنسلم ونتناقش..وكلنا متخاصمون.. لا نكلم بعضنا منذ زمن طويل.

ولكن ما حصل لم يكن كما توقعت، فلدى دخولي بيت المحاسب، كان أول المستقبلين لي شخصياً مصلح المذياع نفسه.. ولا أكتم سراً بأنني خفت كثيراً عندما سار نحوي.. ولا أكون كاذباً إن قلت بأنني حسبت الرجل سيهجم علي.. عندما يراني لأن غضبه لم يهدأ بعد. غير أني فوجئت بما يتحلى به من لطافة نابعة من الملكية الخاصة المقدسة.. لقد فتح ذراعيه وهو يقول لي:

ـ واي أفندم.. ما شاء الله.. أهلاً بكم..

ثم ضمني بقوة وقبلني عدة مرات..

بعدي جاء الدكتور الذي يسكن الطابق الأرضي. فتصرفت معه كما تصرف معي مصلح المذياع.. والنسوة أيضاً قبلن بعضهن.. ثم بدأنا النقاش في جو سادته المحبة والألفة. قبل كل شيء شكلنا لجنة مهمتها العمل لما فيه مصلحتنا ومصلحة البناء. وأجمعنا على أن يكون المتقاعد رئيسها.. في البدء اعتذر إلا أنه قبلها بعد إصرار الجميع.

قبل كل شيء يجب أن نجد اسماً لبنايتنا.. اقترح كل منا اسماً لها «يونجة» «يوفاميز» (عشنا).. زهرة البنفسج «إشيل». وكلما اقترح أحدنا اسماً.. كان الباقون يرفضونه. وبقينا ساعات طوال ولم نتوصل إلى قرار.. وبما أن الوقت أصبح متأخراً أجلنا الاجتماع للأسبوع المقبل.

في الاجتماع التالي قال المحامي:

ـ بما أن الاسم للبناية مهم جداً.. ويطلق عليها لمرة واحدة فقط. لذا علينا أن نفكر جيداً لنجد اسماً جميلاً.

قال المحاسب:

ـ هذا صحيح جداً.. لأن الغريب أو الضيف يسمع باسم البناء قبل رؤيته.

قال الدكتور والذي عرفنا أنه يحب اللغة التركية الأصلية ومغرم بها كثيراً:

ـ أويوم.. ما رأيكم بهذا الاسم (بناية أويوم)؟

قال المتقاعد:

ـ وما هذا الأويوم يعني؟ ماهو..؟

ـ أويوم يعني آهنك.. آرموني.

ـ إذا كان آهنكا لنضع اسم الأهنك.

قال:

ـ ما رأيكم لو نسميها (بناية الوحدة) فهو يناسب وضعنا.. وحدتنا ومساواتنا.

قال المحاسب:

ـ هناك أبنية كثيرة تسمى بـ (الوحدة).. يجب أن يكون اسم بنائنا معاصراً.

ـ ولماذا لا تذكر أنت الآخر اسماً؟

قلت:

ـ لتكن بناية (أورجينال).

تضاحكوا فيما بينهم لأنهم ظنوا أنني أمزح معهم. قال الدكتور الذي يحب التركية الأصلية:

ـ ما رأيكم بالدوزان؟..(بناية الدوزان)؟

اعترض المتقاعد مرة أخرى:

ـ وماذا بعد.. يا عيني..؟ قال الدوزان..! هل نحن من أصحاب مسلك الدوزان ولك أخي؟ ما رأيكم لو نضع اسم (دوزاباز)؟ ما معنى دوزان ولك يا روحي؟

ـ عربيتها نظام..

ـ هاه هذا معقول.. بناية النظام.

خمسة أسابيع.. وكل أسبوع نجتمع في منزل أحدنا.. فقط لنجد اسماً لبنائنا.. وآخر اجتماع عقد في بيت مصلح المذياع.. وكان علينا في تلك الليلة أن نجد الاسم مهما كلف الأمر. أصروا عليَّ كثيراً كي أقترح شيئاً ما.. فقلت لهم:

ـ بالنسبة لي أهم شيء في هذه الدنيا.. حتى في هذه الحياة.. وأقدس شيء هو الملكية.. الملكية المقدسة.. فالحروب كلها والانقلابات كان من أسبابها هذه الملكية.. ولذلك نطلق عليها اسم القدسية لبنايتنا «بناية القدسية».

قال المتقاعد:

ـ هل تقول القدسية..؟ وما معنى ذلك..؟

ـ القدسية تعني المقدس.

عندما اقترحت هذا الاسم كنا في منزل مصلح المذياع الذي كان يقتل زوجته يومياً. حتى تاريخه لم أكن أعرف أن زوجته تسمى (مقدس). ولدى خروج هذه الكلمة من فمي صرخ مصلح المذياع بقوة وكأن أحدهم أدخل في جسمه إبرة كبيرة، فقفز من مكانه وهو يقول:

ـ ماذا..؟ ماذا ستضعون..؟

ـ مقدس..

صرخ في وجه المتقاعد:

ـ في هذه الحالة ماذا ستقول إذا سألك أحد ما..؟ ستقول: الطابق الأرضي من (مقدس).. أليس كذلك..؟.. وأنت..؟

قلت:

ـ في الطابق الأوسط.

ـ أرجوكم.. هذا الشيء غير ممكن أبداً.

اقتربت زوجتي مني وهمست في أذني إن اسم زوجة مصلح المذياع هو (مقدس).. ساعتها صبغت الدماء وجهي من شدة الخجل وقلت لمصلح المذياع كي أخفف من غضبه:

ـ طبعاً.. معك حق في ذلك.. هذا غير ممكن.. قلت ذلك مازحاً.

قال المصلح بعد أن نسي اللطافة التي منحتنا إياها الملكية المقدسة:

ـ مزاح.. ولكنه مزاح خرائي..

وبعد مناقشات طويلة أسميناها (أهِنْكْ)(*) لأننا كنا نريد العيش فيها بهناء ونمط محبوب.

بعد مدة طلب المتقاعد الاستقالة من رئاسة اللجنة، أو هيئة إدارة

(*) (تأتي بمعنى متناسق، وعلى حسب موقعها من الجملة. (المترجم)

البناية.. والحقيقة أنه كان يريد البقاء رئيساً وأن استقالته كانت شكلية والقصد منها التأكد من رغبة الجميع ببقائه، ومن ثم تكون موافقته منة عليهم. وهذا ما كان واضحاً من حركاته في الحارة، وقوله الدائم بأنه رئيس للهيئة.. ونشره ذلك في أوساط أهالي الحي والحرفيين.. لقد طغى اسم الرئيس على اسمه الحقيقي.. ولاحظت ذلك من سلوكه، فعندما يقال له رئيس كان يتحول فجأة ثلاثمائة وستين درجة دفعة واحدة مغتراً بنفسه ومتفاخراً، فغلام البقال، وبائع الحليب، وبائع الماء، والحارس.. ينادونه بالرئيس.

نصف الوقت من الاجتماعات الأسبوعية تمضي عبثاً.. هو يريد الاستقالة، ونحن نطلب منه البقاء.. مثل الحكومات المتعفنة.. في كل أسبوع يريد أن يحوز على الثقة.

من الذي يملأ أكثر؟

بقينا عدة شهور لا نعقد الاجتماعات الأسبوعية بسبب أزمة حلت بيننا. وأدت إلى بعض المناوشات والمنازعات بين العائلات بسبب دفع فاتورة الماء.. البناء له عداد ماء واحد، وكنا نتقاسم الفاتورة فيما بيننا، والجار المتقاعد يجمع المال من الجميع، وكل عائلة تدفع نصيبها بالتساوي مع الآخرين. قال الدكتور:

ـ نحن شخصان ليس إلا.. أنا وزوجتي.. نغادر منزلنا طوال النهار، ولا نعود إلا في المساء للنوم فقط. ونحن لا نشرب من ماء الصنبور.

والتفت نحوي:

ـ أنتم سبعة أشخاص في المنزل.. والضيوف لا ينقطعون عنكم أبداً.. فلماذا أدفع مثلك..؟

وقبل أنْ أجيب عن سؤال للدكتور، قفزت كل من زوجتي وحماتي كباشقين وتدخلتا بالحديث:

ـ ماذا تعني بقولك..؟ أيليق بك التحدث هكذا في هذا الاجتماع؟! وتمسكن نفسك من أجل بضعة قروش.. هذا لا يصدر عن صاحب ملك خاص أبداً.. آسفة لموقفك هذا.

وحسب ما فهمت بعد فترة أن سبب غضب زوجتي وحماتي هو أن الدكتور قد تناولنا وأمام الجميع بأننا نشرب الماء من الصنبور.. وتباهى أنه وزوجته يشتريان المياه المعدنية.

ليشربا المياه التي يريدان.. غازية.. معدنية.. لكن ما الداعي إلى الإعلان أننا نشرب من ماء الصنبور..؟

قالت زوجة الدكتور وهي موظفة في أحد البنوك لزوجها:

ـ آمان يا روحي.. أولادهم كثر.. والحياة صعبة جداً هذه الأيام. ماذا يفعلون..؟ وهل شرب الماء من الصنبور عيب؟

زوجة الدكتور بقولها هذا أعمت العين بدلاً من وضع الكحل عليها.. بعده لم يستطع أحد أن يهدئ زوجتي التي كانت تحترق من شدة الغضب:

ـ يا هانم.. هانم.. عودي إلى رشدك.. لا تجبريني على الكلام.. أنا لست عاقراً مثلك.. طبعاً سأنجب الأولاد.. إن كان باستطاعتك أنجبي أنت.. إذا أردت أستطيع أن أنجب الآن أيضاً.

وقالت حماتي:

ـ لا تردي على مثل هذه الأشكال.. إنهم يغارون من وجود الأطفال عندنا.

قالت ذلك لتهدئ الوضع، ولكنها زادت الخلاف حدة، كمن يريد إطفاء النار فينفخ فيها.. وتوترت الأجواء في لحظة واحدة..

آمان.. لا تفعلي.. بالله عليك.. لا تنظري إليها.. هذا لا يليق بكن

كونكن صاحبات ملكية خاصة مقدسة.. واستطعنا تحويل النساء إلى دائرة تلك الملكية المقدسة بعد جهد جهيد.

وأخيراً تقرر دفع فاتورة الماء وفق عدد الأشخاص في كل بيت، أي أن التسعيرة وضعت على كل رأس.. وطبعاً فنحن الذين أكلنا (الخازوق) أما زوجة السمسار فقد ادعت أنهما شخصان. ولكن عندها طفل رضيع عمره ثمانية أشهر.. وأن الدفع يجب أن يكون على الرأس وليس على العائلة الواحدة.

ـ نعم عمره ثمانية شهور.. ولكنه معفى من الرسم.. لأنه لا يشرب الماء.

ولما قالت ذلك قفزت زوجة المتقاعد:

ـ ولك حبيبتي.. الطفل يحتاج إلى الماء أكثر من الشخص الكبير.. ألا تغسلين ثيابه وحفاضاته القذرة؟

المهم، عملنا على تهدئتهن، واتفقنا أن توزع الفاتورة حسب الرؤوس إلى أن يتم تركيب عداد لكل شقة.. لم ينته الأمر عند هذا الحد فقالوا:

ـ أنسيتم الضيوف..؟ بيت المحاسب مثل الكازينو لا ينقطع الضيوف عنهم أبداً.

ـ هل هذا بيت أم كازينو؟ فالضيوف متواجدون عندهم على الدوام.. ألا يحتاج هؤلاء للماء..؟ ونحن الذين ندفع قيمة الفاتورة.. أووه.. ما شاء الله.

وقالت زوجة المحاسب المحترمة:

ـ قبل كل شيء.. إن المياه لا تصعد إلى منزلنا لأننا في الطابق العلوي، ونحن لا نعترض حفاظاً على بقاء (الأهنك) مترابطة.

بعد هذا الاجتماع المتوتر الذي لا طعم له ولا رائحة، حصل نزاع كبير

في منزلنا تلك الليلة.. فقد ادعت كل من زوجتي وحماتي وابنتي أنني قد وضعت شرفهن وكرامتهن على الأرض، وأنا رجل بخيل لأنني لا أشتري لهن مياهاً معدنية. واعتبروا ذلك إهانة لهن أمام الناس.

بعد تلك الحادثة صارت المياه المعدنية تأتينا من البقال كل يوم. لكن السيدات المحترمات بدأن بعرض عضلاتهن أمام الجيران.. فقد بدأن بمسح الأرض وأمام المنزل بتلك المياه.. وخاصة في الوقت الذي ستعود فيه زوجة الدكتور من العمل. أما حماتي التي تصب الماء على الدرجات وتمسحها كالبواب.. كانت تحاكي نفسها ولكن بصوت مرتفع:

ـ بما أن مياه الصنابير غير نظيفة فنحن نغسل أرجلنا والسلالم والأرض بمياه معدنية.

ثم تتوجه بالكلام إلى ابنتها القريبة منها وتقول:

ـ إنني أصرخ خصيصاً لتسمع تلك العجوز وتنفجر.. أووه.. لقد انتفخ قلبي.

لم أستطع التحمل أكثر من ذلك.. أمسكت بحماتي ذات يوم وقلت لها بأن هدرها لهذه المياه التي نشتريها من البقال، وغسلها للأرض والدرج بها تؤثر على ميزانية البيت، ويعتبر تبذيراً لا مبرر له.

ـ آ.. ولك ابني.. أنت مجنون..؟ هل يعقل أن أغسل الأطراف بالماء الجيد..؟ هذا مستحيل. لكنني أعبئ الزجاجة أو (البيدون) بماء الصنبور وأغسل بها الأطراف كي أجعل تلك العجوز الشمطاء تنفجر غيظاً.

بعد أيام عادت المياه إلى مجاريها متسلحين بالأصالة النابعة من الملكية المقدسة. فاقترح الرئيس تخصيص اجتماع لمعالجة بعض المشاكل المنزلية في البناية. وتم ذلك فعلاً في منزل الدكتور.. أما زوجتي وزوجة الدكتور فقد تظاهرتا بتناسي نزاعهما الكلامي، فقبلت كل منهما الأخرى.

كان موضوع الاجتماع فقط لشراء (شوفاج) للبناية. اعترضت على

الاقتراح لأنني كنت مفلساً، وشاركني في المعارضة المتقاعد. قال المحامي كي يثبت أنه يملك النقود:

ـ إذا كان الأمر هكذا.. فأنا سأشتري (شوفاجاً) خاصاً لشقتي.

وقال المتقاعد:

ـ إن وضعنا شوفاجاً مشتركاً أخشى أن تحصل بيننا نزاعات وخلافات أخرى.

ـ مثل ماذا يعني؟

ـ مثل: أنت استخدمته كثيراً وأنا استخدمته قليلاً.

قالت زوجة الدكتور:

ـ مثلاً، بما أننا غير موجودين في البيت نهاراً لا ندفع إلا نصف ما يترتب علينا.

قال المحاسب:

ـ ونحن أيضاً نزور أمي كل شتاء ونغيب مدة شهرين.

قبل أن يتوصل المجتمعون إلى قرار بشأن شراء الشوفاج أو عدمه، بدأ الحديث عن كيفية تشغيله.. ونوع المحروق: بالمازوت أم بالبنزين أم بالكهرباء؟

ـ بالفحم.. معقول.

ـ الذي يعمل على الفحم يزعج كثيراً.. دخان.. وضباب..

ـ إذا كان الأمر هكذا فما رأيكم بالفيول؟

ـ البترول يصدر ضجة كبيرة.

ـ فلوي..

أجلنا هذا الموضوع لاجتماع آخر، وبدأنا بمناقشة (الحفرة الفنية) فلقد

قال الرئيس:

- حفرة المجارير قد امتلأت ويجب أن نجمع بعض المال لندفعه لعناصر البلدية مقابل تنظيفها.

قال ذلك السمسار الصامت:

- ما مصير الأموال التي ندفعها كل شهر.. ولماذا نجمع المال لتنظيف هذه الحفرة فقط؟

عندما قال السمسار ذلك زأر الرئيس المتقاعد كسبع عجوز، وقال:

- إنني أقدم استقالتي من الرئاسة فوراً أليس لكم ثقة بي؟ خذوا.. هذه فواتير الحساب.. وبعد الآن لن أقبل الرئاسة من أمثالكم حتى ولو قتلتموني.

قال المحاسب:

- والله وبالله سأترك هذا البيت.. وليحصل ما يحصل. سأتركه يعني سأتركه.. وبالأصل لقد عرضته للبيع..

قال الدكتور:

- نحن أيضاً نبحث عن منزل.

وبما أن زوجة مصلح المذياع لا تستطيع لفظ حرف الراء جيداً فكانت تقول عن (الجورة الفنية) (الجوغة الفنية) وقالت:

- الذي يملأ الجوغة الفنية ينظفها على نفقته.

قفزت زوجة المتقاعد العجوز من مكانها تريد تصحيح خطأ المرأة:

- ليست الجوغة الفنية بل (الجوقة الفنية) يا هانم تعلمي أولاً ثم تكلمي.

- ولك حبيبتي.. أنا أنهيت المرحلة الإعدادية.. أما أنت فأميَّة لا تعرفين لا القراءة ولا الكتابة.

ـ هاه هاه.. تقول إنها أكملت المرحلة الإعدادية ست خانم ولا تستطيع أن تقول (الجوقة الفنية) بل تقول (الجوغة الفنية).

فيما كانت النسوة يتحدثن وإذ بهن يوقعننا بنفس أخطائهن:

ـ أنتما الاثنتان تتحدثان خطأ.. لا (الجرعة الفنية) ولا (الجقرة الفنية).

ـ الاثنتان سخرتا مني.

ـ وما هي الكلمة الصح.. هيا قلها لنتعلمها.. عدم المعرفة ليس عيباً، ولكن عدم التعلم هو العيب.

ـ الصح هو (الجرعة الفنية).

قلت ذلك وعرفت أن ما قلته كان خطأ فأردفت:

ـ أفضل شيء أن نسميها باسمها التركي (جورة اللغم).

قطبت النساء حواجبهن، وكأنهن أحسسن بالغثيان. قالت إحداهن:

ـ وماذا بعد..؟ هذا عيب.. لا يجوز التلفظ به هنا وضمن اجتماع عام.. يجب أن تقول (حفرة يا دستور) وهذه لا تقال سوى في الأحياء الشعبية من ضواحي المدينة.. أما هنا فيقال لها (الجوغة الفنية)

قال مصلح المذياع:

ـ حسن ما رأيكم لو نوزع كلفة تنظيف (جورة القذارة) حسب النفوس والرؤوس.. وكل واحد يدفع بقدر ما يطرح من القذارة.

قالت حماتي:

ـ لا تنظر إلى كثرة عددنا.. فنحن لا نخرج كثيراً إلى المرحاض.

لم نستطع الاتفاق على شيء.. وفيما كنا نتحرك للذهاب إلى بيوتنا عادت إلينا لباقة الملكية المقدسة.. وعلقناها كميدالية في رقابنا وبدأ كل منا يقول للآخر: »ليلة سعيدة» «تفضلوا لعنا كمان».. «سننتظركم».

البناية التي تشوه جمالها الفني

على مدى أربع وعشرين ساعة يومياً.. كنا نسب ونشتم المتعهد الذي باعنا هذه الشقة.. إنه من البحر الأسود، لأنه (دق فينا خازوقاً) وهذا الخازوق الذي أكلناه قاله لنا المحامي عندما وكلناه ليرفع دعوى باسم كل واحد منا إلى المحكمة ضد المتعهد. كانت دعوى المحامي أن المياه تتسرب من السقف أثناء المطر، فهو يسكن الطابق العلوي أما المصلح فقد ادعى أن مسكات الصنابير والأبواب والنوافذ قد خربت.. أما السمسار فبسبب التواء أخشاب الأبواب. الدكتور وزوجته فقد احتجا على عدم توافر الشروط الصحية لكثرة الرطوبة. أما أنا فلم أجد مبرراً لرفع دعوى أمام المحكمة ضد المتعهد. عندها أسرع المحامي إلى مساعدتي فجاء إلى البيت وأمعن النظر في جميع أنحائه.. وعندما دخل المطبخ وجد في الجدار شقين صغيرين فقال:

ـ انظر يا سيدي.. هذه الجدران متعفنة.. كلها متشققة.. والبناء سيتهدم.. وهذا لا يشكل خطراً عليكم فحسب بل على الجميع.. انظر لقد تشقق الجدار..

وعندما قلت له إن هذا التشقق ليس من الجدار بل من (التلييس) (الطيان).. قال:

ـ بالأصل هذا الرجل عديم الأخلاق والناموس، ألا تذكر كم دفعنا له؟ تسعون ألف ليرة عن كل شقة.. ولكن الرجل أثناء (الطابو) ذكر خمسين ألفاً ليتهرب من دفع الضريبة.

قلت:

ـ وهل هذه قلة وجدان أو ناموس حقيقية..؟

ـ طبعاً.. إن التهرب من دفع الضريبة جريمة يحاسب عليها القانون.

إثارة هذا الموضوع من أصله لم تعجبني، فالذنب الذي ذكره المحامي

وقال عنه قلة وجدان وناموس اشتركنا فيه جميعاً كي نتهرب من دفع الضريبة. سألته:

ـ ألم تطلب أنت شخصياً أن تسجل سندات التملك بخمسين ألف ليرة؟

قال:

ـ نعم.. لأن مدير الطابو، صديقي، هو الآخر اشترى شقة بثمانين ألفاً، وعند الطابو سجله بأربعين ألفاً. فإن كان هو قد فعلها لنفسه، فلماذا لا أفعلها..؟ هل أنا الغبي الوحيد في العالم؟ ولست أنا الوحيد الذي سيغني الحكومة.

مقابل هذا المنطق الذي واجهني به أقنعني بإقامة دعوى ضد المتعهد بحجة أن الجدران متشققة.

لنترك الدعاوى تأخذ مجراها.. في أحد الأيام دخل سارق بيت الدكتور في وضح النهار وسرق أغراضاً كثيرة. لقد اعتاد السارق دخول البنايات الأخرى المجاورة لأن دخوله للطابق الأول يكون سهلاً.

بعد حادثة السرقة حاول الدكتور تسليح نوافذ منزله بشبكات حديدية. أدام الله المحامي، لقد حرضنا على منع الدكتور من هذا التصرف.. وحسب قوله إن القانون ينص أنه إذا رغب أحد الأطراف من قاطني البناء تغيير أوصاف المنظر الخارجي لمسكنه عليه أن يحصل على موافقة الجميع.. وإذا حاول فعل أي شيء من هذا القبيل وقام بتغيير واجهة أو منظر البناء يحق للآخرين الادعاء عليه. وفيما كنا نحاول ردع الدكتور ومنعه من القيام بأي عمل، دخل السارق البيت ثانية وأخذ كل ما تركه في المرة الأولى.. فتحول الدكتور من عاقل إلى مجنون:

ـ يا جيران، إذا لم أضع شبك الحديد على النوافذ لن يبقى شيء في منزلي.

وكان أشد القاطنين اعتراضاً، المتقاعد الذي هو الآخر كان يريد وضع شباك حديد على نوافذه إلا أن إفلاسه منعه من ذلك وجعله أكبر معارض للدكتور وكان يقول:

- لماذا لا يدخل السارق إلى منزلنا؟ لو بقوا في منازلهم ما تمكن السارق من دخولها.. لماذا يبقيان على الدوام خارج منزلهما يتسكعان في الشوارع طوال النهار..؟ المرأة يجب تلزم بيتها.. ألسنا أرواحاً نحن أيضاً..؟

كان ضد عمل الزوج والزوجة.

لا نسمح لأحد المساس بكرامة ملكيتنا الخاصة.. لا وضع شبكات ولا سواه.. لا نسمح بتغيير الجمال الفني لبنائنا لأنه لا فرق بين مساس (الذقن الشريف) والمساس بشيء يخص الملكية المقدسة.

في نفس الأسبوع الذي اشترينا فيه خزانة خشبية صغيرة لمطبخنا دخل منزلنا أربعة أو خمسة من عناصر البلدية وأثناء غيابي.. ويذكرون كلمة مهندس ما مهندس.. وقالوا:

- لقد أجريتم تبديلاً ما في شقتكم.. وجئنا لنرى ذلك بأعيننا بناء على شكوى قدمها الجيران بحقكم.. سنكتب ضبطاً.

فأجابهم الموجودون في البيت:

- ما التغيير الذي قمنا به يا حبيبي..؟ اشترينا دولاباً لمطبخنا، هذا كل شيء.

لما عدت إلى البيت وسمعت هذا الكلام غلى الدم في عروقي:

- ولك عمي.. ألسنا أصحاباً لملكنا..؟

قلت ذلك عدة مرات بصوت مرتفع جداً وبشكل صراخ..

وعرفنا أن مقدمي الشكوى هما مصلح المذياع الذي يسكن فوقنا،

والسمسار الذي يسكن مقابلنا. وقررت أن أقف لهما بالمرصاد، ونصبت لهما كميناً.

ذات يوم اتصلت زوجتي هاتفياً إلى مكان عملي وقالت:

ـ تعال بسرعة.. في الشقة المقابلة يقومون بأعمال البناء.

أخذت إذناً من المدير، وركبت سيارة أجرة غير مكترث بالمال. وصلت المنزل فسمعت بأذني دق المسامير. ما الأعمال التي يقومون بها في بيت السمسار؟ ألهم حق بذلك؟ أيحق لهم تخريب البناء قبل الحصول على موافقتي..؟

طرقت الباب وقلت:

ـ أتجرون تغييراً في المنزل..؟ سأشكوكم إلى المحكمة.

ـ ما هذا التغيير الذي تتحدث عنه..؟ أدخلنا مسماراً في الجدار لنعلق عليه صورة.

ـ تمام.. ستهدمون الجدران، أليس كذلك؟

بعد عدة أيام أحضر مصلح المذياع شاحنة كبيرة مليئة بالموبيليا. اتفقت مع السمسار وقدمنا شكوى ضده لأنه أحضر كثيراً من الأغراض، وهذا الثقل يؤثر على أساسات البناء.. وسيعرضنا إلى خطر كبير.. أمعقول..؟ ألسنا نملك أرواحاً..؟ لماذا لا يحق لنا أن نشتري الأشياء الجديدة لمنزلنا.. وهو يحق له؟

في هذه الأثناء كان الدكتور قد بدأ فعلاً بوضع شبكات حديدية على نوافذ منزله من الخارج.. فلو أنه اكتفى بذلك فقط ما كنا عارضناه وتركنا له المجال ليعمل ما يشاء. أما عندما وضع إطاراً حديدياً مع الشباك على نافذة المطبخ الصغيرة اختلف الموقف تماماً بالنسبة لنا.. لقد تذرع أن البرد القارس في الشتاء يدخل من هذه النافذة، ومن ثم قال إنه وضع الإطار

عليها كي يضع لوحي زجاج فوق بعضهما ليمنع البرد عنهم. لم نختلف، ولكن لماذا جعل الإطار أكبر من النافذة؟

في إحدى الليالي.. وبعد أن انطفأت الأنوار في بيت الدكتور.. ذهبنا أنا والمتقاعد إلى النافذة وقسناها فوجدنا أن الإطار أكبر من النافذة بستة عشر سنتيمتراً، وهذا يعني أن شقة الدكتور أصبحت أكبر من شقتنا... ولما بدأنا بالصراخ دفعة واحدة، استيقظ الدكتور على صوتنا وقال:

- لا تقفوا أمام منزلي هكذا وتصرخون فنحن بعد منتصف الليل.. اذهبوا واشتكوا..

- إذن.. هكذا.. لا تلم إلا نفسك.. نتحاسب أمام العدالة (والعدالة أساس الملك) وأنت تخرب الملك. يعني أنك تغير أساس العدالة.. هل لك حق في ذلك؟

قال المتقاعد صارخاً:

- لقد برز الإطار عن النافذة أكثر من ستة عشر سنتيمتراً.. وهذا ما يؤدي إلى وقوع الحوادث.. لو مر أحدنا من هنا ليلاً واصطدم رأسه بزاويتها من يكون المسؤول..؟ طبعاً أنت..!

وقالت زوجة الدكتور صارخة:

- وما العمل الذي يضطركم للخروج ليلاً والمرور أمام نافذة غرفة نومنا حتى تضربوا رؤوسكم بها..؟

بعد ثلاثة أيام من هذه المشادة الكلامية بدأ ابن المتقاعد الذي سيصبح صهرنا يتجول في الجوار، ورأسه ملفوف بشاش أبيض.. قالت أمه:

- سأشتكي على الدكتور.. قلنا له أكثر من مرة إن ذلك الإطار سيسبب لنا كارثة ما.. وهذا ما حصل.. فرأس ابني الذي يشبه رأس الأسد أوشك أن ينفجر من شدة الصدمة.

وفعلاً ذهب المتقاعد وقدَّم شكوى بحق الدكتور لأنه تسبب في حادثة ابنه. غير أننا في قرارة أنفسنا لم نقنع بهذا التعليل لأنه من المستحيل أن يصطدم رأس الصبي بهذا الإطار.. اللهم إلا إذا ذهب وضرب رأسه به عمداً.. عندها يفج رأسه. قال المتقاعد:

- نحن فعلنا ذلك قصداً..ابني ماكر.. ذهب إلى هناك وضرب رأسه وجرحه كي ندعي على الدكتور.

وحسب ما تدعيه زوجة المحاسب، ولا أدري مدى صحة كلامها، فقد قالت لجماعتنا إن ابن المتقاعد يراقب الناس من النافذة، ويقف أمام غرفة نوم الدكتور ويراقب ما يجري داخل الغرفة من خلال فتحة الستارة.. وذات ليلة وقف يراقب منزل الدكتور، ولا أدري ما المنظر الذي كان يراه في الداخل.. حيث تحرك بشدة بسبب هيجانه واصطدم رأسه بالإطار، وصار الإصبع يدخل مكان الجرح، فوقع مغمياً عليه حتى أوشك أن يموت. موته لا يغير شيئاً بالنسبة لنا.. كان على وشك أن يخطب ابنتي الوسطى.. المهم، سلامتنا نحن، كأننا لم نر ولم نسمع شيئاً من هذا القيل والقال.. فإذا صدقنا ما نسمع وجب علينا قطع علاقتنا بالمتقاعد، حتى ولو ظاهرياً، فالموضوع بشكل عام هو مستقبل ابنتي.

ماذا يفعل البواب؟

سابقاً كان البواب يسكن مقابل شقة المتقاعد.. عندما اشترى الدكتور الشقة سبب لنا مشكلة كبيرة احتاجت محاولة حلها لأكثر من عشرة اجتماعات، ولم نتوصل إلى شيء.. فقد سدت في وجهنا كل السبل، فالمتعهد لم يبن غرفة صغيرة للبواب وكأن الأمر بالنسبة لرئيسنا المتقاعد طبيعياً جداً، فهو لا يدفع شيئاً للبواب لأنه لا يطلب منه خدمة، حتى لو بقيت العمارة بدون بواب فلا فرق عنده على الإطلاق.

قال المتقاعد في الاجتماع:

ـ بما أنه ما من مكان خاص للبواب، فعدم وجوده أفضل.

عندما قال ذلك كنت أجهز نفسي لأجيبه بما يرضيه، فإذا بزوجتي وحماتي تبدأان الغمز واللمز بعيونهن وحواجبهن وأيديهن وبكل جوارحهن.. فهمت على الفور قصدهما، فقد كانت علاقة ابن المتقاعد مع ابنتي الوسطى على ما يرام لأنهن ذكرن هذا الموضوع أمامي عدة مرات. على الأقل نزوج واحدة من البنات.. أما ما فعله ابن المتقاعد فليس بالأمر السهل.. آمان.. ليحصل ما يحصل.. إن كان يريد الصغرى نزوجها له. كما فهمت أن زوجتي وحماتي تريدان القول: «لا تضع الماء فوق الطبيخ الناضج.. ليتزوجا» قلت:

ـ نعم.. هذا معقول.. نبقى بلا بواب أيضاً.. ولم لا؟ وهل كان لنا بواب في البيوت التي سكناها قبل انتقالنا إلى هنا؟

تذكير أصحاب الملكية الخاصة المقدسة بالحياة الماضية خلق ردود فعل قوية فيما بينهم.. والحقيقة.. كلامي لم يكن يعجبني.

تقرر تفريغ قسم من القبو الذي يستعمل لتخزين الفحم ليقيم فيه البواب مع عائلته، وأخذ القرار بالإجماع، إلا أن الرئيس قال:

ـ أتعلمون أننا لا نخزن الفحم بالقبو لأنه يبقى مملوءاً بالماء صيفاً وشتاء.. فكيف سيعيش البواب مع عائلته وسط هذا الماء؟؟

سأله المحامي:

ـ كم متراً عمق المياه؟

ـ ربما تصل إلى نصف متر.

ـ إن كان الأمر كذلك فلا أهمية له على الإطلاق.. ويمكن أن يصبح القبو غرفة للبواب تماماً فبوابنا طويل القامة..

وأضاف الكومسيونجي:

ـ إذا كان في فصل الشتاء نصف متر.. ففي الصيف سيجف تماما!.

قال الدكتور:

ـ إذا لم نعمل على منع تسرب المياه إلى القبو فستتعفن من كثرة الرطوبة عما قريب.

لقد وجدنا مكاناً للبواب.. لو أقمنا مصطبة كبيرة مرتفعة من صناديق السكر والشاي يستطيع أن يقي نفسه من التسكع والرطوبة..

حسبت أن المشكلة التي كنا بصددها قد حلت، وإذا برئيسنا المتقاعد يقول:

ـ هذا حسن.. ولكن أيها السادة الجيران، بوابنا هذا ليس ملاكاً، إنه إنسان مثلنا..

سألته:

ـ يعني..؟

ـ يعني هذا الإنسان يأكل ويشرب مثلنا، ومن الطبيعي جداً أنه سيحتاج إلى المرحاض.. ويلزمه ذلك حتماً.. وليس في القبو مرحاض.. أين سيقضي حاجته؟!

عندما طرح هذا الموضوع المهم جداً على الاجتماع ساد صمت طويل بيننا.. وربما لأول مرة نكون فيها هكذا منذ الاجتماع الأول حتى الآن.. وغرقنا في تفكير عميق. قال المحامي:

ـ لنفكر في هذا الموضوع ونطرحه للمناقشة في الأسبوع المقبل.

ـ نعم.. ولكن كيف سيتصرف البواب خلال مدة تفكيرنا..؟ لا يستطيع أن ينتظر أسبوعاً كاملاً.

طرح هذا الموضوع للنقاش في الاجتماع المقبل أيضاً لأنه لا مناص من

ذلك أبداً.. يجب حل هذه العقدة بأي شكل من الأشكال، فقدم كل واحد اقتراحه..

قال المحاسب الذي يسكن الطابق العلوي:

ـ أفضل شيء أن نبني مرحاضاً في الحديقة.

فاعترض قاطنو الطابق الأرضي على ذلك بشدة، وخاصة المتقاعد وزوجته.. عندها قال المحامي:

ـ من الطبيعي جداً أن نبني المرحاض فوق الجورة الفنية في الحديقة الخلفية.

هذا الاقتراح أعجب المتقاعد فقال:

ـ في هذه الحال.. معقول.. ممكن..

عندها قالت زوجة الدكتور بعصبية شديدة:

ـ هذا غير ممكن.. لا أريد..

ـ ولكن ليس من حل آخر يا ست هانم.. هذا البواب يجب أن يعمل شيئاً ما في مكان ما.

ـ لا أقبل أن يبنى مقابل نافذتي مرحاض للبواب.. ولا أرضى عندما أفتح نافذتي كل صباح أن أرى البواب يخرج من المرحاض وهو يلملم نفسه.

وقالت زوجتي:

ـ الرائحة تصل إلى طابقنا كذلك.. نحن أيضاً لا نرضى.

ـ إذا كان الأمر هكذا.. قولوا شيئاً حتى نناقشه.

قلت:

ـ أفضل شيء أن نكون دورياً.. كل يوم واحد يعمل البواب شيئه عند أحد منا.

ـ أتقول يومياً؟

ـ إن أردتم نضع البرنامج في الأسبوع المقبل، ويكلف رئيسنا بوضعه.. فيأتي كل أسبوع إلى بيت واحد منا.

ـ إنه لمضحك جداً.. يقرع الباب.. من الطارق..؟ جاء البواب (قال شو؟ محشوك) يريد الدخول إلى المرحاض.

ـ ليس هكذا يا سيدي، لا يستطيع أن يقرع الباب كل لحظة. إما صباحاً أو مساء.. نقول له: تستطيع أن تدخل المرحاض مرة واحدة في اليوم.

ـ هذا غير ممكن أبداً.. أنا لا أسمح للبواب بدخول مرحاضي الخاص.

معهم كل الحق.. كيف سيدخل البواب على أناس أصبحوا في دائرة الملكية المقدسة، ثم يستعمل مرحاضهم.. ؟! لا.. لا.. هذا غير معقول.. ولكن ما من حل آخر. حتى زوجتي اعترضت على فكرتي:

ـ أمعقول ما تقوله.؟! أنا لا أدخل مكاناً دخله البواب، وخاصة المرحاض؛ فلربما يكون (دستوره) أو (شيئه) إسهالاً، أو يحمل مرضاً ما.

مرة أخرى شربنا شاينا وقهوتنا دفعة واحدة، وتحركنا إلى منازلنا ونحن نقول لبعضنا: «ننتظركم يا أفندم»، «ليلة سعيدة يا سيدي».

بعد عدة أيام ترك البواب عمله وذهب إلى قريته.. ومن يدري بهذا المسكين ومقدار شعوره بالراحة بعد وصوله إلى قريته؟ وبقينا بلا بواب.

أوقعتنا استقالة البواب في دوامة من الخلافات والمنازعات والمشادات الكلامية فيما بيننا.. فقد اعتاد الجميع على خدماته السريعة بعد أن صاروا أصحاب ملكية مقدسة خاصة.

في المستقبل القريب.. ترك مصلح المذياع البناء وانتقل إلى بناء آخر وبيت آخر، وأعطى شقته للإيجار. واشترى المحامي شقة أفضل في مكان

أفضل، وباع شقته لأحد الضباط. وأعلن المحاسب عن بيع شقته وقال إنه سينتقل بعد أن يبيع البيت. والدكتور يدعو الله ليل نهار قائلاً: «الله يخلصنا من هذه البناية». أما المتقاعد المسكين فلا يستطيع التحرك من هذه البناية، وكذلك نحن.. لقد قالت ابنتي لأمها إن ابن المتقاعد سيرسل أمه قريباً ليطلبها منا رسمياً.

وهكذا خربت بناية (الأهنك) من أجل أهنك البواب الذي لم يعرف أين سيضعونه أو يسكنونه. الآن وجدنا بواباً جديداً.. ويمر بنا كل يومين.. يقوم بأعمال الخدمة العامة.. ويقطن في بناية أخرى. وأرجو الله أن يطلب ابن المتقاعد ابنتي الوسطى ويتزوجها، فقد نويت على بيع هذه الشقة لأشتري شقة جديدة في وسط جديد ومحيط جيد.

○ ○ ○

الأرملتان وموظف الغاز

منذ شهرين دخلت السيدة (سيان) عامها الثامن والستين. لا.. ليست من النساء اللواتي يكذبن في أعمارهن، فقد كانت بمناسبة أو غير مناسبة تكشف عن عمرها الحقيقي دون أن يطلب منها أحد ذلك. ومع أنها تقول عمرها الحقيقي فإنها تغضب كثيراً من الذين لا يصدقونها.. كانوا يسخرون منها بتحريك شفاههم، والغمز بعيونهم سراً عنها، لأن شكلها الخارجي يعطيها عمراً أكبر من عمرها الحقيقي.. تلك كانت حقيقة. ونظراً لإصابتها بالفالج منذ أربع سنوات كانت تجر رجلها اليسرى أثناء المشي، ولا تتمكن من استعمال ذراعها الأيسر كما تريد. وربما مظهرها الخارجي هذا سببه الفالج الذي أصابها. قامتها قصيرة وناعمة.. امرأة محبوبة جداً. خارجها كومة من إنسان محطم، وداخلها مملوء حيوية ونشاطاً وأملاً. تحب وضع المكياج كثيراً.. حتى عندما كانت متزوجة. وزوجها الجنرال توفي في الحرب منذ ثلاثة وعشرين عاماً.. تركها وحيدة.. ولكنها لم تترك نفسها تبحر في بحور اليأس.. كانت تزرع الأمل لنفسها على الدوام. تعيش من راتب زوجها المتوفى عيشة الكفاف، وتحسب للقرش حساباً. وكان ابنها يساعدها في بعض الأوقات. تعيش وحيدة في غرفتين وسط حي شعبي خارج مركز المدينة. نعم كانت تضع الحمرة والمكياج.. وبعد أن أصابها الفالج صارت تدهن نفسها أكثر من ذي قبل. تحب البقاء في المنزل فلا تخرج إلى السيران ولا الدوران. كانت في الخامسة والأربعين من عمرها عندما توفى زوجها، ومنذ ذلك الحين وهي تعيش على أمل أن يطرق أحدهم بابها ويطلبها للزواج ثانية.

لها صديقة عزيزة تحبها كثيراً، فهي صاحبتها وجارتها في المنزل.. إنها

السيدة (ديها). بدأت الصداقة بينهما منذ خمسة عشر عاماً. تناديان بعضهما بضرب الجدار المشترك بينهما، أو تتحدثان عبره وتسمعان بعضهما.

الجارتان أصبحتا رفيقتي روح لبعضهما، وكانتا تضربان الجدار عندما تحسان بشيء ما.. وربما كانتا تريدان فتح قلوبهن الواحدة للأخرى، أو تطلب إحداهن مساعدة الأخرى.. وكانتا تلتقيان أكثر من ثلاث مرات يومياً.. وإذا لم تلتقيا تشعران بنقص ما.

ومع أن السيدة (ديها) تكبر السيدة (سيان) ثلاث سنوات، إلا أنها من النساء اللواتي يخبئن حقيقة أعمارهن، ومظهرها الخارجي لا يعطيها هذا العمر. كانت الفتوة والنضارة تظهران على ملامحها تقريباً هي الأخرى مثل السيدة (سيان). كانت تذكر عمرها للآخرين حتى ولو لم يطلبوا منها ذلك فتقول: «عمري واحد وسبعون عاماً، ولكنني في الستين من عمري».. فيضحك منها الجميع. توفي زوجها منذ ثلاثين عاماً في حادث سيارة، ولم يترك لها أي شيء. تعيش من مورد صغير جداً ورثته عن والدها، ولكنها امرأة عنيدة جداً وصبورة.

نقاط تشابه كثيرة تجمع بين المرأتين اللتين بقيتا صديقتين حنونتين منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، فالسيدة (ديها) مثل السيدة (سيان) صغيرة الجسم ناعمة.. وجهها ناعم كوجه طفل صغير، فهي تحب المكياج والروج مثل السيدة (سيان)، وهي الأخرى عاشت على أمل، عسى ولعل أحدهم يفتح الباب ويطلبها للزواج.. ظهرها يحدودب أكثر مع تقدم السنين، وكل عام يزيد احديدابها أكثر.

في ذلك الصباح ومثل كل صباح جلست السيدة (سيان) أمام مرآة تواليتها، وبدأت بوضع المكياج والبودرة والروج على وجهها وهي ترنم أغاني الحب والهيام. إنها سعيدة ونشيطة ومرحة.. فتحت المذياع إلى

جانبها واستمعت إلى بعض الأغاني الجميلة التي كانت تحبها.. وانسجمت جداً مع لحن الأغنية، فوقفت وبدأت بالرقص وهي تجر رجلها اليسرى.. وفجأة انقطع صوت المذياع وانطلق صوت المعلق قائلاً:

«السادة المستمعون، لقد جاءنا ما يلي: منذ أسبوعين وحتى الآن يقوم شخص يخفي نفسه بألبسة موظف بائع الغاز، فيدخل البيوت التي تعيش فيها النساء الوحيدات. لقد قتل هذا الجاني امرأتين منذ فترة وجيزة بعد أن اعتدى على كرامتهما.. واليوم قام بجريمته الثالثة صباح هذا اليوم وولى هارباً دون أن يترك أي أثر خلفه. وبما أن الجرائم متشابهة وعلى نمط واحد، فالقاتل شخص واحد.

هذا القاتل الجاني يدخل البيوت التي تعيش فيها النساء الوحيدات بحجة إصلاح أفران الغاز أو ساعة الغاز أو أي حجة أخرى ويهددهن بمسدس يحمله.. يغتصب المرأة الوحيدة ويقتلها خنقاً. وبواقعة صباح هذا اليوم يكون الجاني قد قام بجريمته الثامنة. ومن الجرائم كلها لم ينج من الموت المحقق سوى امرأتين.. وبناء على شهادة المرأتين جاءت صفات المجرم كالتالي: طويل القامة، عريض الكتفين، أسمر اللون، شعره أسود وكث، عيناه زرقاوان، بحدود الثلاثين من عمره، ويعتبر وسيم الشكل، وحسب أقوال شهود العيان.. فإن صور المجرم قد نشرت على صفحات الجرائد. الآن نعود إلى برامجنا الموسيقية».

تلقت السيدة سيان الخبر بأحاسيس ممزوجة بالخوف والاهتمام والرعب. وفقدت انسجامها وفرحتها بالموسيقى الصادرة عن المذياع.

رنَّ جرس الباب الخارجي.. وإذا كان القادم ذلك الجابي لفواتير الغاز.. يجب أن تدخل إلى المرآة لتضع مكياجاً آخر. وصارت بعجلة من أمرها والجرس يرن دون توقف.. مشت بحذر ونظرت من ثقب المفتاح، عندما رأت أن القادم جارتها السيدة (ديها). شعرت بشيء من الإحباط فتحت الباب..

- آ آ.. أهذه أنت يا سيدة ديها؟ حسبتك ذلك..

كانت السيدة ديها مضطربة جداً دخلت وهي تحمل جريدة في يدها..

- أرأيت المصائب التي تنصب على رؤوسنا يا سيدة سيان؟

- ماذا حصل..؟ ماذا هناك..؟

قدمت الجريدة التي كانت بيدها.

- انظري يا أختي.. لقد طبعوا صورة الوحش على الجريدة.. يقولون إنه لا يدخل سوى بيوت النساء اللواتي تعشن لوحدهن.

ازدردت ريقها وكأن شيئاً ما قد أعجبها.

- وإذا جاء إلينا.. ماذا سنفعل يا أختي؟

دخلتا الغرفة.. حملت السيدة سيان الجريدة ونظرت إلى صورة الجاني..

- إنه رجل وسيم..

- وشاب يافع..

- حرام..

- ماذا يفعل بالنساء؟

- ألم تقرئي الجرائد..؟ آه يا أختي.

- قرأتها.. وهل يعقل أن لا أقرأها؟! إنهم يكررون الخبر ثلاث مرات يومياً في المذياع.

- يقولون إنه إذا كان البيت خالياً يغافل المرأة الوحيدة.

- ويقولون إنه يغتصبها.

- نعم.. ولكن.. يقولون إنه يخنقها بعد ذلك يا أختي.

ـ هذا صحيح.. ولكن لا أصدق ذلك.. ولماذا يخنقها؟

ـ يقولون إنه قد خنقها.. خنقها.. وإذا لم يخنقها، فلماذا يبحث عنه البوليس؟

ـ بالطبع يخنقهن.. من يدري كيف يتعرض لهن؟ وما الذي تفعلنه بالرجل المسكين؟

ـ إيه.. ربما يجد نفسه مجبراً على خنقهن.. ماذا يفعل المسكين يعني؟

ـ ربما يخاف أن يخبرن عنه.

ـ قليلات الوجدان.. هل تخبر إحداهن عن شاب مثله؟

ـ إنني خائفة كثيراً يا أختي.. وإذا ما جاء إلى منزلنا؟

قالت السيدة ديها وهي تستر حسرتها القديمة بخوف ظاهري:

ـ أنا الأخرى خائفة جداً.. لم أستطع البقاء وحيدة في البيت لشدة خوفي، لهذا جئت إليك.. وإذا ما جاء..؟

ـ ماذا سنفعل؟

ـ أفضل شيء..

سألتها السيدة سيان لأنها توقفت فجأة:

ـ نعم.. هيا قولي.. لماذا سكت..؟ ما هو أفضل شيء بالنسبة لك..؟

ـ أفضل شيء أن لا نمنعه.

ـ يعني..؟

ـ يعني.. وكما قالوا: «حتى الأفعى لا أحد يلمسها وهي تشرب» هكذا قالوا.. يجب أن لا نمنعه.

ـ نعم.. وليفعل كل ما يريده بعد أن نصعب الأمر عليه قليلاً.

ـ إنه ليس أحسن من روحي.

- إذا ما جاء..

- ولماذا لا يأتي..؟ اجلسي يا سيدة ديها.

جلست السيدة ديها.

- يجب أن نفكر بما سنفعله.. هذه مصيبة.

- مصيبة.. ما من حل سوى أن نأتي معه بالحسنى.. عندها لا يقتلنا.

- عجباً، لماذا يقتلهن..؟! ماذا يريد منهن..؟!

- آه.. نحن جماعة النساء دائماً نسير بالعكس - حملت الجريدة ونظرت إلى الصورة - إنه طويل وجميل.. إنه مثل الأسد. زوجي لم يكن ضخماً بالنسبة لي ولكنه كان جنرالاً قاسياً.. لا يصرخ ولا يشتم ولكنه كان يسعل على الدوام، فإذا ما خرج من البيت وسعل.. العساكر في الثكنة يرتجفون من الخوف. مات منذ ثلاثة وعشرين عاماً.. مات في الحرب.

- هل أصيب..؟

- لا.. يقولون إنه كان يوماً حاراً من أيام الحرب.. نزل إلى البحيرة ليسبح فغرق ومات.. مازلت أخبئ ألبسته إلى الآن.. انظري..

وأخرجت من الخزانة ثياب جنرال وزوجاً من الجزمات وأرتهم لجارتها فمسحت كتافية السترة.. وقبلت الأزرار وأسندت رأسها إلى صدر السترة.

- لن أخبئ عليك.. عندما أشعر بالوحدة.. في الليالي.. آخذ هذه البزة وأحتضنها.

- والجزمات؟

- جزمته وألبسته.. لم يستطع أي رجل أن يملأ مكانه.

- إي.. وعجَّزْتِ..

ـ هل أبدو عجوزاً..؟ لا أبداً.. فقلبي كالشباب.. كان يضمني بشكل عجيب ويضغط علي وأنا بين ذراعيه.

وبقيت هكذا جامدة وكأنها في حضن زوجها. قالت السيدة ديها:

ـ لقد مات زوجي منذ ثلاثين عاماً ـ وتنفست عميقاً ـ إن ذكراه ما تزال تنبض في أعماقي.. بقيت دائماً مرتبطة بذكراه.

ـ رجل آخر..

ـ لا..

ـ طبعاً أصبحت مسنة أيضاً.

ـ من..؟ أنا..؟ هل أنا مسنة؟! لقد لاحقني الرجال كثيراً ولازالوا يسعون خلفي إلى اليوم.

ـ أنا الأخرى.. كثير من الرجال يجرون ويدورون في فلكي.. ولكن لا أعطيهم وجهاً.

ـ ألست متشوقة يا سيدة ديها؟

ـ أمعقول أن أكون غير متشوقة..؟ وأغمضت عينيها والحزن باد على وجهها. لقد مر ثلاثون عاماً.. آه يا لهذه الأعوام.. على الأغلب نسيت.

ـ لا أحد يموت مع الميت.. ولا يستطيع المرء أن يعيش طويلاً مع الذكريات.

ـ هذا صحيح.. هناك إشاعات كثيرة تقول إن السائقين يخطفون النساء في الليل.

ـ هذا كذب.

ـ أين..؟ كذب.. إنها مجرد ترهات.. لماذا يجرمون بحقهم؟ فهم لا يختطفون أحداً.. عدة مرات ركبت السيارات في الليل وذهبت إلى أماكن بعيدة، ولم يفعلوا بي شيئاً.

ـ أنا الأخرى لا أصدق.. ولهذا أحببت أن أجرب.. نعم إنهم لا يخطفون أحداً.. سائقو بلدنا شرفاء وأخلاقيون.

ـ والمثالية الزائدة غير معقولة.. هذا غير ممكن..

قرع الباب الخارجي فاضطربتا كثيراً واعتراهما الخوف، وبدأتا بالدوران داخل الغرفة.. هنا وهناك.. وطفقت السيدة سيان تجمع أغراض غرفتها المبعثرة وكأن ضيفاً غالياً سيزورها. والسيدة ديها اعترتها حالة من الهيجان والاضطراب.. تجمع شعر رأسها أمام المرآة، وتضع المكياج على وجهها.. بينما الجرس لم يتوقف عن الرنين.

سألت السيدة سيان بأمل:

ـ هل هو يا ترى؟

ـ هل تقولين قد جاء؟

ـ ربما. يجب أن لا يرانا معاً فيأخذ حذره ويذهب.

ـ وما الداعي ليأخذ حذره..؟ إن أردت أنتظرك في الخارج.

قالت السيدة سيان وكأنها فتاة شابة خجولة:

ـ آ آ.. لا أريد.. هذا غير ممكن أبداً.

قالت السيدة ديها وقد غلبها الخوف:

ـ وإن كان هو؟ وإذا ما جاء فعلاً؟

ـ هل يخنقنا يا ترى؟

ـ يقولون إنه يخنق..

ـ ماذا سنفعل؟

ـ لا نفتح الباب.

قالت السيدة سيان بعد أن فكرت قليلاً:

ـ عيب أن لا نفتح.. نفتح وبعدها ـ وقفت ـ يجب أن تذهبي إلى بيتك.

ـ عندما يدخل.. أخرج قبل أن يراني.

ـ ألا يُخوف..؟ انظري.. إن يدي ورجلي ترتجفان.

ـ من الاضطراب.

ـ طبعاً. افتحي الباب.. ربما يكون قد ذهب ظناً منه أنه لا أحد في الداخل.

ـ إن قلبي ينبض بسرعة.

ـ إذا كان هو.. اضربي الجدار.. أسمعك فأفتح النافذة وأصرخ: النجدة.. النجدة.

ـ آمان.. إياك أن تصرخي مخافة أن يخنقني.

ـ ولكن كيف سأعلم بمجيئه..؟ اضربي الجدار حتى أفهم أنه هو.

ـ طيب.. طيب.. ولكن لا تحضري مباشرة.. انتظري قليلاً بعد ضرب الجدار.

ـ يحصل.. وإياك أن تتركيه قبل أن أراه.. أخّريه بالكلام.

ـ وربما لا يذهب أبداً.. سأفتح الباب.

خرجتا معاً من الغرفة.. عندما كانت السيدة ديها تنتظر في المطبخ كانت السيدة سيان تنظر من ثقب المفتاح.. شعرت ببعض الخوف لأنها لم تتعرف على الشخص الواقف أمام الباب، وأخرجت صوتها بجرأة أكثر:

ـ من هذا..؟

ـ بياع الجرائد..

قالت مدام سيان عندما فتحت الباب:

ـ آمان.. لقد هبط قلبي إلى قدمي.

وأخذت جريدة من بائع الجرائد. وبدأت الاثنتان مباشرة بالبحث والنظر إلى صورة وأخبار الوحش..

قالت السيدة ديها:

ـ صورة طبق الأصل عن زوجي.. الشبه كبير جداً، وكأنه زوجي وهو شاب.

وقالت السيدة سيان:

ـ يا للغرابة..! إنه يشبه زوجي أيضاً.. كأنه صورة طبق الأصل عنه.. وكأنه أُخذ من صورة زوجي.

ـ يجب أن أذهب يا سيدة سيان.

ـ أنت تعرفين.

ـ لأذهب.. لأذهب.. ربما يأتي إلي.. أولاً..

قالت السيدة سيان بخوف:

ـ وإذا ما جاء ماذا ستفعلين؟ اضربي الجدار.. أفهمت؟ فأتصل هاتفياً بالمخفر مباشرة.

ـ هل سيأتي؟

ـ لا أحد يدري.. انظري، يقولون إنه يذهب إلى بيوت النسوة اللواتي يعشن وحيدات.. إذا ما جاء أخبريني.. بالله عليك.

ـ أنا خائفة جداً.

ـ أنا أيضاً.

ـ أفضل شيء أن تعطيني مفتاح الباب الخارجي.. ربما لا تستطيعين فتح

الباب.. وكما يقولون إن الرجل وحش، وربما يخنقك.. وخذي أنت مفتاحي الثاني، فإذا صرخت أسرعي إلي مباشرة.

- كما تريدين يا أختي.

أعطت السيدة سيان مفتاح الباب الخارجي لصديقتها. وعندما غادرت السيدة ديها بيتها، وضعت ألبسة زوجها في الدولاب وجلست أمام المرآة وبدأت بوضع المكياج والروج على وجهها. وقرع الباب.. احتارت وهي في دوامة من الخوف والأمل.. هل تفتح الباب يا ترى؟ لقد خافت فعلاً.. ولكن إن عاملته بلطف وحنان، ولبت كل طلباته، فلماذا يقتلها..؟ سألت قبل أن تفتح الباب:

- من أنت؟

- موظف الغاز..

كان صوتاً مبحوحاً متعباً خافتاً.. فتحت الباب وإحدى يديها تضغط على قلبها.. ما هذا..؟! إنه صورة إنسان كاريكاتوري ناهز الستين من عمره.. شعر ذقنه طويل.. وإحدى عدسات نظارته مكسورة.. في يده محفظة قديمة وثيابه رثة. أحست بإحباط شديد.

- سألقي نظرة على موقدك وساعة غازك أيتها السيدة.

- هل أنت؟

- نعم.. أنا هو.. لماذا دهشت هكذا؟

- لا أدري.. فجأة أحسست بالشيء..

تراجعت بضع خطوات نحو الخلف ونظرت بخوف وهلع.. كانت ترتجف. ربما يهجم عليها مباشرة.. تناولت المظلة من الخلف وقالت بصوت مرتجف:

- تفضلوا.

تعجب موظف الغاز عندما فتحت المرأة باباً ظنه باب المطبخ، ولكنه عندما دخل الغرفة بدأ يبحث عن ساعة الغاز والموقد، فلم يجد شيئاً.

سألته السيدة سيان بحذر:

ـ هل أنت حقيقة ذلك الشخص؟

ـ من؟

ـ موظف الغاز.

ـ قال الرجل وهو ينظر إلى ثيابه ونفسه:

ـ نعم.. هل هنالك ما يدعو للسؤال؟ طبعاً أنا هو.

ـ ها ها.. إذن أنت..؟ حسبتك أطول من ذلك.

ـ لماذا؟ لا يشترط في موظف الغاز أن يكون أطول من ذلك.

ـ ثم كنت أحسبك شاباً.

ـ هاه.. انظري.. والله صحيح. هذا العمل بحاجة إلى شباب. يجب أن يكون قوياً وفتياً، أليس كذلك؟

قالت السيدة سيان بفرح وأمل:

ـ طبعاً.

ـ ليس سهلاً أن يظل الإنسان متجولاً طوال النهار من بيت إلى بيت، ومن شارع إلى شارع. أنا بالأصل موظف غاز قديم جداً. وبما أنني خضعت لثلاث عمليات أحالوني على التقاعد.. وعدت إلى هذا العمل بأجر يومي.

ـ نفس العمل؟

ـ نعم.

ـ يعني.. جرائم منذ وقت طويل؟

ـ ماذا قلتم يا سيدتي؟

ـ قلت منذ وقت طويل؟

ـ نعم، منذ وقت طويل.. عندي تجارب كثيرة.. فالمعيشة ليست سهلة في هذا الزمن.

ـ هل تعلقون من أجل المعيشة؟

ـ نعم.

ـ رجائي أن تجلس لماذا أنت واقف على رجليك؟

ـ أشكرك جزيل الشكر.. لأنني سأمر على بيوت كثيرة.. أين موقد غازكم لألقي عليه نظرة وأذهب..؟

قالت السيدة سيان وهي تدلل نفسها وكأنها فتاة في الثامنة عشرة من عمرها:

ـ آ آ.. أمعقول..؟ يجب أن تجلس بعض الشيء وترتاح.

ـ فعلاً لقد تعبت كثيراً.. يجب أن آخذ نفساً.

كان الرجل حقيقة موظف غاز.. جلس.

ـ أين مطبخك؟

ـ أليس هنا أكثر راحة؟

ـ مريح جداً.

ـ لأضع وسادة خلف ظهرك.

ـ شكراً لك.

كان موظف الغاز يصدر الآه.. والأوه والأنين أثناء تحركه.

ـ ماذا تحسون؟

ـ عرق النسا.. منذ سنوات ورجلي تؤلماني كثيراً.

كان الرجل يسعل على الدوام.. وقف على رجليه.

ـ لألقي نظرة على ساعة الغاز وأذهب..

ـ آ آ.. ولم العجلة؟ لسه.. يعني.. اجلسوا.. انظر إنك تسعل كثيراً، سأعطيك شراباً للسعلة.

أسرعت السيدة سيان وجلبت شراب السعلة وقدمته للرجل. عندما مد يده ليأخذ الزجاجة من يدها أحست وكأنه سيضغط على رقبتها، وصرخت صرخة قوية واستندت إلى الجدار وضغطت بيدها على صدرها.. فدهش الرجل وخاف..

ـ ماذا حصل؟ لماذا فعلت هكذا؟

ـ لا شيء.. لاشيء.. أحسست فجأة بالشيء..

شرب الرجل من الشراب وقال:

ـ أنت طيبة جداً أيتها السيدة، أشكرك جزيل الشكر.

ـ لم أفعل شيئاً.

ـ لأذهب الآن.. لأرى الموقد والساعة (العداد).

ـ ولكن.. لسه.. فالرياح شديدة والجو ماطر.. عندما يتحسن الطقس تذهب.

ـ لا.. الهواء خفيف.. ولا يوجد مطر.. والشمس ساطعة.

ـ هكذا.. توقف.. توقف سأعطيك..

ـ أتأخر كثيراً.

ـ توقف لألقي نظرة.. آ آ.. إن حذاءك مثقوب أيضاً.. يدخل ماء.. هذا حرام..

ـ نعم.. إنه قديم جداً.

ـ سأعطيك جزمة تلبسها في المطر والثلج تشعرك بالدفء.

ـ لو كانت كل النسوة مثلك طيبات وقلوبهن رفيقة.

ـ عندها اخنقهن..

قطعت حديثها وأخرجت من الدولاب جزمة زوجها الجنرال وأعطتها للرجل. خلع الموظف الحذاء الذي في رجله ولبس فردة من الجزمة..

ـ هل هي ضيقة؟

ـ لا إنها واسعة.. ولكنها قاسية.

ـ نعم بقدر ما تلبسها تنعم أكثر.

ـ أدامك الله.. سأتفقد عداد الغاز وأذهب.

ـ الإفطار.. الإفطار.. فأنا لم أفطر حتى الآن.. جاهز في المطبخ أذهب وأحضره.

أسرعت إلى المطبخ وأتت بصينية فيها إفطار لشخصين..

ـ تفضلوا..

جلسا مقابل بعضهما البعض.. وسمع صوت السيدة ديها في الخارج مضطرباً:

ـ السيدة سيان.. السيدة سيان.. ماذا حصل..؟ ماذا هناك؟

بعد أن زحفت السيدة سيان برجلها نحو الباب، همست للرجل وقالت:

ـ أسرع.. أسرع.. ادخل هنا واختبئ بسرعة.

ـ ولكن لماذا يا سيدتي..؟ أرجوك..

كانت تدفع بالرجل تحت المقعد ثم قالت:

ـ شيشت.. نسيت أن أقول لك.. أنا امرأة تعيش لوحدها، فإذا رأتك

هنا تجعل من الحبة قبة.. وتبدأ القال والقيل.. هيا ادخل.. ادخل تحت المقعد.

عندما لم يفتح الباب، بدأت السيدة ديها بضرب الباب وهي ترفع صوتها:

ـ السيدة سيان.. سييان.. ماذا حصل بحق الله..؟ أجيبي يا حبيبتي.. هل حصل شيء ما..؟ هل جاء؟ هل هو في الداخل؟ ماذا فعل لك؟ هل خنقك؟ كيف خنقك؟ هيا اشرحي لي يا روحي..

بعد أن أدخلت السيدة سيان موظف الغاز تحت المقعد كما تدخل كيس التبن:

ـ لا شيء يا سيدة ديها.. سأفتح الباب الآن.

كانت رجل الموظف الذي انتعل الجزمة خارج المقعد.. عندما فتحت الباب دخلت السيدة ديها بسرعة وبدأت تفتش هنا وهناك باضطراب وحيرة.. وكانت تتحدث وتقول:

ـ آي.. لقد انتقل قلبي إلى فمي من الخوف عندما سمعت صرختك.. قلت.. لقد جاء الرجل وهو يخنق سيان حبيبتي.. تصرفت بعقل عندما أخذت مفتاح الباب الخارجي منك.. لا تدرين كيف ركضت بسرعة إلى هنا.. وعندما وجدت باب الغرفة مقفلاً..

ـ شيء.. كنت.. ولذلك أقفلت الباب.

ـ ماذا كنت تفعلين؟

ـ أنا..؟ لا شيء.. كنت أغير ثيابي.. وربما فجأة..

رن جرس الهاتف.. رفعت السماعة السيدة سيان:

ـ آلو.. نعم.. أنت يا بني..؟

أغلقت سماعة الهاتف بيدها وقالت للسيدة ديها:

ـ إن ابني يتصل معي ـ وعلى الهاتف ـ أنا بخير يا بني.. أشكرك كثيراً.. وكيف حالك أنت؟ من؟ هل تقول موظف الغاز؟ نعم لقد جاء هنا.

بدأت تغير الحديث عندما أحست أنها هربت كلاماً:

ـ يعني عندما قلت هنا.. هو في هذه المدينة.. نعم.. ماذا أقول لك يا روحي؟ يقولون إنه يخنق النساء.. الجاني.. القاتل.

لقد اعترى السيدة ديها شك كبير في مقدم موظف الغاز ولهذا كانت تبحث هنا وهناك في أرجاء الغرفة منتهزة فرصة حديث السيدة سيان على الهاتف، فرأت طرف الجزمة الخارجة من تحت المقعد.

وبما أن السيدة سيان كانت تراقبها فقد لاحظت نظراتها للجزمة تحت المقعد، ومدت شريط الهاتف قدر المستطاع حتى وقفت أمام المقعد، وحاولت إخفاء الجزمة بجسدها.

ـ نعم.. لا.. ولماذا يأتي إلى منزلي موظف الغاز يا روحي؟.. طيب.. طيب أضع خلف الباب.. هل تقول باب الشارع؟ نعم له مفتاح.. ولسان.. وسلسلة معدنية. لا تفكر بي.. هل تقول الراديو؟ تقول يذيعون أخباراً عنه..؟ طيب الآن أفتح المذياع.

من جهة كانت تتحدث على الهاتف، ومن جهة أخرى تدور أمام الديوان حتى تخبئ الجزمة عن السيدة ديها.

ـ أشكرك يا بني.. مع السلامة.

قالت بعد أن أغلقت الهاتف:

ـ يقول إن الراديو أذاع خبراً جديداً.. وفتحت المذياع..

في هذه الأثناء كان المعلق يقرأ تعليمات الوالي (المحافظ):

«تعليمات السيد المحافظ.. إلى شعبنا.. لم نتوصل بعد لمعرفة مكان

القاتل الذي مضى عليه أسبوعان وهو يقوم بالجرائم تلو بعضها فيدخل على النسوة اللواتي تعشن لوحدهن. ولقد نفذ اليوم هذا الوحش جريمته التاسعة وهو يدور بهيئة موظف الغاز حيث يدخل البيوت.. وبعد أن يغتصب صاحبة الدار.. يخنقها»

سمع موظف الغاز هذا الخبر وهو تحت الديوان فتملكه الخوف وأخرج رأسه من تحت المقعد يبحث عن مخرج ليهرب من خلاله.. لو ركض مباشرة ربما يستطيع الهروب.. ولكن رجله الأخرى كان حافية.. وكيف له أن يهرب وهو بهذه الحالة؟

كان موظف الغاز الفقير لا يعلم شيئاً عن هذا الوحش الذي يفترس النساء، فلم يكن يملك مذياعاً.. ولا يقرأ جريدة.. وهنا فقط سمع الخبر وعرف الموضوع.

لقد شاهدت السيدة سيان موظف الغاز وقد أخرج رأسه من تحت الديوان، ولذلك صارت تتحرك يمنة ويسرة في مكانها كي لا ترى السيدة ديها رأس الموظف.. ومن جهة أخرى كانت تحاول إعادة رأسه بإحدى رجليها إلى تحت المقعد.

كانت التعليمات لم تنته بعد في المذياع:

«ويحذر النساء في هذه الأيام عدم البقاء لوحدهن في بيوتهن، وأن يغلقن الأبواب الخارجية جيداً حتى بالسلاسل إن وجدت..»

أغلقت مدام سيان المذياع. قالت السيدة ديها وهي تغني:

ـ أرى جزمة تحت المقعد.

ـ نعم جزمة المرحوم زوجي.. جزمة الجنرال.

ـ إذن لم يأت موظف الغاز؟

ـ لا.. لم يأت.. ألم يحضر إليك أيضاً؟

ـ لم يحضر.. إنه يخنق النساء على الدوام.. ألم تسمعي ما قاله المذياع؟

ـ هذا صحيح.. ولكن هناك فرق بين امرأة وأخرى.. النساء نوعان في هذه الدنيا.. هناك نساء يجب أن تخنقن.. وأخريات لا.. أليس كذلك..؟ ها..؟ لقد تركت شغلك على الأغلب وأتيت إلى هنا.. إن أردت اذهبي وأنهي شغلك.. وأنا أنظف المكان وآتي إليك.. تضربين الجدار.. فأنا جاهزة على الدوام.. وأحضر إليك مباشرة.

ـ يحصل.. يحصل.

دفعت السيدة ديها إلى الباب، وعندما اجتازت الباب الخارجي تركت السيدة سيان الباب وجاءت إلى المقعد وانحنت:

ـ اخرج.. هيا اخرج بسرعة.

بينما كانت تسحب موظف الغاز من تحت المقعد إذا ببنطال المسكين ينزل حتى ركبتيه.. وقف الرجل وبدأ يجمع نفسه بخوف.

ـ أنا ذاهب.. أنا ذاهب يا سيدتي..

وحاول خلع الجزمة من رجله، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً.

ـ لماذا أنت ذاهب..؟ لم نفطر بعد.

ـ وكيف أبقى يا سيدتي.. ألم تسمعي الراديو قبل قليل؟

ـ أتسمعه لأول مرة..؟

كان يسعل ويئن من آلام عرق النسا..

ـ لن أتركك تذهب وأنت في هذه الحال.. ماذا سيحل بك في هذا البرد؟

ـ الطقس دافئ والهواء حار جداً.

ـ لا.. لا.. برد.. برد.

أخرجت من الدولاب ألبسة زوجها الجنرال.. ودون أن تطلب موافقته خلعت سترة الرجل وألبسته سترة الجنرال.

ـ البسها.. البسها تدفئك.. بما أن هذا لباس عسكري قديم لا مانع أن تلبسه.. تستطيع أن تلبسه حتى في الخارج.. وإذا بدك أعطيك معطفاً مدنياً معها.

كان الرجل المسكين ضعيفاً فقد ضاع ضمن سترة الجنرال. قدمت السيدة سيان بنطال الجنرال السميك والمدرع:

ـ هيا.. هيا.. البس هذا أيضاً.. لا تخجل.

كانت تسحب بنطاله بعد أن نزل حتى ركبتيه. قال الموظف:

ـ توقفي.. توقفي.. اتركيني.. أنا ألبسه.

وخلص نفسه من يدها.

ـ لا تخجل ولك روحي.. هيا البسه، إنه يدفئ ساقيك.

أدارت له ظهرها وهي تنظر بطرف عينيها.. بينما الموظف يلبس بنطال الجنرال.. لقد صار الموظف مثل قزم صغير ضمن بنطال الجنرال.

قالت السيدة سيان:

ـ آمان يا ربي.. إنه على قياسك تماماً.. أوه.. كم يليق بك..! لو أنك فصلته لما نجح هكذا..

ـ يليق بي؟

ـ كثيراً جداً.. صورة طبق الأصل عن المرحوم زوجي.. هيا لنكمل طعام الفطور.

جلس الرجل وهو يئن..

ـ توقف.. لأحضر لك شراباً لعرق النسا.. أنا أيضاً مصابة بعرق النسا.. نشربه معاً.

وذهبت فأحضرت خمراً على أنه شراب لعرق النسا. وعندما بقي موظف الغاز وحيداً.. بدأ ينظر إلى نفسه في المرآة وهو يتحرك ذات اليمين وذات الشمال.. أحضرت السيدة سيان زجاجة وقدحين.. وملأتهما بالشراب..

ـ لنشرب.. إنه دواء جيد.

ـ للسعلة؟

ـ للسعلة.. وعرق النسا.. ولذلك الشيء...

وشربا.. ولما لم ينه الموظف شرابه بعد..

ـ يجب أن تشربه كله.. وإلا يبقى دون فاعلية..

عندما أنهى الموظف قدحه ملأته السيدة سيان مرة ثانية..

ـ هل ألبس الجزمة أيضاً؟

وشربا القدح الثاني..

ـ أشعر بدوار خفيف في رأسي.

ـ حسن جداً.. لقد فعل الدواء فعله.

ـ عفواً.. لمن هذه الألبسة؟

ـ لزوجي.

ـ هل أنت متزوجة؟

تنهدت السيدة سيان من أعماقها:

ـ كنت متزوجة.. ومات زوجي منذ ثلاثة وعشرين عاماً.. ومنذ ذلك الوقت أنا دائماً وحيدة. الآن بما أنك هنا وكأن زوجي أمامي الآن.. إنك تشبهه بشكل عجيب ومن الأصول أن تكون جنرالاً.

سكر موظف الغاز تماماً وبدأ يتحدث كالبلابل:

ـ ولماذا لا أكون.. طبعاً بإمكاني أن أكون.. وهذه الفكرة تراودني منذ

ولادتي، وإن لاحظت فمشيتي تدل على ذلك.

ـ نعم. وماذا كانت رتبتك في الجيش؟

ـ لم أخدم العسكرية.. كله من الغيرة.. لقد وضعوني في الخدمات الثابتة.

ـ هل أنت متزوج؟

قال الموظف وهو يسحب أكمامه بصعوبة:

ـ نعم. عندي زوجة (مبهدلة).. غيورة.. ولماذا هذه الغيرة؟ لست أدري.. وماذا بقي في حتى تغار؟

ـ لا تقل هكذا.. أنت قبل قليل قلت إنك تغتر بنفسك.

ملأت الأقداح ثانية:

ـ لنشرب.

ضربا الأقداح ببعضها.. وشربا حتى آخر نقطة.. لقد سكرا تماماً..

ـ من يدري كيف وجدت النساء في البيوت التي تدخلها..

ـ هل تقولين النساء..؟ حتى لا أنظر إليهن.

اقتربت السيدة سيان من الموظف وهي تدلل نفسها:

ـ أنت تقتل الإنسان.. من يدري كم من النساء قتلت حتى الآن..؟ والله تقتل..

كانا يضحكان بقهقهات عالية. بدأ موظف الغاز بالسعال مع الضحك حتى أوشك أن يختنق:

ـ ظهري.. إن ظهري يؤلمني..

ـ هل تقول ظهرك يؤلمك؟ كله من البرد.. ما رأيك لو أسحب لك محجماً الآن.. كنت أسحب للجنرال أيضاً.

أمسكت يد الموظف وأوقفته.. كانا يترنحان.. فدارا عدة مرات

وكأنهما في ساحة رقص، ثم أجلسته على المقعد..

ـ اخلع لباسك بينما أجلب المحجم..

ـ هل أخلع؟

ـ طبعاً. هذا لا يكون دون خلع.. هيا اخلع.. اخلع.

قال الرجل وهو يتلعثم:

ـ آمان.. إنني أغار.. لا تفعليها.. أنا أغار كثيراً من الدغدغة.

كانت قد خلعت السترة والقميص ومددته على الديوان.. عندها سمعت صوت خطوات في الخارج.. غطت الرجل مباشرة..

ـ إياك أن تتحرك.. إنها قادمة ثانية.

فتح الباب.. قالت السيدة ديها وهي تدخل من الباب:

ـ هل جاء؟

ـ ليس من قادم ولا ذاهب.

ـ سمعت قهقهات..

ـ لا.. كنت أضحك لنفسي.. لأنني تذكرت الأيام الماضية..

ـ ولكنني سمعت صوت رجل.

ـ هل تقولين رجلاً..؟ لا يا روحي، ربما تخيلت ذلك.

بدأ موظف الغاز بالسعال عندما لم يستطع أن يتحمل.. عندها بدأت السيدة سيان بالضحك والسعال بصوت قوي كي تستر صوت موظف الغاز.

قالت السيدة ديها عندما رأت الشراب فوق الطاولة:

ـ ما هذا..؟ كنت تشربين شراباً أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ ولكن هنا قدحين.. قبل قليل كنت قد جهزت إفطاراً لشخصين

أيضاً. هل تشربين بكأسين دفعة واحدة؟

ـ نعم. أنت تعرفين الوحدة يا سيدة ديها. وأرادت أن تقرن القول بالعمل.. مرة أجلس إلى هنا وأرفع قدحي على شرفك.. ومرة أنتقل إلى هنا حيث أضرب قدحي بالآخر.

ـ هيم..

كانت السيدة ديها ستجلس على المقعد، وإذا بالسيدة سيان تصرخ بقوة:

ـ توقفي لا تجلسي هناك..!

ولكن السيدة ديها جلست فوق موظف الغاز، فما كان من الرجل إلا أن قفز من تحتها مجنباً نفسه هذا الثقل الذي فوقه. خافت السيدة ديها كثيراً فالتصقت بالجدار، والموظف المسكين النصف العاري بجدار آخر.

صرخت السيدة ديها بخوف:

ـ آمان يا ربي.. ماذا أرى؟ من هذا؟

قالت السيدة سيان:

ـ إنه الجنرال.

سألت السيدة ديها الموظف:

ـ من أنت؟

ـ أنا موظف الغاز..

ـ آ آ.. إذن هو.. لقد جئت.. والتفتت نحو السيدة سيان وقالت:

ـ على أساس أنه الجنرال..

ـ هو أيضاً جنرال.. جنرال الغاز.. عنده ثياب أيضاً. انظري.. دعيه يمشي و(شوفيه).. واحكمي إن كان جنرالاً أم لا.

لبس موظف الغاز فوق جسمه العاري سترة الجنرال. أخذت السيدة ديها

الجريدة وجلست على الكرسي وبدأت تنظر مرة إلى الجريدة ومرة إليه..

ـ إنك تشبهه كثيراً.

ـ من؟

ـ موظف الغاز..

ـ طبعاً يا سيدتي.. كل من يراني يعرف أنني موظف غاز.. أنا أعمل بهذا السلك من أربعين عاماً. طبعاً فلن أشبه رئيس الجمهورية مطلقاً. إذا لم أشبه نفسي فمن أشبه..؟

أسرعت السيدة ديها مباشرة وقالت:

ـ سأخبر عنك..

وقفت السيدة سيان أمامها وبدأت تترجاها:

ـ لا تفعلي يا سيدة ديها.. السيئة لا تلد إلا مثلها.. لنتصرف معه بالحسنى.. لنفعل كل ما يقول لنا.. ثم ألم نتفق على هذا؟

ـ ولكن كنت ستخبريني..

ـ الآن نحن معاً.. وهذا يكفي.

ـ وإذا ما خنقنا.. ألست خائفة؟

ـ ليخنقنا إن أراد ذلك. على كل الأحوال سنموت.. إن متنا هكذا أو هكذا..

ـ نعم. هذا أفضل.. ليخنقنا إن أراد..

جلست السيدة سيان وملأت ثلاثة أقداح من الشراب وناولتهم..

ـ على شرفكم..

ضربوا الأقداح ببعضها وشربوا.. همست السيدة ديها في أذن السيدة سيان:

ـ هل لاحظت أنه يريد خنقك؟

ـ لا.. لا.. لا أستطيع أن أجرّمه..

ـ ماذا كنتما تفعلان هنا.. وأنتما عاريان.

ـ أنا..؟ لا شيء ظهري يؤلمني.. أدامها الله.. السيدة سيان كانت ستسحب المحجم على ظهري.

تظاهرت السيدة ديها بالمرح والفرح والنشاط وقالت:

ـ هل سحبت؟

ـ ما كنا قد بدأنا بعد.

ـ آ آ.. حسن جداً.. أنا أعرف جيداً سحب المحجم.. أين المحجم؟

ـ ها هو..

ـ وبعض القطن.

أمسكت السيدة ديها الموظف من تحت إبطه ومددته..

ـ تمدد.. تمدد..

والسيدة سيان كانت تخلع لباسه. وبما أن موظف الغاز كان يغار كثيراً من الدغدغة صار يقهقه بصوت عال.. ويتكلم بصعوبة.

ـ اتركوني.. لا تفعلوا ذلك.

وكانتا تضحكان بمرح.. خلعتا سترة الموظف.. والآن جزمته وبدأتا بسحب بنطاله..

ـ توقفوا.. بالله عليكم.. ماذا يحصل يعني..؟ لا تفعلوا.. أنا سأخلع.

ذهبت السيدة ديها وملأت الأقداح ثانية. كان الموظف يشرب ضاحكاً فذر الشراب في الهواء.. لقد غرقتا في دوامة من الضحك المتواصل. كانتا تتدللان.. وتتهامسان.

ـ هيا.. هيا.. اخنقنا.

- اخنقني..

- هيا اقتلنا.

- كذاب.

قال موظف الغاز بصعوبة وهو يختنق من الضحك:

- طيب.. طيب.. الآن سأدخل..

سقطت زجاجات المحجم على الأرض وتكسرت. ولأن الضحك كان يسرهن بدأتا بدغدغة الموظف (عن أبو جنب) من جميع أنحاء جسمه.

- هيا اخنقنا.. شو صار لك؟

- هل تستطيع خنق الاثنتين معاً؟

- كفى.. اقتلنا.. لماذا أنت واقف..؟ هيا.. ولكن..

بينما كان موظف الغاز يقهقه بصوت مرتفع، كانت السيدتان قد تدحرجتا على الأرض من شدة الضحك. جمد موظف الغاز في مكانه.. جسمه الأعلى عار ولا يلبس إلا السروال الداخلي. وأصبح مثل كومة العظام.. وانقطع صوته. نهضت السيدتان عن الأرض. اقتربت السيدة ديها من موظف الغاز بدلال.. أمسكت عنقه بيديها الاثنتين وبدأت تدغدغه..

- هيا يا روحي.. اقتلني..

- متى ستخنقنا يا روحي..؟ كفى هيا اخنقنا..

كانتا تدغدغان الموظف.. فوقع موظف الغاز عن المقعد إلى الأرض كقالب جامد.. وجمدت المرأتان.. وانحنتا سوية فوق الرجل.. ونظرتا في عيون بعضهن وصرختا معاً:

- لقد مات..

o o o

الفهرس

لن نصبح بشراً

ـ لن نصبح بشراً: جواب على سؤال تعلمته في السجن السياسي، الذي جمع كبار المثقفين، ورجال الأعمال، الشخصيات الهامة، الأطباء والمدراء العامون..

ـ التقيت بأحد الأصدقاء، ولما سألته فيما إذا وجد عملاً، أجابني: إن استخراج البترول في بلادنا، أسهل بكثير من الحصول على عمل لمن لا واسطة لديه.

ـ أرشدوني إلى رجل أعمال، ولما دخلت مكتبه نظر إليَّ وقال: اخلع سترتك، نفذت طلبه، وأمرني بالخروج صائحاً: ولك أنت لا تصلح للعمل. ولما سألته عن السبب: ألا تعلم أن ارتداء الثياب وخلعها يحتاج إلى علم وشهادة اختصاص من بلد أجنبي؟

ـ انتهت الحرب العالمية الأولى، وتخلصنا من آثارها بفضل حنكة ودهاء الباشا، لكن كيف تكون حالتنا بعده؟ ردَّ أحدهم: ولك، ألا تعرف أن الباشا لا يموت، وإذا مات سيظل يراقب الجميع.

ـ سمعني أحدهم وأنا اعترض على عدم تحقيق العدالة في ضريبة الخدمات المفروضة على المنازل والمحلات التجارية، ردَّ عليَّ غاضباً: ولك هل نفهم أكثر من الحكومة في فرض الضرائب.

وقصص أخرى مسلية، مضحكة، هادفة، كتبت بأسلوب قريب من العامية.

الناشر

السعر 200 ل.س